# ملحمة الجزائر

## شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا



سمير نور الدين دردور

# ملحمة الجزائر

## شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا

تأليف
سمير نور الدين دردور



# ملحمة الجزائر

سمير نور الدين دردور

**الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** http://www.hindawi.org



---

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٧ ١٧٣٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

# المحتويات

# ملحمة الجزائر







الشاعر مفدي زكريا ١٩٠٨–١٩٧٧م.

# إهداء

إليك يا مبدع نشيد بلادي،
إليك يا صاحب إلياذتها،
إليك يا شاعر ثورتها،
إليك أزف خالص الدعوات وأطيب التحيات،
إليك أهدي «ملحمة» شارحًا بها «إلياذة»،
إليك مفدي زكريا …

# مقدمة

## (١) صاحب إلياذة الجزائر

### (١-١) مولده ونشأته

وُلِد الشيخ زكريا بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان بن الحاج عيسى، المعروف بـ «مفدي زكريا» يوم الجمعة ١٢ يونيو ١٩٠٨م الموافق لـ ١٢ جمادى الأولى ١٣٢٦هـ بـ «بني يزقن، ولاية غرداية بالجزائر». نشأ في عائلة جزائرية محافِظة أصلُها من الأبيض سيدي الشيخ — غرب ولاية البيض. دخل الكتاتيب، وتعلَّم القرآن الكريم وأساسيات اللغة العربية.

لقَّبه زميل البعثة الميزابية والدراسة الأستاذ سليمان بوجناح بـ «مفدي»، فأصبح لقبه الأدبي مفدي زكريا. استعار في بداية مشواره الأدبي أسماء أدبية مختلفة: أبي فراس، ابن تومرت، فتى المغرب …

تنقَّل رفقةَ أسرته إلى مدينة عنابة، ثم رحل إلى تونس وأكمل دراسته بمدرسة السلام والمدرسة الخلدونية ومدرسة العطارين، ثم الزيتونة التي نال بها شهادة التأهيل، وعاد بعد ذلك إلى الجزائر، وكان له دور كبير في إثراء المشهد الأدبي والسياسي. انخرط في صفوف الشبيبة الدستورية التونسية، ثم انضم إلى الحركة الوطنية الجزائرية، وناضل بداية من الثلاثينيات في صفوف جمعية «طلبة شمال إفريقيا المسلمين» و«نجم شمال إفريقيا» و«حزب الشعب» و«الانتصار للحريات الديمقراطية» ثم «جبهة التحرير الوطني».

تعرَّف على العديد من الشخصيات الوطنية والعربية عندما كان مقيمًا بتونس. لازم أبا العربي الكبادي، ورمضان حمود، وأبا القاسم الشابي.

وظَّف مفدي زكريا في المجال الإعلامي رصيدَه الثوري عندما تولَّى رئاسة تحرير جريدة «الشعب»، لسان حال حزب الشعب في سنة ١٩٣٧م.

سُجن عدة مرات بسجن بربروس (سركاجي)، وبعد قضائه مدة ثلاث سنوات فرَّ إلى المغرب، ثم إلى تونس، وأصبح سفيرًا للقضية الجزائرية.

ساهم في تحرير جريدة المجاهد إلى غاية الاستقلال، وكانت له إسهامات عبْر العديد من المقالات القيمة في صحف وجرائد عربية رائدة، منها جريدة «الأخبار» و«الصواب» التونسيتان و«اللواء» المصرية.

## (١-٢) إنتاجه الفكري والأدبي

بعدما كتب النشيد الرسمي «فداء الجزائر»، ونظم النشيد الوطني للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية «قسمًا» الذي لحَّنه الأستاذ محمد فوزي، كتب مفدي زكريا «إلياذة الجزائر» التي هي محل بحثنا، استطاع بكتاباته وأشعاره ونضاله السياسي والثقافي أن يُعرِّف بقضية شعبه في العالم العربي، ويدعو إلى الوحدة العربية في مواجهة القوى الاستعمارية والتكتلات الإقليمية.

له العديد من المؤلَّفات، أخص منها: «تحت ظلال الزيتون» (ديوان شعر) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٦م، «اللهب المقدس» (ديوان شعر) صدر في الجزائر عام ١٩٦١م، صدرت طبعته الأولى في عام ١٩٧٣م، «من وحي الأطلس» (ديوان شعر) ١٩٧٦م، وله عدد من القصائد الشعرية الوطنية: «من جبالنا طلع صوت الأحرار» سنة ١٩٣٢م، و«فداء الجزائر روحي ومالي» سنة ١٩٣٦م، و«اعصفي يا رياح»، ونشيد جيش التحرير الوطني، ونشيد العمال ونشيد الطلبة.[١]

[١] مقدمة الطبعة الأولى لـ «مولود قاسم نايت بلقاسم» للشاعر مفدي زكريا: «إلياذة الجزائر»، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧م، ص٩.

وقد كان لمؤسسة مفدي زكريا بولاية غرداية فضلُ جمع التراث الفكري والأدبي للشاعر.

### (١-٣) التشريفات

نال مفدي زكريا العديد من الاستحقاقات والتشريفات، من بينها: «وسام المقاوم من رئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد في سنة ١٩٨٧م»، و«وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني من رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في سنة ١٩٩٩م»، و«وسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الأولى من عاهل المملكة المغربية سنة ١٩٦١م»، و«وسام الاستحقاق الثقافي من الحبيب بورقيبة، رئيس الجمهورية التونسية».[٢]

### (١-٤) وفاته

تُوفِّي الشاعر مفدي زكريا — رحمه الله — يوم الأربعاء ١٧ أغسطس ١٩٧٧م الموافق لـ ٢ رمضان ١٣٩٧هـ بتونس، ونُقل جثمانه إلى الجزائر ليُدفن بمسقط رأسه بعد عطاء ثري ونضال وفي.

## (٢) موضوع الإلياذة

موضوع إلياذة الجزائر موضوع ملحمي، يروي تاريخ الجزائر وأهم البطولات التي خلَّدها أبناؤها، والواضح أنَّ طريقة إلقاء الإلياذة بتلك الصورة الإبداعية والحماسية في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة ١٩٧٢م بالجزائر ونمط تركيبها واستعمال مفدي زكريا للمحسنات عوامل أعطت الإلياذة رونقًا أدبيًّا وجرسًا موسيقيًّا يثير في النفس عزَّة الروح الوطنية، ويربِّي فيها قوة الارتباط بأمجادها وتاريخها وبطولاتها، وهي في حد ذاتها رسالة قوية قوة القضية الجزائرية عبْر التاريخ، ترسم في أبياتها معالم الدولة الجزائرية المعاصرة وأصالة مبادئها الإسلامية والعربية والأمازيغية.

[٢] مفدي زكريا، «أمجادنا تتكلم»، جمع وتحقيق مصطفى بن الحاج بكير حمودة، مؤسسة مفدي زكريا والوكالة الوطنية للإشهار، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص٣.

إلياذة الجزائر، ديوان شعر، أرَّخ لتاريخ الجزائر، واجتهد في إزالة ما علِق به من شوائب، في صورة ملحمةٍ[3] تنبع حركة وأحاسيس جياشة.

وقد اشترك في ضبط نسجها التاريخي كلٌّ من مفدي زكريا الذي كان مقيمًا حينها بالمغرب، ومولود قاسم نايت بلقاسم الذي كان بالجزائر، وعثمان الكعاك من تونس. برزت الفكرة الأولى لنظم الإلياذة من قِبَل الأستاذ مولود قاسم — رحمه الله — الذي راوده مشروع الإشادة ببطولات هذا الوطن ومقوِّماته الدينية والثقافية والتاريخية في شكلِ ملحمةٍ خلال الملتقى الخامس للفكر الإسلامي الذي أُقيم بوهران سنة ١٩٧١م، طلب من خلالها من الشاعر مفدي زكريا كتابتها تحضيرًا للملتقى السادس، الذي كان مقررًا أن يُقام في قاعة المؤتمرات لقصر الأمم بالجزائر العاصمة.

ويا مُلتقى فِكرِ إسلامنا        ومجلى قداسةِ إيماننا

ويقول في بيتٍ آخر:

سلامٌ على مهرجان الخلود        سلامٌ على عيدِك العاشر

كان مولود قاسم يراجع مادة الإلياذة التاريخية، ثم يقوم الأستاذ عبد المجيد غالب بخطِّها.

تتكوَّن الإلياذة من ألفِ بيتٍ وبيت، تغنَّت بأمجاد الجزائر وحضارتها ومقاوماتها لمختلف الأمم المستعمِرة والمغتصِبة التي تدافعت عليها. أُلقيت بداية الإلياذة، وكان عددها ستمائة وعشرة أبيات، في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي أمام جمْعٍ غفيرٍ من المؤتمرين، حضر لاستماع بعضٍ منها رئيس الجمهورية الراحل هواري بومدين — رحمه الله.

اقترن إلقاء الإلياذة بالاحتفالات المخلِّدة للذكرى العاشرة لاسترجاع السيادة الوطنية، والذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر والمدية ومليانة على يد بلكين بن زيري.

---

[3] الملحمة: «قصة بطولية تحكي شعرًا ثوريًّا على أفعالٍ عجيبة؛ أي على حوادث خارقة للعادة، وفيها يتجاوز الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب» (غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٤٣).

ركَّزت الإلياذة على أهم المحطات التاريخية التي صنعت الجزائر، وبطلها ليس من وحي الخيال، وليس من أوهام وإبداعات الأسطورة، ولا من قبيل الرواية الشعبية المتواترة، ولا وجهَ للشبه فيها لإلياذة هوميروس ... إنما البطل فيها هو الشعب الجزائري في أوج تطوره وتنوُّع مشاربه العقدية والتاريخية والثقافية، عبْر فترات تاريخية يمكن إجمالها بداية من العصور القديمة إلى العصر الوسيط، وصولًا إلى العصر الحديث والمعاصر، ومحرِّك البطولة فيها هو مقوماته الإسلامية والأمازيغية والعربية، ودافع رفض الاستعمار والاستعباد في شتَّى صوره وأشكاله. لا مجالَ للتذكير أنَّ التَّاريخ رغم تقسيماته، هو وحدةٌ متواصلة وممتدة لا تصنعه الأمم المغيرة، ولا الدول المستعمرة، ولكن تصنعه الشعوب المقاومة والمكافحة من أجل صد العدوان في سبيل الحفاظ على مقوماتها واستعادة كرامتها وحريتها وسيادتها.

تختلج الدراسة التاريخية للإلياذة مسحة دلالية، أسهمت بشكل واضح وقوي في إعطاء الإلياذة حركية بطولية ورونقًا بلاغيًّا أضفى عليها حُلةً جميلةً منمَّقةً بجميل الطبيعة، ومزينةً بعبق التاريخ الذي لازم الألفية بطولة وأخلاقًا.

## (٢-١) المسحة الجمالية في الإلياذة

أخذ التصوير الجغرافي حيزًا مهمًّا في الإلياذة، وهو يحمل دلالةً جمالية منبعُها الوصف الطبيعي، ودلالةً تاريخية مصدرَ طمعِ الأممِ المستعمِرة من الفينيقيين والقرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين والإسبان والفرنسيين.

| | |
|---|---|
| جزائرُ يا مطلع المعجزات | ويا حُجَّةَ اللهِ في الكائنات |
| ويا بسمةَ الرَّبِ في أرضه | ويا وجهه الضاحك القسمات |
| ويا لوحة في سجلِّ الخلود | تموج بها الصورُ الحالمات |

تتجلَّى عبقرية مفدي زكريا في الجمع بين الدلالتين الجمالية والتاريخية في البيتين الأُخريين من المقطع الأوَّل للإلياذة:

| | |
|---|---|
| وألقى النهاية فيها الجمال | فهِمْنا بأسرارها الفاتنات |
| وأهوى على قدميها الزَّمان | فأَهوى على قدميها الطغاة |

وفي منطلق العقيدة التي قال عنها مفدي زكريا:

شربتُ العقيدة حتى الثُّمالة وأسلمتُ وجهي لرب الجلالة

كانت مقتضيات العقيدة الإسلامية حاضرة بقوة في شعره؛ فها هو يربط بين جَمال أرض الجزائر الخلاب، وبين الإيحاء الذي يتركه هذا التفكُّر في الجمال من إيمان واعتقاد يجلي في النفس تسليمًا جازمًا بالربوبية والاهتداء إلى سواء السبيل.

فلولا جمالك ما صحَّ دِيني وما أن عرفت الطريق لربي

في مجال التفكُّر والاعتبار، يمكن لنا الاقتباس على عموم المقصد لا خصوص التنزيل، قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الآية: ٤٦).

## (٢-٢) البطولة

لازمت البطولة أبيات الإلياذة، واتخذت من العامل الزماني والمكاني والبشري والحيواني سرَّ تنوُّع وقوة، أضفى على عمله الأدبي والتاريخي حركية وجاذبية، ليست البطولة من وحي الخيال، وإنَّما واقع تاريخي لأمةٍ مجاهدةٍ تحدَّت أقوى الاستعمارات القديمة والحديثة.

هوميروس أرَّخ ... لم ينتقد وشهْنامة الفرس بالوصف تغلو
فقلت: وشِعر الخرافات يفنى وشِعر البطولات لا يضمحل

وما ورد في الإلياذة من ذكْر للأسطورة فمن جانب البلاغة في المعنى، والقوة في بيان البطولة التي أصبح ذكرها متواترًا على مرِّ الأزمنة والعصور.

ويا للبطولات تغزو الدُّنا وتمنحها القيم الخالدات
وأسطورة رددتها القرون فهاجت بأعماقنا الذكريات

ومن قوة الإلياذة ذِكر بطولات كل المناطق الجزائرية باختلاف مواقعها وتضاريسها، ولم يخص منطقة من الجزائر دون غيرها، ولا مقاومة دون غيرها.

فيا أيها الناس هذي بلادي ومعبد حبي وحُلم فؤادي
وإيمان قلبي وخالص دِيني ومبناه في ملتي واعتقادي
بلادي أحبك فوق الظنون وأشدو بحبك في كل نادي
عشقتُ لأجلك كلَّ جميل وهِمْت بحبكِ في كلِّ وادي

## (٢-٣) قِيَم الإلياذة

يمكن تقسيم أبيات الإلياذة من حيث الموضوع إلى قيم جمالية وتاريخية ووطنيَّة.

فالقيم الجمالية تشمل ذلك الوصف الشاعري لجمال التَّضاريس الطبيعية والتَّغني بأفنانها وغاباتها وبمواقعها الأثرية وبمناطقها السحرية، وما يتخلل كل ذلك من خواطرَ نفسية، منها قول الشاعر مفدي في المقطع الأول:

ويا تربة تاهَ فيها الجَلال فتاهت بها القمم الشامخات
وألقى النهاية فيها الجمال فَهِمْنا بأسرارها الفاتنات

وقد أحصينا ٢٩٠ بيتًا تُذكر فيها القيم الجمالية؛ أي بنسبة ٢٨٫٩٧٪ من مجموع الإلياذة.

أما القيم التَّاريخية فهي تلك الوقفات التاريخية والعوامل الزمنية والمكانية التي صنعت تاريخ الجزائر، كما تتضمن ذِكر الأعلام والمعارك والمدن في جانبها التاريخي، ومنها قول صاحب الإلياذة:

وهال ابن رستم ألا نسود ونبني كِيانًا لنا مستقلا
فقام بتيهرت يُعلي اللواء ويُرسِي نظامًا وينْشر فضْلا

يُقدَّر عدد الأبيات الحاملة للقيم التاريخية ٤٢٨ بيتًا؛ أي ما يُعادل ٤٢٫٧٦٪ من مجموع الإلياذة، وهي أعلى نسبة من حيث إحصاء القيم.

أما عن القيم الوطنية فهي كل تجليات القيم التي تصنع شخصية الجزائر، وهي الإسلام والأمازيغية والعروبة، ومبادئ الدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وآفاق الوحدة المغربية، وحُلْم تحرير فلسطين المغتصبة، كما تشمل الأخلاقَ والطِّباع والمواقف البطولية، والفكر ومناهج السياسة والاقتصاد والاجتماع. يقول مفدي زكريا في المقطع ٧٩:

تفسَّخ هذا الشباب وماعا  وخرَّب أخلاقه وتداعى
فويل الجزائر والمسلمين  إذا دنَّس النشء هذي الطِّباعا

مجموع الأبيات التي تتكلَّم عن القيم الوطنية هي ٢٨٣؛ أي ما يُقدَّر بنسبة ٢٨,٢٧٪ من الإلياذة.[٤]

## (٤-٢) التناص القرآني في الإلياذة

تتجلَّى شخصية مفدي زكريا المتشرِّبة من منبع الثقافة الإسلامية في أبهى صور الاقتباس من القرآن الكريم والشعر والحكم والأمثال؛ لتعطي للإلياذة رونقًا ومهابة وإضافة جليلة في النظم. نورد في هذا العنوان بعضًا من التناص القرآني الوارد في الإلياذة؛ لأنَّ القرآن الكريم يُعد «... من أهم مصادر الصورة الشعرية عند مفدي زكريا؛ فقد كان يستقي مشاهده التصويرية والإيقاعية من مشاهد القرآن الكريم وجرس ألفاظه ...»[٥]

### المقطع ٣

ويا بابل السحر من وحيها  تلقَّب هاروتُ بالسَّاحر

اقتباس من قوله تعالى: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ومَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ ومَارُوتَ ...﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٠٢).

---

[٤] انظر تفصيل إحصاء القيم حسب المقاطع في الملحق رقم ١، ص١٤٦–١٤٩.
[٥] محاضرة أ. صباح لخضاري، معهد الأدب واللغات، المركز الجامعي النعامة، الجزائر، ٢٠١٤م.

**المقطع ٨**

ويلتفُّ ساقٌ بساق، فنصبو      فيغْمرنا ملتقى الفكر نصحا

﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ❁ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (سورة القيامة، الآيات: ٢٩-٣٠).

**المقطع ١٠**

ومن خائرين كأعجاز نخل      ضمائرهم في المزاد رقيقة

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (سورة القمر، الآية: ٢٠).

**المقطع ١٢**

وأنفاسه تغمر الصَّبَّ دَفْئا      فينسى حرارة يوم الحساب

﴿وقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (سورة ص، الآية: ١٦).

**المقطع ١٤**

تسلَّقْ إيعكورن واغزُ السها      وطاولْ به سِدرةَ المنتهى

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ❁ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوى﴾ (سورة النجم، الآيات: ١٤-١٥).

**المقطع ١٦**

وسبَّح لله ما في السَّموا      تِ والأرضِ ملء شفائف شفا

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَواتِ ومَا فِي الْأَرْضِ وهُو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الحشر، الآية: ١).

**المقطع ١٨**

وأخــرجــت الأرضُ أثــقــالــهــا فطارَ بها العلمُ ... فوقَ الخيال ...!

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (سورة الزلزلة، الآيات: ١-٢).

**المقطع ٤٨**

وتغري الكراسي ضعاف العقول كـنـار جـهـنـم تـرجـو الـمـزيـدا

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (سورة ق، الآية: ٣٠).

**المقطع ٥١**

تــأذَّن ربُّـك لــيــلــةَ قــدر وألقى الستارَ على ألف شهر

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (سورة القدر، الآية: ٣).

**المقطع ٥٨**

وأخضر يحصُد حُمْرَ الحوا صلِ فيها، ويقطع منه الوتين

﴿ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦).

**المقطع ٦٢**

وجاسوا خلال الديار، فكانوا رُجومًا تُحيل الظلام نهارا

﴿فَإِذَا جَاءَ وعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وكَانَ وعْدًا مَفْعُولًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٥).

**المقطع ٧٧**

ويدعو لكل احتلال ثبورًا ويضْرع في النكبةِ المدلهمة

﴿وأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وراءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ (سورة الانشقاق، الآيات: ١٠-١١).

**المقطع ٨١**

فويلٌ لطلابٍ من شيوخ توافه، لا يَعْلَمون الكتابا

﴿ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٧٨).

**المقطع ٨٣**

غرابيبُ سود، تُجيد النَّعيق وتختالُ في مشيها كالزَّرافة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوانُهَا ومِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهَا وغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (سورة فاطر، الآية: ٢٧).

**المقطع ٨٧**

ولم ترضَ بالفحل من قومها      فهامت بمن «ما رمى إذ رمى»

﴿... ومَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولَكِنَّ اللهَ رَمَى ...﴾ (سورة الأنفال، الآية: ١٧).

**المقطع ٩٠**

وبالمالِ تقذف طوعًا وكرهًا      بأحضانِ مَن نفضته الدُّهور

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ولَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَواتِ والْأَرْضِ طَوْعًا وكَرْهًا وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٨٣).

**المقطع ٩٧**

وألقيتُ في الساحرين عصاي      تلقَّفُ ما يأفكون بسحري

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء، الآيات: ٤٥-٤٦).

**المقطع ١٠٠**

ولم يبرحوا الأرض، لما استقلَّت      شعوبٌ، ولم تَسْتَكِنْ للهوان
وزلزلت الأرض زلزالها      وضجَّ لغاصبك النيِّران
وراهنه الشعبُ يوم التنادي      ورجَّ به الشعب يوم الرهان

﴿... فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وهُو خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٨٠)، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (سورة الزلزلة، الآية: ١)، ﴿ويَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (سورة غافر، الآية: ٣٢).

ولإبراز أهم المحطات التاريخية الواردة في الإلياذة، أقدِّم هذا الكتاب الذي سميته «ملحمة الجزائر: شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا» لأستشفَّ من خلاله أروع بطولات وأمجاد الشعب الجزائري في نضاله وكفاحه ضد الأمم الاستعمارية التي توالت عليه؛ ولأبرزَ صفاته وطبائعه وحبَّه للشعوب التواقة للانعتاق، كما لا يخلو البحث من صور التضامن الذي توليه الجزائر للقضية الفلسطينية، ورغبتها الحثيثة في تجسيد مبدأ الوحدة العربية والمغاربية والاهتمام بقضايا التحرُّر والانعتاق.

فكيف لبلدٍ متأصلٍ في جذور التاريخ، ومشهود له بالسبق الحضاري في شتَّى العلوم والمعارف، ومتمتع بكل مصادر الجمال والرونق، ومحققًا لمعجزات الثبات على الحق، والدفاع عن الشرف والمقدسات، والذود عن حمى الأوطان؛ أن ينحرف بعضُ أهله عن مصادر القوة والمَنَعَة! ولعل هذا التناقض هو أبرز معالم الإشكالية في إلياذة الجزائر.

وسأحاول أن أقدِّم مقاربة تاريخية أراعي فيها التسلسل التاريخي ومستلهمًا الشرح والاقتباس من أهم مصادر التاريخ الجزائري الموثوقة بعيدًا عن كل ما شاب هذا التاريخ العريق من أباطيل بعض المستشرقين وشهادات الناقمين على الجزائر، مراعيًا في ذلك صدق المورد وأمانة الإحالة، ومتحريًا قدْر المستطاع مواطن الإجماع والوفاق بين المؤرخين والمؤلفين الجزائريين على سبيل الأولوية.

وأعلل ما ذهب إليه مؤرخ الجزائر الأستاذ أبو القاسم سعد الله — رحمه الله — بقوله: «إننا شعب يُحسِن صناعة التاريخ، ولكنه لا يجيد روايته.» إلى السطحية في الدراسات التاريخية الناجمة عن خلفيات التعامل مع القضية الوطنية بحكم المشارب الغربية والأفكار الغريبة عن طبيعة الشعب الجزائري، وبحكم القهر الاستعماري الذي غيَّب الكثير من حلقات البحوث التَّاريخيَّة.

المبحث الأول

# العصور القديمة

جزائرُ يا مطلعَ المعجزات ويا حجَّةَ الله في الكائنات

مطلعٌ يثير في النفس عزَّةً جليلة ونخوة قوية، يُعبِّر فيه الشاعر عن صدْق الرابطة المتأصلة نحو بلده، وعن بلوغ أسمى الوصف لمرتبته. سايرت المعجزات مجمل الرسالات السَّمَوية عبْر التاريخ واستطاعت، بحكم مصدرها الرباني، أن تُسكِت الأفواه وتصحِّح المسار وتُلهِب في قلوب المناوئين نور الصراط المستقيم. وها هو مفدي زكريا يستخدم مصطلح المعجزة؛ بل مطلعها، ويزيدها قوة إلى قوَّتها بإضفاء صفة حجة الله على الجزائر، تعبير يَعجز قلب القارئ أن يتحمَّل هيبته وجلاله، وهو الذي يحمل في طياته عبْر الأمم الغابرة والحاضرة في نظم تاريخي سجل أروع بطولات وأمجاد الجزائر، وصراعها الأزلي من أجل الحفاظ على الهُوية والكرامة والرقي.

في إشارة للإنسان، استخدم مفدي زكريا اسم «آدم» كلفتةٍ طيبةٍ لسرد الأحداث من بداية الخلق:

وألهمتُ إنسان هذا الزمان فكانَ بأخلاقنا مومنا
وعلَّمتِ آدمَ حبَّ أخيه عساه يسير على هدينا!

وتتجلّى حقوق الإنسان التي طالما نادى بها شاعر الثورة، وفيها إشارة نبيلة للفطرة البشرية الرافضة للظلم والتواقة لتكافؤ الفرص والعدل ورفعة الهمة.

وحــذَّر آدمَ ظـلــمَ أخــيــه      وسوَّى الحظوظَ وأعلى الرءوسا
وأخـرجَ حـواءَ مـن رَمْـسـهـا      فألهمتِ الروحُ هذي الرُّموسا

والحديث عن الخلائق التي جاءت من بعد آدم يضفي على شعر مفدي زكريا معاني الحكمة التي يحملها السرد التَّاريخي، في إشارة إلى وحدوية المبادئ الإنسانية، وثبات النواميس الكونية، وسريان القوانين الربانية في الخليقة.

وأوقـفـت ركـبَ الـزمـانِ طـويـلًا      أسـائـلـه: عـن ثـمـودٍ ... وعـادٍ ...
وعن قصَّةِ المجد ... من عهد نوح      وهـل إرمٌ ... هـي ذات الـعـمـاد؟
فـأقـسـم هـذا الـزَّمـان يـمـيـنًـا      وقـال: الـجـزائـر ... دون عـنـاد!

وفي نفس السياق التاريخي، يستلهم الشاعر مفدي زكريا تغنيه بجمال الجزائر من إيحاءات السحر الواردة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ومَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ ومَارُوتَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٠٢).[١]
بقوله:

جـزائـرُ يـا بـدعـةَ الـفـاطـر      ويا روعةَ الصانع القادر
ويا بابلَ السِّحر من وحيها      تـلـقَّـب هـاروتُ بـالـسـاحـر

[١] بابل: بلد في سواد العراق، هاروت وماروت: بدل أو عطف بيان للمَلَكَين. قال ابن عباس: «هما ساحران كانا يعلِّمان السحر، وقيل: مَلَكان أُنزلا لتعليمه ابتلاءً من الله للناس» (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٩).

تشبُّع مفدي زكريا بالثقافة الدينية جعله يستلهم سرده التاريخي في وصف الجزائر من المصدر القرآني: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى﴾ (سورة الأعلى، الآية: ١٨-١٩).[٢]

وسبَّح لله ما في السَّموا　　تِ والأرضِ ملء شفائف شفا
كأنك تصغي بها للخليل　　وموسى الكليم يرتِّل صحفا

كان حرص مفدي زكريا في رحلته التَّاريخية التذكيرَ بمقومات الشعب الجزائري ومرجعيته الدينية والتاريخية والثقافية، وحضوره المميَّز في صناعة التاريخ بكل ما يقتضيه واقع التاريخ من سِلم وحرب.

وفي كل شبرٍ لنا قصَّة　　مجنحة من سلام وحرب

نستشف في إلياذة الجزائر ظاهرة حضارية مميزة اختُصَّ بها أصل هذه الأمة ألا وهو عدم الذوبان في حضارات الدول الغازية، والحفاظ على الهُوية والتقاليد والمقومات رغم الأهوال التي مرَّت بها عبْر الأزمنة والعصور، وكيف استطاعت الجزائر قهر الأعداء، وفرض نظام حياتها أصيلًا في مصدره وفي منهجه بالرغم من تسجيل بعض مظاهر الزيغ التي أشار إليها الشاعر بعد استعادة السيادة الوطنية.

وأهوى على قدميها الزَّمان　　فأهوى على قدميها الطغاة
وأسطورة ردَّدتها القرون　　فهاجت بأعماقنا الذِّكريات

أثبتت الحفريات والنقوش الصخرية والمعالم الجنائزية أنَّ أرض الجزائر عرفت تواجدًا بشريًّا مميزًا لآلاف السنين قبل الميلاد، ساهمت في نموه الظروف الطبيعية الملائمة. اكتشف العالم الأثري «أرامبورغ» هيكلًا عظميًّا في ناحية معسكرٍ يعود إلى ٤٥٠ ألف

[٢] الصحف المنزَّلة قبل القرآن وعشرة صحف لإبراهيم والتوراة لموسى، المرجع السابق ص٧٣٧.

سنة قبل الميلاد، خلص في بحثه إلى أنَّ الجزائر هي مهد العنصر البشري المتحضِّر،[٣] ولقد تعاقبت على الجزائر حضارات، منها الآشولية والعاترية والأبيروميرية والقفصية ظهرت حوالي ٨ آلاف سنة قبل الميلاد.[٤]

يُشار إلى السكان الأصليين للجزائر أحيانًا بالبربر، وأحيانًا أخرى بالأمازيغ. أما البربر فاسمٌ عُرف به سكان شمال إفريقية من قِبَل الإغريق والمصريين والرومان بعدما كانوا يُسمُّون بالليبيين.

و«بربر» في لغة الإغريق Barbarus يعني الصوت الذي يصدره الألثغ، ثم صارت تسميةً على كلِّ مَن لم يتكلَّم لغتهم، ومن ثَمَّ أطلقها اليونان على كلِّ مَن ليس يونانيًّا.[٥] يقول ابن خلدون: «يُقال: إن إفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة، لما غزا المغرب وإفريقية، وقتل الملك جرجيس، وبنى المدن والأمصار، وباسمه زعموا سُمِّيت إفريقية، لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوُّعها، تعجَّب من ذلك وقال: «ما أكثر بربرتهم»! فسُموا بالبربر، والبربرة بلسان العرب، هي: اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنها، يُقال: بربر الأسد، إذا زأر بأصواتٍ غير مفهومة.»[٦]

نعت الإغريق والرومان البربرَ بعدم التحضُّر وتفاقم الفوضى، يقول بوسكي Bousquet: «إنَّ كلمة بربر أصلها لاتيني وتعني الأشخاص الذين لا ثقافة لهم، ويعيشون خارج نطاق روما.»[٧] تلك هي أحكام «العالم المتحضر» الذي استمد قوَّته من احتلال الأوطان والغطرسة على شعوبها وإجبارها على الذوبان في أنظمتها الاستعمارية. أما الأمازيغ، فهي تسمية تعني الإنسان الحر أطلقها الأمازيغ على أنفسهم؛ فهم السكان الأصليون لشمال إفريقية رغم اختلاف صفاتهم العرقية في بعض المناطق. يرتفع نسب

[٣] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص٤٦.

[٤] عمورة عمار، «موجز في تاريخ الجزائر»، دار ريحانه للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٥.

[٥] فتيحة فرحاتي، «نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني: الحياة السياسية والحضارية (٢١٣–٤٦ق.م)»، منشورات أبيك، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٣٠.

[٦] عبد الرحمن بن خلدون، «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١١٧.

[٧] عمورة عمار، مرجع سابق، ص٦.

الأمازيغ إلى مازيغ، وقد سبق لوفدٍ بعد فتح مصر أن عبَّروا عن ذلك في حضرة الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حينما ذهبوا إليه.

وعندما سأل عمر بن الخطاب عن أصل الأمازيغ أجابه شيخ قريش: «يا أمير المؤمنين، هم البربر أولاد بر بن قيس بن عيلان.»[8]

«ينقسم البربر إلى قسمين؛ البتر: وهم أبناء مادغيس الأبتر بن بر بن مازيغ، ومن قبائل البتر: مديونة، لواتة، زناتة، زواوة، نفوسة، مطغرة، مطماطة، زواغة، مغيلة ونفزة. البرنس: وهم أبناء برنس بن بر بن مازيغ، ومن قبائل البرنس: كتامة، أوربة، صنهاجة، مصمودة، لمطة، جزولة، عجيسة وهسكورة.»[9]

عُرف الأمازيغ بالشجاعة والإقدام والعيش في إطار نظام له مقوماته التنظيمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. يقول مفدي زكريا في الإلياذة:

| | |
|---|---|
| فأبناء مازيغ قادوا الفدا | وخاضوا المعامع يوم الصدام |
| وساقوا المقادير، طوع خطاهم | وشادوا البِنا ... وأقروا النظام |
| صمود الأمازيغ عبْر القرون | غزا النيِّرات، وراع النجوما |

ويقول في المقطع ٢٨ منها:

| | |
|---|---|
| ونحن الأمازيغ نرعى الذمام | ولا نجحدُ الفضل والآصرة |

تطرقت الإلياذة إلى التاريخ الجزائري عبْر العصور القديمة، من خلال أبرز الوقائع التاريخية الممتدة من العهد الفينيقي وصولًا إلى العهد البيزنطي.

[8] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص٣٣.

[9] عمورة عمار، مرجع سابق، ص٧.

الفصل الأول

# العهد الفينيقي

١٢٠٠–١٤٦ق.م

«إنَّ الأمة إذا غُلبت وصارت في مُلك غيرها أسرع إليها الفناء.»[١]

ذلك قانون تاريخي؛ بل بديهة حضارية تصير إليها كل أمة أو دولة نشأت في محيطها الطبيعي واشتد عضدها فيها، ثم توسَّعت لأسباب ذاتية على حساب غيرها من الشعوب لتنهب خيراتها، وتحتل أراضيها، وتعتدي على مقوماتها الوطنية. ينتسب الفينيقيون إلى العنصر الكنعاني السامي الذي ينتمي إليه العرب، «كانت لغتهم عربية محرَّفة قليلًا عن العربية الفصحى، وتشبه كثيرًا العامية المستعملة في بلادنا اليوم.»[٢]

## (١) التعايش الأمازيغي الفينيقي

هاجرت الأصول الأولى للفينيقيين من شبه الجزيرة العربية، واستقرت في مدينتي صيدا وصور،[٣] وسُمِّيت الأراضي التي استقرَّت بها ب «فينيقيا». أبْحَر الفينيقيون بأعداد كبيرة من فينيقيا، واستقروا بسواحل البحر الأبيض المتوسط من واجهة شمال إفريقية في

---

[١] عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، الجزء الأول، ص١٨٥.

[٢] أحمد توفيق المدني، «كتاب الجزائر»، المطبعة العربية، ١٩٣١م، ص٦.

[٣] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٩.

القرن ١٢ق.م، وأسسوا الموانئ في بادئ أمرهم على طول الساحل البحري، وطوَّروا نشاطهم التجاري، وأنجزوا ورشات لصناعة السفن وإصلاحها. لم يكن استقرار الفينيقيين بشمال إفريقية استعماريًّا مضطهدًا لسكانه الأصليين بقدْر ما كان استقرارًا له طابع اقتصادي وتجاري، استطاع الفينيقيون من خلاله توطيد علاقاتهم بالسكان وإدماجهم في الحركة التجارية. ولم يسجل التاريخ أي حملة ضد السكان المحليين مفادها اضطهاد الأمازيغ وتصفية قياداتهم مثلما فعل الرومان من بعدهم، ولعل ذلك يرجع إلى الأصل المشترك بين الفينيقيين والأمازيغ، وأنَّ اللهجة السامية تشملهما، ولا ريب وأنَّ هذه اللغة القرطاجنية قد مهَّدت السبيل إلى سيادة اللغة العربية بهذه الديار.[٤]

كان أول ما أسَّس الفينيقيون من المدن قرطاجة أو قرطاجنة سنة ٨١٤ق.م. وهي في لغتهم «قرت حدشت» ومعناها: القرية الحديثة، وبمصطلح عصري: المدينة الجديدة.[٥] ونظرًا للطابع الاستراتيجي في الميدان التجاري لبعض المناطق النوميدية، أنشئوا بها مدنًا، مثل: عنابة Rigius، وسكيكدة Risicada، وقسنطينة Cirta، وجيجل Ighilgili، وبجاية Saldae، والجزائر العاصمة Icosium، وإيول Iol (شرشال).

أسَّس الفينيقيون مدينة الجزائر (إيكوسيم) حوالي القرن ٦ق.م، وينسب بعض المؤرخين تسميتها للدلالة على العشرين من حاشية هرقل، وقيل: نسبة إلى «جزيرة النورس» عندما حوَّلها الفينيقيون إلى ميناء تجاري هام باقتراح من «هارودين» تحت حكم يوبا الأول.

بولوغين إن صانها فيرموس وحازت إكوسيوم أقصى المرام

تعود تسمية النوميديين إلى الكتابات التاريخية الأولى لديودور الصقلي التي ذكر فيها أن النوميديين شاركوا في حروبٍ جرَت في نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد، وهي نسبة إلى «رحل» Numidae.[٦] ولقد قطعت قرطاجنة صلاتها بفينيقيا

[٤] أحمد توفيق المدني، «قرطاجنة في أربعة عصور: من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م، ص٣٥.

[٥] عمار بوحوش، مرجع سابق، ص١٠.

[٦] فتيحة فرحاتي، «نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني، الحياة السياسية والحضارية (٢١٣–٤٦ق.م)»، منشورات أبيك، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٢١.

في الوقت الذي تدهورت فيه تلك الجمهورية الآسيوية، وسقطت فيه مدينة صور تحت ضربات بختنصر الفاتح الكلداني (٦٠٤–٥٦١ق.م).[٧]

توجَّس الفراعنة المصريون خِيفةً من النظام القَبَلي الذي عُرف به الليبيون قديمًا فأعدوا له عُدة المواجهة والتصدي؛ فقد سجل التاريخ حملة في حوالي ١٢٥٠ق.م لرمسيس الثالث ضد هذه القبائل من الماشواش والتيمحون والزوتمار والتاحنون والكلاك لما حاولت غزو مصر. قُيدت بعض أحداث هذا الصراع في شكل رسوماتٍ جداريةٍ في معبد مدينة «هابو» لأسرى الشعوب الليبية تقدِّم قرابين للإله آمون، وقد ظهروا بضفائرَ طويلةٍ مائلةٍ على العنق، وحسب هيرودوتس كانت قبائل الأوزاس Auses والماكسياس Maxyes ذوو ضفائر على الجانب الأيمن من رءوسهم.[٨] ارتبطت قرطاجة بروما بمعاهدتين: الأولى في سنة ٥٠٩ق.م، والثانية سنة ٣٤٨ق.م تعطي لقرطاجة الحقَ في احتكار التجارة للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وألزمت الرومان وحلفاءهم بعدم تعاطي التجارة على شواطئها قبل أخذ إذنٍ من قرطاجة.[٩]

## (٢) ثورة النوميديين على قرطاجة

لم تستمر العلاقة الحميمة بين السكان المحليين والفينيقيين طويلًا؛ فبعدما تأسَّست قرطاجة وانفصلت عن فينيقيا وأصبحت قوة عسكرية في المنطقة ومركز إشعاع فكري وثقافي واقتصادي وسياسي، ظهرت بوادر الغلظة على السكان الأصليين وسوء معاملتهم وإثقال كاهلهم بالضرائب، فثار النوميديون على قرطاجة وقاموا بثورات أبرزها التي وقعت سنة ٣٩٦ق.م و٣٧٩ق.م تحت إمرة الإغريق تمهيدًا للحروب البونيقية الأولى (٣٦٣–٢٤١ق.م).

[٧] أحمد توفيق المدني، «قرطاجنة في أربعة عصور: من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م، ص٢٨.

[٨] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص٢٧.

[٩] عمورة عمار، «موجز في تاريخ الجزائر»، دار ريحانه للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص١٥.

خلال الحرب البونيقية الثانية ٢١٨–٢٠٢ق.م، وكردةِ فعلٍ ضد القائد القرطاجي حنبعل، عيَّنت روما القائد العسكري سكيبيون الإيميلي Scipion Emilien قنصلًا عامًّا لروما سنة ٢٠٦ق.م، وشنَّ حملة عسكرية واسعة للبحث عن حلفاء بتفويضٍ من مجلس الشيوخ الروماني ضد قرطاجة، حاول على إثرها، في بداية الأمر، كسب مودة سيفاكس Syphax ملك نوميديا الغربية سنة ٢٠٦ق.م[١٠] أو المازيسيليا: نسبة إلى قبائل المازيسيل الذين ظهروا كقوة في إفريقية منذ أواخر القرن الثالث ق.م[١١] غير أنه رفض العرض، وفضَّل التحالف مع قرطاجة بسبب العلاقة الأسرية التي تربطه بالبونيقيين، استطاعت روما مدعومة بملك نوميديا الشرقية[١٢] ماسينيسا Massinissa هزيمةَ الجيش القرطاجي بزاما، أُلقي القبض فيها على سيفاكس سنة ٢٠٣ق.م، تُوفي بعدها سيفاكس بحوالي ثلاث سنوات؛ أي سنة ٢٠٠ق.م.

وخلوا سفاكس يحكي لروما مدى الدَّهر كيف كسبنا الرهانا
وكيف غدا ظافرًا ماسينيسا بزامة لم يرضَ فيها الهوانا

### (٣) ماسينيسا الملك النوميدي (وُلد سنة ٢٣٨ق.م، وتوفي سنة ١٤٨ق.م)

كان ماسينيسا أعظم ملوك البربر شأنًا وأكبرهم سلطانًا، من العائلة الماسيلية حكمت أربعة أجيال، واشتهر بالقوة ورجاحة العقل وسداد الرأي في الحكم.

فسَّر مارسيي معنى كلمة ماسينيسا بعد تقسيمه إلى مقطعين هما «ماس» و«إناس» فقال: إنَّ معناهما باللغة البربرية: «سيد» «القوم».[١٣]

---

[١٠] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص٦٩.

[١١] محمد الهادي جارش، «التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٢م. ص٩٨.

[١٢] محمد الهادي جارش، مرجع سابق، ص١٠٠.

[١٣] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص٨١.

دعوا ماسينيسا يردِّد صدانا ذرُوه، يـخـلِّـد زكـى دمـانـا
وكـم سـاومـوه، فـثـار إبـاء وأقسـم أن لا يعـيش جبانا
وألـهمه الـحبُّ نيلَ المعالي وقد كان مثلي يهوى الحسانا

كان تحالف ماسينيسا تحالفًا استراتيجيًّا مع روما بدافع الاستقلال عن قرطاجة والحيازة الكاملة على نوميديا بما فيها الشرقية والغربية، لكن ما خبأته روما لماسينيسا من دسائس هو ما جعله زعيمًا أمازيغيًّا حرًّا. أراد ماسينيسا أن تكون استعادة سيرتا استعادةً سلميةً بعد أسرِ سيفاقس، فتأتَّى له. وقد رفض ماسينيسا أن تُؤسر زوجة سيفاكس سوفونيزيا القرطاجية من قِبَل الجيش الروماني. و«سوفونيزيا» هذه هي ابنة أزدروبعل، وقد قام أبوه جسكون بتزويجها إلى سيفاكس بدون علمه حسب رواية «ديوكاسيوس».[١٤]

ومَن صنعتْ روحه سوفونيزيا جديرٌ بأن يتحدَّى الزَّمانا
تـغـذيـه حـبًّا وفـنًّـا وعـلـمًـا وتنبيه ما قد يكون، وكانا

لكن سرعان ما قتلها بدسِّ السُّم لها تعبيرًا منه لكسب ثقة الرومان، ودليلًا لقطع كل الأوصال التي قد تحُدُّ من طموحه في استرجاع ممتلكاته،[١٥] وفي روايةٍ أخرى، أن «سوفونيزيا انتحرت بتجرُّعها السُّم، وموت الشرف خير من حياة المذلة والعار.»

استطاع ماسينيسا بعد معركة زاما أن يوحِّد نوميديا، وأصبح بموجب العهد الذي كان بينه وبين روما مَلِكًا على كامل نوميديا في سنة ١٥٢ق.م، وعُقدت على إثرها معاهدة تمَّ بموجبها التنازل عن قرطاجة لروما سنة ٢٠١ق.م. من العيوب التي تُحسب على ماسينيسا، تحالفه مع روما مقابل «إعطائه الأراضي القرطاجنية التي كانت متاخمة لدولة نوميديا».[١٦]

---

[١٤] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص٧٨.

[١٥] أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص٦١.

[١٦] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٣.

ازدهرت نوميديا الموحَّدة في عهد ماسينيسا وأصبحت أنموذجًا في الصناعة الحربية وفي التمويل الذاتي من المحاصيل الزراعية، وأضحت تصدِّر القمح والشعير وموادَّ أخرى لروما، وامتد نفوذها من طبرقة شرقًا حتى نهر ملوية غربًا. ازدهرت الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية في ظل النظام السياسي الذي رسمه ماسينيسا لنوميديا، وتعزَّز استقلالها، مما أثار هواجس ومخاوف روما، وأجبرها على التخلُّص من ماسينيسا. تُوفي ماسينيسا سنة ١٤٩ق.م بسيرتا قسنطينة.

أسفرت الحروب البونيقية الثالثة (١٤٩–١٤٦ق.م) عن سقوط قرطاجة سنة ١٤٦ق.م، واستطاعت روما بذلك احتلال إفريقية.

الفصل الثاني

# العهد الروماني

١٤٦ق.م–٤٣٠م

بعد سقوط قرطاجة حوَّلت روما كل الأراضي القرطاجية إلى مقاطعةٍ رومانية، وفصلتها عن باقي الأراضي النوميدية بالخندق الملكي Fossa regia.[١]

كانت بداية علاقة الرومان بالقطر الجزائري منذ ٢١٣ق.م، وتصرَّفوا فيه منذ ١٠٤ق.م، ووضعوا قدَمَهم بنوميديا سنة ٤٦ق.م–٤٢م،[٢] وحُوِّلت إلى مقاطعة رومانية عُرفت بإفريقية الجديدة Africa-Nova.

## (١) نوميديا تحت الاحتلال الروماني

بهذا الاحتلال الغاشم، دخل البربر في دوامة من القهر والاستعباد لازم حياتهم وممتلكاتهم وأراضيهم. كان استعمارًا مدمرًا لم يعهده البربر من قبلُ من الفينيقيين والقرطاجيين، تغيَّرت فيه حياتهم كلية، اغتُصبت منهم الأراضي الزراعية غصبًا، وفُرضت

---

[١] محمد الهادي جارش، «التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٢م، ص١٨١.

[٢] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص٨٩.

عليهم الضرائب فرضًا، وجُنِّد شباب البربر في الجيش الروماني قصرًا لخوض الحروب الجرمانية والمجرية والمصرية.[٣]

ترك ماسينيسا بعد وفاته ثلاثة أبناء: ميكبسا ميكواسن، وجولوسا، ومستنبعل. واستطاع سكيبيو أن يشجِّعهم على قبول تقاسم السلطة، كان هذا النمط الملكي الجماعي في الحكم مستمدًّا من النموذج الهللينستي.[٤] بعد وفاته امتدت يد الغدر إلى جولوسا ومستنبعل من طرف روما في محاولة لاجتثاث أي نزعة انفصالية أو ثورة يكون مآلها استقلال نوميديا عن روما. أُسند الحكم إلى ميكواسن، وأظهر موالاةً لروما في تسييره لشئون نوميديا.

## (٢) التأسيس لدولة نوميديا المستقلة

### (٢-١) يوغورطا يوحِّد نوميديا

تُوفي الملك ميكبسا ميكواسن سنة ١١٨ق.م وترك من بعده ولدين، هما: أدهر بال Adherbal، وهيمبسال Hiempsal، وقد نشأ في حجره ابن أخيه مستنبعل يوغورطا jugurtha، ويعود له فضل تربيته، فأصبح بهذه العناية وريثًا شرعيًّا مثل باقي أبنائه.[٥] بدأت معالم الشجاعة والإقدام تظهر على يوغورطا، وشجَّعه في نبوغه المحيطُ الملكيُّ الذي نشأ فيه. استطاع أن يُظهِر مهارات قتالية في قيادة الجيش خاصة في حروب نومانتيا سنة ١٣٤ق.م، وتألق اسمه بانتصاراته التي حقَّقها. كان حُلم استقلال نوميديا وتوحيدها يراود يوغورطا كثيرًا، غير أنَّ المناورات التي كانت تقوم بها روما لدفع هيمبسال وأدهربال لعزل يوغورطا من الحكم، أدخل الأسرة الملكية في دوامة من الصراعات بين يوغورطا وأبناء عمه، قُتل على إثرها هيمبسال. وما كان من روما إلا أن قامت بتدعيم حليفها أدهربال في محاولة جريئة لتثبيته على نوميديا الشرقية. اقتضت ضرورة الحرب أن يستقر حكم يوغورطا على حكم نوميديا الغربية لاستجماع قواه، وسرعان ما أعلن الحرب على أدهربال، قُتل على إثرها في سيرتا، واستردَّ يوغورطا نوميديا

[٣] عمار بوحوش، مرجع سابق، ص١٦.

[٤] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص١٤٤.

[٥] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص١٥٠.

الشرقية، ووضعها تحت سلطانه. بذلك استطاع يوغورطا توحيد نوميديا وأسَّس فيها نظامًا سياسيًّا مستقلًّا تمامًّا عن روما.

لم يكن توحيد نوميديا هدفًا في حد ذاته بقدْر ما كان وسيلة لاستعادة سيادتها وكفِّ كل محاولات التدخُّل الأجنبي، ورفع القهر والاستبداد المسلطين على النوميديين من قِبَل روما.

دخلت نوميديا في حربٍ ضد روما بدايةً من سنة ١١٠ق.م، واستطاع يوغورطا أن يُلحِق هزيمةً بالجيش الروماني الذي كان يقوده سبوريوس ألبينيوس Spurius Albinus، فما كان من روما إلا أن أوكلت قائد الجيش بستيا للتفاوض من أجلِ عقدِ صلحٍ معه مقابل ثروة تُدفع لمجلس الشيوخ، وقد قال يوغورطا حينها كلمته الشهيرة: «في روما، كل شيء يُباع.»[6] وفي تعبيرٍ ساخرٍ آخَر أورده سالوستيوس أن يوغورطا قال قبل أن يغادر ميناء روما: «يا لكِ من مدينةٍ للبيع، ستنتهي بمجرد أن تجد المشتري.»[7]

فجاء يغورطا على هديه   بحكمِ الجماهيرِ يفشي الأمانا!
وقال: «مدينة روما تُباعُ   لمن يشتريها!» فهزَّ الكيانا!
ووحَّد سيرتا بأعطاف كاف   وأولى الأمازيغ عزًّا وشأنا

«تبوَّأ يوغورطا عرش سيرتا قسنطينة سنة ١١٢ق.م، وأعلن استقلال الجزائر التام.»[8] كانت حملات الجيش الروماني، التي قادها كلٌّ من ميتللوس وماريوس من سنة ١٠٩ إلى ١٠٨ق.م، عنيفةً على الجيوش النوميدية، أجبرت يوغورطا على الاحتماء بالملك الموريطاني باخوس Bocchus بمنطقة قبائل الجدالة بالهضاب العليا. لم يكن باخوس وفيًّا ليوغورطا؛ فقد تمكَّن من إيهامه بالأمن لديه إلى أن دبَّر له مكيدةَ غدرٍ وخديعةٍ سلَّم بموجبها يوغورطا سنة ١٠٦ق.م إلى قائد الجيش الروماني ماريوس، نُقل بعدها

---

[6] عمورة عمار، «موجز في تاريخ الجزائر»، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٢٥.

[7] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص١٥٧.

[8] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص٩٢.

يوغورطا إلى روما حيث تُوفي في ظروفٍ تدعو إلى الريبة سنة ١٠٤ق.م بسجنٍ هناك. عرفت نوميديا ازدهارًا في عهد حكم يوغورطا ونموًّا اقتصاديًّا واجتماعيًّا.

وقد تمكَّن من سك نقود من فضة على وجهها صورة تمثال نصفي له وعلى وجهها الآخر صورة فيل تحته نقش بونيقي.[٩] بعد وفاة يوغورطا، تولَّى شقيقه جودا Gauda مُلَك نوميديا من بعده إلا أن المنية وافته بعد عام أو عامين من توليه الحكم. بعد وفاته وقع صراع بين هيامبسال الثاني وهيرباص Hierbas حول استخلاف جودا، فما كان من بومبي Pompée إلا أنَّ يميل إلى هيامبسال، ويساهم في توليه الحكم على نوميديا سنة ٨١ق.م.

تساءل مفدي زكريا عن تأسيس مدينة مليانة من قِبَل هذا القائد الروماني المدفون بها هو وحفيده بناءً على بعض الآثار المكتوبة المخلِّدة له بهذه المدينة.

أشادَكِ بومبي مقوقسُ روما؟ أم أن بولوغين رب الصنيعة؟
فأغرى بمليانة الطامعين وما كنتِ للطامعين وديعة

عرفت نوميديا في عهد حكم هيامبسال الثاني تطورًا منفردًا في نظام الحكم والجباية، ونموًّا في الإنتاج الزراعي والحيواني. ضُربت في عهده النقود ذهبًا وفضة ونحاسًا، ونمت التبادلات التجارية بين نوميديا وأثينا ومارسيليا وجنوب إسبانيا وروما.

## (٢-٢) يوبا الأول والحرب ضد قيصر

بعد وفاة هيامبسال الثاني تولَّى من بعده ابنه يوبا الأول منذ سنة ٥٢ق.م، وقد ثبت عنه مولاته لحزب بومبي الملكي وعداؤه لملك موريتانيا باخوس الثاني المناصر لحزب قيصر César[١٠] الجمهوري، وسرعان ما انتصر قيصر على يوبا الأول.[١١]

[٩] فتيحة فرحاتي، «نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني: الحياة السياسية والحضارية (٢١٣–٤٦ق.م)» منشورات أبيك، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص١٦٤.

[١٠] هو أغانيوس، سُمي بقيصر لأنه استخرج جنينًا من بطن أمه عند وفاتها (عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء الثاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٢٣٧).

[١١] عمورة عمار، «موجز في تاريخ الجزائر»، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٢٦.

إنَّ النزعة الاستعمارية لروما لم تهدأ بمرور الزمن، بل اتَّقدت نيرانُها ضد يوبا الذي سارع في استنفار جيوشه ضد القائد العسكري كوريو والانتصار عليه في سنة ٤٩ق.م. أعاد قيصر الكرَّة على يوبا بجيشٍ مستعملًا هذه المرة المداخلَ البحرية، إلا أنَّه رغم انهزام الجيش النوميدي، لم يتمكَّن قيصر من الظفر بيوبا حيًّا؛ فقد تُوفي يوبا انتحارًا حسب عديد الروايات، وضم قيصر المملكة النوميدية إلى روما. حوَّل قيصر جانبًا كبيرًا من نوميديا إلى ولايةٍ رومانيةٍ باسم إفريقية الجديدة Provincia Africa Nova.[١٢]

## (٢-٣) يوبا الثاني، الحاكم والعالم

بعد وفاة باخوس الثاني نصَّبت روما يوبا الثاني ملكًا على الشمال الإفريقي، وكان موسوعة في التاريخ والجغرافيا وفنون الموسيقى، وقد تزوَّج من سيليني ابنة الملكة كليوبترا ملكة مصر، تُوفيت قبل زوجها يوبا بثماني عشرة سنة، ويُقال أيضًا إنَّها دُفنت هي كذلك بهيكل يوبا المشهور شرقي مدينة شرشال والمعروف لدى الجزائريين بقبر الرومية.[١٣]

أشاد مفدي زكريا بالدور الرائد للنساء الجزائريات في الثورة، مقيمًا تناسقًا بين كليوبترا وبين النسوة مثيلات جميلة بوحيرد:

وكم ضارعت في الفدا كليوبترا جـمـيـلات ثـورتـنـا الـهـادرة

اتخذ يوبا الثاني شرشالَ عاصمةً للمملكة النوميدية، وكان له باعٌ طويلٌ في الفنون والثقافات الإغريقية، وكان عالمًا فنيًّا كبيرًا.[١٤] ازدهرت في فترة حكمه المملكةُ في شتى الميادين بفضل الأمن والاستقرار.

---

[١٢] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص١٨٣.

[١٣] انظر صورة الضريح في الملحق رقم ٢، ص١٥٠.

[١٤] أحمد توفيق المدني، «كتاب الجزائر»، المطبعة العربية، ١٩٣١م، ص١١.

أشاد مفدي زكريا بيوبا الثاني، وخصَّص المقطع الثامن والعشرين من الإلياذة كاملًا له ولأبولوس:

أشرشالُ! ... هلَّا تذكرتَ يُوبا ومَن لقَّبوا عَرشك القيصريه؟
ومَن مصَّروك فنافست رُوما؟ وشرَّفت أقطارنا المغربيه
لماذا يُلقَّب يُوبا بثان؟ أما حقَّق السبقَ في المدنيه؟
وباهى بشرشال جنَّة عدن؟ وزانَ حدائقها السُّندسيه؟
أما كان أوَّل مَن خطَّ رسمًا لوجه جزيرتنا العربيه؟
أما شاد يوبا بشرشال للعلــ ـــمِ أوَّلَ جامعةٍ أثريَّه؟

أبوليوس عالِم مؤلِّف عدةَ كتبٍ أشهرها: «الحمار الذهبي»، «المسوخ»، Les florides, L'hermagoras وL'apologie.[١٥]

وهذا أبولوس كان طبيبًا يَدِينُ له العلمُ بالعبقريه
وأبدع في قصص الحيوان فأثَّر في القصص الأمويه
وكان الأفارقُ في منتداهم بروما يخصونه بالتحيه
وكان أبولوس قاضي روما ليمناه تُرفع كلُّ قضيه

بعد وفاة يوبا الثاني سنة ٢٣م تولَّى ابنه بطليموس Ptolémée حُكمَ المملكة النوميدية. سعى أن يسيطر على القبائل الأمازيغية، فأظهر المقاومون البربر جأشًا وصمودًا بقيادة تاكفاريناس Tacfarinas المنتمي لقبيلة موسالامس Musalams،[١٦] وكان يومها عاملًا لحساب روما، اغتيل بطليموس حوالي سنة ٤٠م.

---

[١٥] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص١١٨.

[١٦] فتيحة فرحاتي، «نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني، الحياة السياسية والحضارية (٢١٣–٤٦ق.م)»، منشورات أبيك، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص١٨٣.

## (٣) الثورة الأمازيغية بقيادة تاكفاريناس وفيرموس

### (٣-١) تاكفاريناس

بعدما تفنَّن في أساليب القيادة العسكرية، وتنفيذ الخطط الحربية، فرَّ تاكفاريناس من الجيش الروماني، والتحق بالمقاومة الأمازيغية قصد صد العدوان الروماني، واسترجاع سيادة الأمازيغ على نوميديا والقضاء على سياسة التمييز العنصري التي انتهجتها روما بإبعادها الأمازيغ خارج جدار «الليمس» Limes الذي بنَته لفصل الجنوب عن الشمال الإفريقي.

| | |
|---|---|
| صمود الأمازيغ عبْر القرونِ | غزا النيِّرات، وراع النجوما |
| فكم أزعجوا نائبات الليالي! | وكم دوَّخوا المستبد الظلوما! |
| سلوا طبرية يذكر تبيريوس | تيكفرناس يوالي الهجوما |
| ثمان سنين يصارع روما | فدقَّ المسامير في نعش روما! |
| وأوحى له الأطلس الوحدوي | فوَحَّدنا فانطلقنا رجوما |

انطلقت ثورة تاكفاريناس سنة ١٧م، واستندت في عملياتها على استراتيجية المباغتة عن طريق فرقٍ منظَّمة ومدرَّبة شاركت فيها بضراوة قبائل الموسالامس والموريين والكنتانيين؛ حيث لم يسبق للجيش الروماني أن تعامل مع هذا الشكل من العمليات.

عمد تاكفاريناس على الإغارة وتخريب الممتلكات الرومانية، وشلَ توازنات الجيش الروماني بإثارة الخوف والهلع في صفوفه خلال سبع سنوات من المقاومة المتواصلة.

سقط تاكفاريناس قتيلًا بعد حصارٍ لقلعته بسور الغزلان أثناء معركةٍ قادها كورنيليوس دولا بيلا Cornelius Dolabella.

لم تكن ثورة تاكفاريناس حركةَ تمرُّد على نظامٍ روماني مستبِد أو انتفاضةً على وضعٍ اقتصاديٍّ جائر؛ بل كانت ثورةً استقلاليةً ضد استعمارٍ استنفد فيها الثوار كل وسائل المقاومة للذود عن حمى بلاد الأمازيغ، وتحرير الأوطان من ربقة الاحتلال، ولم يتمكَّن الرومان من احتلال باقي إفريقية الشمالية إلا بعد مقتل تاكفاريناس، لم تهدأ الثورة في نفوس الأمازيغ طيلة السيطرة الرومانية على أوطانهم ولم يستجيبوا لدعوى الاندماج تحت الحكم الروماني المستعمِر؛ بل استمرت ولم يلبث أن ظهر فيهم زعماء ثوريون قادوا المعارك وخاضوا الحروب ضد المحتل، ولعل أبرز مَن ظهر من بعد تاكفاريناس القائد المغوار فيرموس.

## (٣-٢) فيرموس

بعد أكثر من ثلاثة قرون من ثورة تاكفاريناس، أعدَّ فيرموس ابن الملك البربري نوبيل العُدَّةَ لخوض الحرب ضد الاستعمار الروماني بمنطقة جرجرة، فاستطاع بفضل بسالة جيشه ورباطة جأشه الانتصارَ على الجيش الروماني سنة ٣٦٩م و«فرض سيادته على سيزاري (شرشال) وإيكوسيوم (الجزائر العاصمة) وكان قوام جيشه آنذاك ٢٠ ألفًا من البربر.»[١٧]

سجل التاريخ في كثير من المواطن، إقدام روما على تفجير الثورات المناوئة لها من الداخل بواسطة شحن الفتن بين الزعماء والقادة، خاصة إذا تعلَّق الأمر بأفراد العائلة الواحدة، وهذا ما قامت به حيال حركة فيرموس ومعاونيه من الدوناتيين المنتسبين للزعيم دوناطوس Donatus الذين كان لهم الدور الأساسي في بلوغ ثورة فيرموس إلى غاية إيكوسيوم.

قال مفدي زكريا:

بولوغين إن صانها فيرموس　　وحازت أكوسيوم أقصى المرام

وقال في مقطع آخر:

بولوغين يا مَن صنعت البقا　　سنحفظ عهدك والموثقا
فيرموس أم أنت مَن شادها؟　　فحيَّرت الغرب والمشرقا

لم يفلح القسيس سان أوغستان Augustin في ردِّ النوميديين عن ديانتهم الدوناتية وفرض الديانة المسيحية عليهم.

وهب الأمازيغ من دوناطوس　　تصول وتزجي الخميس اللهام
فأبناء مازيغ قادوا الفدا　　وخاضوا المعامع يوم الصدام

يقول الأستاذ توفيق أحمد المدني: «اعتنق البربر المسيحية في بداية أمرهم، فما كادت روما تعتنق الديانة المسيحية وتجعلها دينًا رسميًّا عام ٣١٢م حتى أخذ البربر يفرون

[١٧] فتيحة فرحاتي، مرجع سابق، ص١١٥.

من ذلك الدين أفواجًا وائتمروا بأمرِ راهبٍ بربريٍّ يُدعى دونات، وألَّفوا جندًا ظاهرُه نصرةُ المذهب الدوناتي وباطنُه تحطيمُ السلطان الروماني.»[18] والانتماء إلى الدوناتية يُعتبر ردة فعل من الأمازيغ ضد الهيمنة الرومانية.

وللعلم فإنَّ القدِّيس أوغسطين سنة ٣٥٤م ببلدة «تاجيستة» بسوق هراس (الجزائر)، كان منتميًا إلى المذهب الأرثوذكسي، وعالمًا به وفيلسوفًا، دوَّن العديد من المؤلَّفات يصل عددها إلى المائتين، تم تعيينه على رأس أسقفية بونة سنة ٣٩١م.

وهذا أغوستنس بالاعترافا ... تِ حيَّر — عبْر الزمان — الفهوما
وأسقف بونة أصبح قدِّيـــ ... ـس قرطاج مذ بثَّ فيها العلوما
وكان أغستنس فخر البلاد ... وكان بها الفيلسوف العظيما

نظرًا لاستحالة القضاء على فيرموس في المعارك المباشرة، نقلت روما الحرب إلى داخل الصف الأمازيغي، وحاكت له مكيدة للإطاحة به عن طريق تواطؤ أخيه القائد جيلدون Gildon، مقابل امتيازات مادية وعينية، ولما حُوصر فيرموس من كل ناحية، انتحر شنقًا سنة ٣٧٥م، حسب بعض الروايات، وكان نفس مصير أخيه جيلدون الذي انتحر ندمًا سنة ٣٩٨م.

من ناحية الإنجازات الرومانية، شهدت الحضارة الرومانية في الجزائر تطورًا في مجال الطرق والجسور والمسارح والملاعب والحمامات مثل المتواجدة بـ «لمبيز» و«تيمقاد»[19] و«جميلة». أما من الناحية السياسية والعسكرية، فدبَّت في أواخر عهدها بالجزائر الفوضى عارمة، ووهن فيه سلطانها، وضعف جيشها الذي حاولت به إذلال الأمازيغ في بلادهم. تمرَّد القائد المنشق بونيفاس Boniface على حكمِ روما، ودعم قائد الوندال «جنسريق» في عهد الإمبراطور فلانسينيان Valencinien عند غزوه لشمال إفريقية، وبذلك انقضى حكم الرومان بالجزائر، وخلف من بعدهم الوندال سنة ٤٢٩م.[20]

---

[18] أحمد توفيق المدني، «كتاب الجزائر»، المطبعة العربية، ١٩٣١م، ص١٣.

[19] الملحق رقم ٢، ص١٥٠.

[20] عمورة عمار، «موجز في تاريخ الجزائر»، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٢٨.

الفصل الثالث

# العهد الوندالي

٤٣٠–٥٣٤م

## (١) الاستعمار الوندالي للجزائر

أصل الوندال جرماني، توطنوا في سواحل البلطيق حوالي القرن الأول الميلادي، ثم استقروا بشبه الجزيرة الإيبيرية. «يكاد يُجمِع المؤرخون على إقامة الوندال في منطقتي أودر وفيستول.»[١] كان الرومان يصفونهم: بالوحشيين Barbares. كان أول عهدهم بشمال إفريقية سنة ٤٢٨م عندما دخلوا عبْر مضيق جبل طارق، وكان تعدادهم يومها ٨٠ ألفًا وجيشًا يضم حوالي ٥٠ ألف مقاتل بقيادة الملك جنسريق Geiséric.[٢]

خرَّب الوندال كل ما وجدوه قائمًا في زحفهم، ولما طلب بونيفاس من الوندال الرحيل لما لمسه منهم من عنف وغلظة ضد السكان المحليين، رفضوا فأعلن الحرب عليهم، وقد اتَّخذ من عنابة Hippone مقرًّا لقيادته.

---

[١] محمد الهادي جارش، «التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٢م، ص٢٣٤.

[٢] محمد الهادي جارش، مرجع سابق، ص٢٣٩.

### (٢) أغستنس: الاستماتة في قتال الوندال

شنَّ الوندال الحرب على بونيفاس وأتباعه وحُوصر حصارًا شديدًا لمدة خمس سنوات، ثم احتلوا عنابة سنة ٤٣١م، واتخذوها عاصمة لملكتهم. تمكَّن بونيفاس من الفرار إلى إيطاليا وقُتل القسيس أغستنس Augustin في معركة فك الحصار وهو يدافع عن الجزائر.[٣]

بعد سقوط عنابة، احتلَّ الوندال قرطاجة سنة ٤٣٩م. أحكم المحتلون قبضتهم على شمال إفريقية، فأجهزوا على الأمازيغ وصادروا أراضيهم وممتلكاتهم، واضطهدوا رجال الكنيسة وبالخصوص الدوناتيون. انكمشت الحياة الاقتصادية في نوميديا بسبب الوضع الأمني الذي فرضه الوندال على رقاب الأمازيغ.

### (٣) الظلم الوندالي يحرِّك الثورة الأمازيغية

بدأت بوادر الوهن تظهر على الوندال بعد وفاة جنسريق سنة ٤٧٧م، فساءت أحوال السكان جرَّاء الجور والظلم الوندالي، فكان هذا الضعف عاملَ قوةٍ ساعد الأمازيغ على الثورة سنة ٤٨٠م من جبال الأوراس وجبل راشد، فكان النصر حليف أصحاب الحق من الأمازيغ سنة ٤٨٣م.

[٣] محمد الهادي جارش، مرجع سابق، ص٢٤٠.

الفصل الرابع

# العهد البيزنطي

٥٣٤–٦٤٧م

ما حقيقية الدولة البيزنطية؟ «الدولة البيزنطية هي في الحقيقة دولة الروم الأرثوذكس التي أسَّسها الإمبراطور الروماني «قسطنطين» سنه ٣٣٠م في مدينة القسطنطينية.»[١]

## (١) الجزائر تحت النير البيزنطي

بانتصار الثورات الأمازيغية على جيوش الوندال، أُطيح ب «هيلديريك» Héldéric، وعُين مكانه جيليلمير Gélimer، إلا أنَّ هيلديريك ساءه ما وصل إليه الحال فاستنجد بالإمبراطور البيزنطي جوستينيان Justinien. أُعلنت الحرب على الوندال وجهَّز بيليسير Bélisaire أسطولًا بحريًّا مكَّنه من احتلال قرطاجة سنة ٥٣٤م، ثم الاستيلاء على باقي نوميديا وسردينيا وجزر البليار.

طُبقت على الأمازيغ نفس سياسات القهر والجور التي سنَّها الرومان والوندال فاستجمع الأمازيغ قواهم وأعلنوا الحرب مجددًا على المستعمِر البيزنطي قُتل على إثرها

[١] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٢.

القائد البيزنطي سليمان الخصي Solomon في ضواحي تبسة سنة ٥٤٤م خلال معركة كيليوم Cillium.[٢]

عرفت الجزائر قيام إمارات أمازيغية مستقلَّة عن الحكم البيزنطي، كما ظهرت مقاومات بجبال الأوراس قادها ضد البيزنطيين «يابداس» منعت البيزنطيين من الاستيلاء على سيرتا وتيمقاد[٣] وثورات أخرى بالحضنة والزيبان.

## (٢) آثار الثورات الأمازيغية على البيزنطيين

بعد مرور ١١٣ سنة من الاحتلال، بات وشيكًا سقوط الإمبراطورية البيزنطية تحت وطأة الثورات الأمازيغية، وإفلاس الخزينة وتوسُّع رقعة الفساد والفوضى، ولم يَعُد سلطانٌ يحكم توازنات الجيش البيزنطي بسبب القصور عن دفع المرتبات الجند، ولعل السبب الرئيسي في السقوط هو ثورات الأهالي التي باتت تهدِّد السلطة البيزنطية.

## (٣) سقوط الحكم البيزنطي

وانتهى الحكم البيزنطي من شمال إفريقية بقتل جرجير، وانتهت بذلك غطرسة الإمبراطوريات جميعها، وأصبح الناس في شغف يترقَّبون شريعةً توحِّد الصفوف، وتزرع في النفوس الطمأنينة والأمن والخلاص.

ولم يَفُت مفدي زكريا أن ينوِّه بفضل الأمازيغ في رد كل أشكال الاستعمار، ويعتز بالانتساب لهم مهما كانت دياناتهم في العصور القديمة:

| | |
|---|---|
| أولئك آباؤنا منذ عيسى | وكان محمد صهرًا لعيسى |
| ولم نكُ نُنكِر آباءنا | أكانوا نصارى! أكانوا مجوسا! |
| وهل كان بربر إلا شقيقًا | لجرهم؟ هلا نسينا الدروسا؟ |
| إذا عرَّب الدين أصلابنا | فما زال أحمد صهرًا لعيسى! |

---

[٢] محمد الهادي جارش، «التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٢م. ص٢٧٤.

[٣] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٣.

المبحث الثاني

# العصر الوسيط

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والْفَتْحُ * ورَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سورة النصر).

وتبزغ شمس الهداية على العالمين، مبشِّرةً بعهدٍ جديد، يُقَرُّ فيه التوحيد ويُؤسس لنظام العدل والإحسان، وينشر الفضيلة وينبذ الرذيلة، إنَّه دين الإسلام الذي جاء به رسولنا محمد ﷺ من ربه عز وجل هاديًا وبشيرًا ونذيرًا.

الفصل الأول

# الفتح العربي الإسلامي

٢٢هـ/٦٤٣م

قام العرب بالفتح الإسلامي في شمال إفريقية سنة ٢٢ للهجرة، فوجدوا الأمازيغ مقيمين لنظام اجتماعي وأمني مبني على التأهُّب للتصدي لكل ما هو غزو خارجي، كيف لا وقد عانى السكان المحليون من ويلات الاحتلال طيلة العصور القديمة، وتربَّت في مُخيَّلتهم الجماعية أنَّ أي دخيل أجنبي إلا وله مقاصد استعمار واستدمار، لكن لم يلبث الأمازيغ أن دخلوا في دين الله أفواجًا وتمسَّكوا بالعروبة إلى جانب الأمازيغية، وجُنِّد العديد منهم في جيوش الفاتحين في بلاد المغرب.

| | |
|---|---|
| وُهِبنا العروبة جنسًا ودينا | وإنا بما قد وُهبنا رضينا |
| إذا كان هذا يوحِّد صفًّا | ويجمع شملًا رفعنا الجبينا |
| وإن كان يَعرُب يرضى الهوان | ويلْبس عارًا أسأنا الظنونا |

## (١) بداية الفتح الإسلامي

الموطن الأصلي للعرب هو الجزيرة العربية، وينقسمون إلى عرب بائدة وقد اندثرت، تشتمل على قوم عاد وثمود والعمالقة والأحقاف؛ وعرب عاربة من بني قحطان من سبأ وحِمْيَر؛ وعرب مستعربة، وهم: العدنانيون من بني إسماعيل.

استقر العرب في بلاد شمال إفريقية بأعداد كبيرة بعد الفتح الإسلامي، خاصة في عهد عثمان بن عفان — رضي الله عنه. في سنة ٢٧هـ/٦٤٧م أمر الخليفة والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري بفتح إفريقية، وكان في جيشه من الصحابة — رضوان الله عليهم — من أهل الشجاعة والدهاء، مثل: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس، وعقبة بن نافع.[١]

بدأت معالم الشقاق بين المسلمين تظهر بعد مقتل عثمان — رضي الله عنه — وولاية علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — للخلافة كان لها الأثر البالغ في وحدة الصف الإسلامي. استعمل الخليفة معاوية بن أبي سفيان عقبةَ بن نافع الفهري — رضي الله عنهما — على إفريقية سنة ٤٦هـ/٦٦٨م، وعزله وولَّى مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري — رضي الله عنه. وفي سنة ٥٥هـ/٦٧٦م عَهِد مسلمة بن مخلد الإمارةَ على إفريقية إلى أبي المهاجر دينار. استطاع الانتصار على عمالة قسنطينة سنة ٥٩هـ، وجعل مركز قيادته مدينة ميلة فابتنى فيها دار الإمارة، ومكث فيها سنتين، وقد تقدَّم أبو مهاجر في الجزائر حتى تلمسان.[٢] في خلافة يزيد بن معاوية، ردَّ الاعتبار لعقبة ونصَّبه واليًا على إفريقية بداية من سنة ٦٢هـ/٦٨٢م، وبعد إعادة تأهيله للقيروان، بدأ حملته الشهيرة فاتحًا وغازيًا للأمازيغ والروم بعدما تيسَّر له أسر أبي مهاجر وكسيلة بن لزم القائد الأمازيغي الذي اعتبر العرب غزاةً في بداية فتحهم، وكان ذا وجاهة في قومه.

وقلنا: كسيلة كان مصيبا ... وكاهنة الحي أعلم منَّا!
فأهلًا وسهلًا بأبناء عم ... نزلتم جزائرنا فاتحينا
ومرحى لعقبة في أرضنا ... ينير الحجى ويشيع اليقينا
ويُعلي الصوامع في القيروان ... ويرفعها للدفاع حصونا
يبثُّ المراحل في كل فج ... فراعت أساليبه العالمينا

[١] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٢٢.

[٢] عبد الحليم عويس، «دولة بني حماد: صفحة رائعة من التاريخ الجزائري»، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م، ص٣٣.

على هامش المقطع الخامس والعشرين من الإلياذة، تطرَّق الأستاذ مولود قاسم — رحمه الله — إلى استراتيجية عقبة الحربية في مسيره من مصر إلى المغرب، وكيفية الحفاظ على جيشه من خلال إنشاء المخيمات على طول المسار، ومدى اقتباس الألمان من خطة عقبة العسكرية، كما أشار إلى التبادل التجاري للسلع الذي تم بمقايضة ملح فزان بفضة إفريقية السوداء من أجل تجهيز الجيش.

وبادله السمر تبرًا بملح وما كان عنه فزان ضنينا

## (٢) المواجهة الأمازيغية للفتح الإسلامي

عند عودة عقبة من المغرب، توجَّه تلقاء تهودة، فسرَّب كسيلة المأسور إرسالًا يطلب فيه النجدة، ويعطي فيه تفاصيل جيش المسلمين. انقض البربر على الجيش فألحقوا به خسارة شنيعة، وقُتل عقبة وأبو مهاجر ومعظم جند المسلمين في تلك المعركة في أواخر ٦٣هـ/٦٨٢م، وقد سجَّل التاريخ موقفًا جليلًا لكلٍّ من عقبة وأبي مهاجر، قال عقبة لمهاجر: «الحق بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة.» فأجاب مهاجر: «وأنا أيضًا أغتنم الشهادة.»[٣]

بعد انتصاره في معركة تهودة، استطاع كسيلة أن يجلي جُلَّ العرب الوافدين على إفريقية وتوطَّن بالقيروان، وأقام مملكة لمدة ثلاث سنوات بداية من سنة ٦٨–٧١هـ/٦٨٧–٦٩٠م.

وما إن عين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٩هـ/٦٨٨م زهيرَ بن قيس البلوي واليًا على إفريقية وأمدَّه بجيش قوامه ٤٠٠٠ مقاتل حتى سار في طلب كسيلة وجنوده، ووقعت معارك بين جنود المسلمين والبربر قُتل على إثرها كسيلة في موقعة «ممش»، وفرَّ بقية جيشه.[٤] استُشهد زهير سنة ٧١هـ/٦٩٥م في معركة ضد الروم.

---

[٣] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص١٧٣.

[٤] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٨.

أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتشكيل جيش تعداده ٤٠ ألفًا، وعيَّن قائدًا له حسان بن النعمان الغساني.[٥]

لم تستسِغ دهيا بنت تابت بن تيفان الشهيرة باسم الكاهنة أمرَ انتصارات المسلمين، فأعلنت الحرب على حسان، واستطاعت الانتصار عليه في معارك عدة، كان أهمها معركة وادي «نيني» بالأوراس سنة ٧٦هـ، لكنها لم تصمد كثيرًا؛ فقد تمكَّن من إحكام السيطرة على معاقلها مستغلًّا ما كان يرد إليه من خالد بن يزيد الأسير لدى الكاهنة الذي صوَّر له وضعية جيش البربر المنقسم على نفسه. تُوفِّيت الكاهنة، وقيل قُتلت ببئر العاتر سنة ٨٢هـ/٧٠١م. لقد دلَّت بعض الروايات التاريخية أنَّ الكاهنة لما أدركت حقيقة الإسلام وهدف الفتوحات أوصت أبناءها وقبيلتها الأمازيغية بالدخول فيه واعتناقه.

تفطَّن حسان لخلفيات التعامل مع مقتضيات الانتماء العربي والأمازيغي، فقام بتعريب الدواوين، وطوَّر أساليب التعليم ونظم الخراج والأسواق.

كسب حسان بن النعمان مودةَ الأمازيغ ففتح لهم التجنيد الطوعي في الجيش وأصبحوا قادة فيه. توسَّعت رقعة الإسلام في بلاد البربر وحملوا رايته في إكمال الفتح تحت إمرة موسى بن نصير وطارق بن زياد، ووصلت رسالة الإسلام إلى كامل الشمال الإفريقي وبضعٍ من إفريقيا والأندلس. أصبح الأمازيغ دعاةً لهذا الدين، حاملين تعاليمه وجاهدين من أجل نشر هديه الرباني. «لما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إسماعيلَ بن عبيد الله واليًا على المغرب أرسل معه عشرة من التابعين يعلِّمون البربر الدين ولغته، فعم الإسلام البربر ولم يقف دون قلوبهم.»[٦]

في سنة ٨٥هـ/٧٠٤م، أقال الوالي عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان وعيَّن موسى بن نصير واليًا على شمال إفريقية، «ثم تُوفي حسان — رحمه الله — أواخر ٨٥هـ

[٥] هو حسان بن النعمان بن عدي بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن الأزد (صالح بن قربة، وسامية بوعمران، وخالف محمد نجيب: «تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر»، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٢٣).

[٦] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٣٨.

أو أوائل ٨٦هـ؛ لأنَّ ولاية موسى بن نصير على المغرب بدأت أواخر حكم عبد الملك بن مروان سنة ٨٥هـ.»[٧]

في استعداداته لخوض غمار الفتوحات الإسلامية في الأندلس، قام موسى بن نصير سنة ٨٩هـ/٧١٠م بتجهيز جيش من البربر يبلغ تعداده ٧٠٠٠ مقاتل تحت قيادة طارق بن زياد.[٨]

## (٣) التوافق العربي الأمازيغي

والملاحظ تاريخيًّا أنَّ توافقًا كبيرًا بين العرب والبربر بدأ يتأسَّس منذ إمارة حسان بن النعمان. يورد مبارك الميلي قولًا عن البيروني يبرِّر فيه سرعة انسجام العرب مع البربر، فقال: «احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم، ويوجِّه ذلك بعضهم بأن العرب والفينيقيين متقاربون في اللغة، ومتحدون في الأصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع.»[٩] غير أنَّ هذا الانسجام، رغم أصوله التاريخية، إلا أنه لا يرقى إلى درجة الجزم؛ بل يرجع إلى التعاليم الإسلامية الناصَّة على الإخاء والمحبة بين المسلمين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...﴾[١٠]

بدأت الانشقاقات والانقلابات تنخر السكينة في بلاد المغرب بين العرب والبربر في زمنٍ عصيبٍ مرَّت به الأمة، كانت دوافع الشقاق داخلية لكن الجانب الخارجي وما يحمل من دسائس ومكر بالمسلمين كان حاضرًا.

تصدَّع الصرح واستقرت في نفوس المسلمين الشكوك والظنون فيما بينهم. قال الحاكم العسكري لبجاية إدوارد لبان Edouard Lapène في بداية الاستعمار الفرنسي

---

[٧] صالح بن قربة، وسامية بوعمران، وخالف محمد نجيب، «تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر»، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٦٥.

[٨] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٠.

[٩] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٤٢.

[١٠] سورة الفتح (الآية: ٢٩).

في كاتبه «ستة وعشرون شهرًا في بجاية»، إنَّ عقبة بن نافع قتل سكان مدينة صالداي (بجاية فيما بعد) سنة ٦٦٦م، بالرغم من أنَّ عقبة لم يمر في حملته إلى تلك المناطق. واعتبر غوتييه كسيلة والكاهنة كرمز لبطولة البربر في سبيل استقلالهم زمن «الغزوة» العربية.[١١]

## (٤) النزعة الانفصالية عن الإمارة الإسلامية

وتعود ثورات البربر لتطفو على سطح بلاد المغرب، وتتأثَّر بها الجزائر في نظام حكمها ومذهب سكانها، لم تكن الحرب هذه المرة حربًا ضد الإسلام والفاتحين؛ بل حرصٌ، في اعتقادهم، على الحفاظ عليه من نظام التوريث الذي اعتمده الحكم العربي في تسييره للشأن العام، وظهرت بوادر بؤر الفتن تنخر جسد هذه الأمة بالركون إلى مبدأ الخروج عن الحاكم الذي أقرَّه وأسَّسه «الخوارج».[١٢] اتخذت العصبية للقبيلة وللمذهب منحنًى خطيرًا، وتناسى المؤجِّجون لنار الفتنة من العرب والبربر تعاليمَ السَّماحة التي جاء بها الدين الحنيف، وثارت في نفوسهم دواعي النقمة. وفي بادرة لثورة البربر على الإمارة الإسلامية، تمذهب الناس بداية من ١٢٢هـ/٧٤٠م على الصفرية، وانتقل الصراع في الجزائر، أو بالأحرى في المغرب، من سجالٍ مذهبيٍّ إلى حروبٍ طاحنةٍ بين المسلمين.

---

[١١] علاوة عمارة، «دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص٤٨–٥٠.

[١٢] الخوارج في التاريخ اسمٌ لطائفة أو طوائف كانت بايعت علي بن أبي طالب بالخلافة ثم خرجت عنه ونقضت بيعتها في قضية التحكيم المشهورة (عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص٢٠١).

الفصل الثاني

# الدويلات المستقلة في الجزائر

ظهرت دويلات مستقلة، وانقسمت الجزائر بين ثلاث دول؛ الدولة الرستمية: وضمت منطقة الزاب وقسنطينة وتلمسان. الدولة الإدريسية: وهران، وشلف ومعسكر. والدولة الأغلبية: سكيكدة، وسطيف وميلة.

## (١) الدولة الرستمية: ١٦٠–٢٩٦هـ/٧٧٦–٩٠٩م

بتحالفٍ مع الإباضية، انتُخب عبد الرحمن بن رستم إمامًا حاكمًا، وأسَّس الدولة الرستمية بتيهرت.[١]

فرَّ بن رستم من العباسيين كما فرَّ إدريس بن عبد الله وفرَّ عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس (صقر قريش كما ورد عن أبي جعفر المنصور) «هكذا تأسست دولة الرستميين: إسلامية في قضاها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها، وفارسية في إدارتها.»[٢] وإباضية في مذهبها. أنشأ البربر الدولة الرستمية وكوَّنوا جبهة صمود ورقعة انفصال عن إدارة الحكم بالقيروان، وتعتبر أول دولة إسلامية بقيادة بربرية نشأت في الجزائر، كان أوَّل مَن أسَّسها ورسم سياستها ومنهج حكمها عبد الرحمن بن رستم، وانتهت بمقتل اليقظان بن أبي اليقظان (٢٩٤هـ/٩٠٧م). دائمًا في خضم الحراك المذهبي

[١] أصل هذا الإمام فارسي، ويُنسب إلى الأسرة الملكية الكسروية. وهو من موالي عثمان بن عفان، بُويع بالإمامة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م بتاهرت ... كانت وفاته سنة ١٧١هـ/٧٨٦م (عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص٢٢٢).

[٢] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٦٥.

والمتحول إلى اقتتال طائفي، أقدم أبو عبد الله الشيعي على اغتيال أبي اليقظان سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م في إطار مخطط شامل يقضي باسترجاع «الخلافة المغتصبة»، بزعمهم، أَسَّس له وضبط قواعده ومناهج تنفيذه القائد الشيعي جعفر الصادق.

تولَّى عبد الرحمن بن رستم حكم الجزائر فاستقلَّ بحكمها، واتخذ من مقومات البربر وموروثهم التاريخي والثقافي ركنًا منيعًا في نمط حكمها. أسَّس بالعاصمة تيهرت نظامًا شاملًا للحكم الأمازيغي:

هال ابن رستم ألا نسود ونبني كيانًا لنا مستقلا
فقام بتيهرت يُعلي اللواء ويُرْسي نظامًا وينشر فضلا

وضبطه بتنظيم أمني تولَّى القيام به الشارة. تعود تسمية الشارة، كما ذكر، الأستاذ مولود قاسم — رحمه الله — في حاشية الإلياذة، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴾[٣] وهي تنظيم شبه عسكري يقوم بمهام الشرطة:

يوجِّه حكم البلاد الشراة بوحي الشريعة حقًّا وعدلًا

استند حكم عبد الرحمن بن رستم على نظام الشورى في تسيير الشأن العام وفي انتخاب رئيس الدولة، معتمدًا في ذلك على استقلالية الدولة في منهجها وقراراتها السيادية، دون خلفيات العصبية وما تولده من تصدُّعات وشقاقات داخل الدولة الواحدة.

ويجعل أمرَ الجماعة شورى وحقَّ انتخابِ الإمامةِ فصلا
فلم يكُ للتبعيات ذليلا ولم يكُ بالعصبيات يبلى

شهدت الجزائر في عهده ازدهارًا أدبيًّا وحضاريًّا، وكانت تيهرت يومها تضاهي قرطبة وبغداد ودمشق في نموها وجمالها، عُرفت بتطور الحِرَف والصناعات والأسواق والحمامات، ولقد كانت من المدن الحضرية التي زارها عبد الرحمن الداخل.

[٣] سورة التوبة (الآية: ١١١).

في مجال العلوم نبغ بها عالم اللغات والنحو يهوذا ابن قريش التاهرتي.

فـدوَّخ بـغـدادَ فـي أوجـهـا    فكانت لتيهرت بغداد ظلا
وفاض بها العلمُ يجلو العقول    ويـغـمـر أرضَ الـجـزائـر نـبـلا

دبَّ الوهن في صفوف الدولة، واعتراها الضعف بفعل النزاعات الداخلية، وتعاظُم شأن الخلافات المذهبية، وتربُّص زعماء الشيعة بها إلى أن سيطر عليها عبيد الله المهدي.

## (٢) الدولة الأغلبية: ١٨٤–٢٩٧هـ/ ٨٠٠–٩٠٩م

استمرت مقاومة الأمازيغ لخلافة العرب، فاضطُر الأغالبة إلى استعمال القوة لإخماد حركة العصيان التي قام بها سكان الزاب والحضنة في الجزائر، وبحكم تحالفهم مع أنصار المذهب الشيعي، أعانت قبيلة كتامة البربرية أبا عبد الله الشيعي بالجند والعدة والعتاد في حربه ضد الدولة الأغلبية.

تأسَّست الدولة الفاطمية بزعامة عبيد الله المهدي و«دانت بعض المناطق الشرقية للجزائر لحكم الدولة الأغلبية: منطقة الزاب ومجانة وبادس والغدير وسطيف.»[٤]

إن تسألوا عن بني الأغلب    سلوا الزَّابَ عن جاره الأقرب

عُرفت منطقة الزاب بكثرة شعرائها وأدبائها، ذكر منهم مفدي زكريا: أبا مضر محمد بن الحسين بن محمد بن أسد بن محمد بن إبراهيم بن زياد بن كعب بن مالك التميمي الحماني من بني سعد بن منة بن تميم الطبني،[٥] سكن قرطبة، وكان من

---

[٤] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص١٢٦.

[٥] محمد بن لخضر فورار، مجلة المخبر، «أبحاث في اللغة والأدب الجزائري»، جامعة محمد خيضر ببسكرة، العدد الثامن، ٢٠١٢م، ص٢٥٦. ذكر مولده سنة ٣٠٠هـ.

أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار، والشاعر نسبة إلى طبنة «بريكة» عاصمة الزاب الجزائري، وُلد بها سنة ٣٠٣هـ.[٦]

وطبنة هل تذكرين ابن الحسين التميمي وتاريخه القرطبي

قال ابن حزم: «كنت أنا وهو (أي ابن الطبني) متقاربين في الأسنان، وكنا أليفين لا نفترق، وخِدْنَين لا يجري الماء بيننا إلا صفاء، إلى أن ألقت الفتنة جرانها وأرخت عَزاليها، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها.»[٧]

وورد كذلك اسم أبي القاسم محمد بن هانئ بن سعدون الأزدي الأندلسي، وهو أشعر شعراء المغرب العربي، وُلد في إشبيلية في بلاد الأندلس، وترعرع فيها وتعلَّم الشعر والأدب. ارتحل إلى الزاب وبقي بها إلى أن استقر المعز لدين الله الفاطمي بمصر، فقصده ابن هانئ وأقام عنده.

يرى الفاطميون شعر ابن هاني كما يُخلق اللحن للمطرب
وأبدع حتى تنبَّأ مثلي ولم يتقوَّل ولم أكذب
علام يُلقَّب أندلسيًّا فتًى مغربي، أصيل الأب؟

بالغ ابن هانئ في مدح المعز وأقاربه، وعُرف بتعصُّبه للمذهب الشيعي استعطافًا للفاطميين. ومن شعره، قوله:

لي صارم وهو شيعي لحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلَّطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل

[٦] وصفه ابن بشكوال بسعة العلم والبحر في الأدب، وقال: «إنَّه لم يصل إلى الأندلس أشعر منه، تُوفي سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م، وشهد جنازته المظفر عبد الملك بن أبي عامر» (عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص٢٧٩).

[٧] أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، «طوق الحمامة في الألفة والألاف»، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٣١م، ص١١٧.

قال عنه ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء: «أبو القاسم الأزدي الأندلسي أديب شاعر مفْلِق، أشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل الشرق ... وبرز في الشعر فلم يبارِه في حَلْبَته مبارٍ ... ثم رحل إلى الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسية وأخيه يحيى، فانتجع بابهما ولزم رحابهما ...»

وقال ابن خلكان عند ذكره ديوانه: «وليس في المغاربة مَن هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم؛ بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة.»

## (٣) الدولة العبيدية: ٢٩٦–٣٦١هـ/٩٠٩–٩٧٢م

تأسَّست الدولة العبيدية على يد عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م، واتخذت من المهدية عاصمةً لها. انتقلت الريادة من المهدية إلى مصر، وعُرفت هناك بالدولة الفاطمية.

كان تأسيسها على قواعد مذهبية، وفي مراميها، الهيمنة على حكم الأقطار الإسلامية باسم التشيع الذي أضحى تيارًا سياسيًّا يحاول الغور في أعماق كل دواوين الإمارة، تارةً بإيعازٍ من الزيدية، وتارةً أخرى من الإمامية، وأخرى من الإسماعيلية. من الأمازيغ، حمل هذا التيار خاصة قبيلة كتامة بمنطقة الزاب الأغلبي التي ناصرتها ودافعت عنها، وبخضوعها، انزوت الجزائر تحت حكم الدولة الفاطمية.

وفي قدس جناتنا الناضره     وجوهٌ إلى ربها ناظره
تمدُّ المعزَّ لدينِ الإله     فيصنع جوهر والقاهره!

يشير مفدي زكريا إلى جوهر الصقلي، أبي الحسن جوهر بن عبد الله، (وُلد بصقلية سنة ٩٢٨م، وتُوفي بالقاهرة سنة ٩٩٢م)، يُعتبر من أشهر القادة العسكريين في العهد الفاطمي، أسَّس القاهرة وشيد الجامع الأزهر، وتُنسب له فتوحات في المشرق والمغرب، وقد سبق لشاعرنا أن أشار إلى اقتباس جوهر الصقلي من الخطة العسكرية التي قام بها عقبة بن نافع الفهري في فتحه لبلاد المغرب.

وما كان جوهر إلا مدينا     لعقبة ... يوم استقل السفينا

جهَّز المعز قائده جوهرًا الصقلي لإخضاع المغرب مصطحبًا معه «جعفر صاحب المسيلة، وزيري بن مناد الصنهاجي صاحب أشير، ومحمد بن خزر، ودارت حرب بين الأمويين والعبيديين على مقربة من تيهرت.»[٨]

## (٤) الدولة الزيرية ٣٦١–٤٠٥هـ/٩٧٢–١٠١٤م

لم ينسَ المعز لدين الله الفاطمي فضلَ الأمازيغ في نصره للدولة العبيدية، فقام بتعيين أبو الفتوح سيف الدولة بلكين أو بولوغين بن زيري الصنهاجي أميرًا على المغرب سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م.

أوصاه وصيةً شهيرةً عندما نزل بمصر قائلًا له وهو يعظه: «ألا ترفع السيف عن البربر، وألا ترفع الجباية عن أهل البادية، وألا تولِّي أحدًا من قرابتك؛ لئلا يطمعوا في أمرك، وأن تحسن إلى الحاضرة.»[٩] أراد المعز لدين الله أن يوصل رسالة إلى بلكين مفادها إكرام الطائفة الإسماعيلية التي كانت تسكن المدن، والتشديد على البربر الذين توطنوا في البادية، ومراقبتهم مخافة تمردهم ضد الحكم الفاطمي.

أسَّس بلكين أشير[١٠] وضرب بها السكَّة ثم أسَّس مدينة الجزائر على أسسِ مدينة إيكوسيوم سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م أيام إمارة والده زيري على صنهاجة، وسُمِّيت آنذاك بـ «جزائر بني مزغنة». تُوفي سنة ٣٧٣هـ/٩٨٤م، وعُهد بالحكم من بعده لابنه المنصور، ثم صارت إلى ابنه باديس. يقول مفدي في المقطع العشرين من الإلياذة:

وقفنا نحيي بها ألف عام    ونقري زيري العظيم السلام

---

[٨] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص١٤٤.

[٩] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص١٣٩.

[١٠] تقع في طرف إفريقية الغربي مقابل بجاية، والمدينة في سفح جبل تيطري وشمال قصر البخاري وجنوب شرق مليانة والخميس وغربي جبل شعبة. لا تزال أطلال أشير باقيةً إلى اليوم عند «كاف الأخضر» وتُسمَّى اليوم «بنية» أو «منزه بن السلطان» (عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م، ص٨٧).

فقام بولوغين في عيدنا يهزُّ الدُّنا ويروع الأنام
وسيبوس فاض فتاه دلالا يعانق زيري المليك الهمام

ويضيف عن بولوغين بيتًا آخر في المقطع التاسع والعشرين:

بولوغين يا مَن صنعت البقا سنحفظ عهدك والموثقا
فيريموس أم أنت مَن شادها؟ فحيَّرت الغرب والمشرقا
بنيت الجزائر فوق السِّماك فكانت لمعراجنا المرتقى

كان أوَّل ما عرف سكان المغرب العربي من المذاهب الفقهية، مذهب أبي حنيفة النعمان — رضي الله عنه — ثم انتشر وعمَّ مذهب الإمام مالك — رضي الله عنه — في القيروان والأندلس، واعتمد في الجزائر بناء على جهود وحرص المعز بن باديس، «وكان الناس يقرءون بقراءة حمزة، لا يعرف قراءة نافع إلا الخواص، إلى أن جاءهم برواية ورش عن نافع محمد بن محمد بن خيرون الأندلسي نزيل القيروان المتوفَّى سنة ٣٥٦هـ.»[١١]

استمرت حملة إخضاع الأمازيغ، غير أنَّ طبيعة الأمازيغ كانت تنجذب دومًا إلى تغيير الولاء كلما لمست جورًا أو ظلمًا، ذلك ما دفع قبيلتي مغراوة وزناتة لإعلان ولائهما إلى بني أمية بالأندلس. كان لقبيلة زناتة المعادية دور هام في التصدُّع الذي أصاب باديس، فما كان له من ملجأ إلا استنجاد باديس بعمِّه حماد بن بلكين في القضاء على المعادين. سعى لذلك وأعدَّ العُدة فتأسَّست الدولة الحمادية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م معلنة ولاءها للعباسيين في بغداد.

## (٥) الدولة الحمادية: ٤٠٥–٥٤٧هـ/١٠١٤–١١٥٣م

يعود فضل تأسيس الدولة الحمادية إلى قبيلة صنهاجة «التي قُدِّر لها أن تحكم المغرب العربي بعد نزوح الفاطميين إلى القاهرة.»[١٢]

---

[١١] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص١٦٨.

[١٢] عبد الحليم عويس، «دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري»، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢١.

وتاه الرَّبيعُ بجناتها يُهادي تلمسانَ ورْدًا وفُلَّا
فكان ابنُ حمَّاد من وحيها كأوصافها عبقريًّا وفحلا
وأفلح خلد أمجادها فأفلح أفلح قولًا وفعلا

بعد سقوط الدولة الزيرية، أسَّس حماد بن بلكين الدولة الحمادية وابتنى القلعة[١٣] سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م كأساس لحكمه، ودعم لاستقلال دولته بعدما أعلن الولاء لبني العباس. وبعد وفاته قام خَلَفُه بتأسيس بجاية سنة ٤٦٠هـ. يرى بعضُ الدارسين أنَّ قلعةَ بني حماد أُسِّست على أنقاض قلعة رومانية في القرن الرابع الهجري — أي قبل بناء القلعة الحمادية بنصف قرن — اتخذ أبو يزيد الشهير بصاحب الحمار من هذا المكان حصنًا يحتمي به في صد القوات الفاطمية.[١٤] وما لَحِق القلعةَ من دمار يعود، على حسب الكثير من المؤرخين، إلى الهلاليِّين والموحِّدين على حدٍّ سواء. كان من أهم القرارات الاستراتيجية للدولة الحمادية بعد انهزام الناصر بن علناس الحمادي سنة ٤٧٥هـ/١٠٦٤م في معركة «السبيبة» — غربي القيروان — نقلُ مركز الحُكم من القلعة إلى بجاية، «ويذهب إلى هذا الرأي ابن الأثير والنويري وصاحب كتاب الاستبصار وبعض المتأخرين.»[١٥]

سل ابن علناس عن ذكرنا وقلعة بني حماد عن مجدنا
يُجبْكَ ابنُ حمديس في الخالدين ويصنعْ قوافيه من وحينا
وتنبئْك عائشة كيف كانت ترقُّ وتقسو على بعضنا
وتذكر بجاية أحلافنا وأسطولنا الضخم يغزو الدُّنا

وابن حمديس المذكور في المقطع السابق هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، المشهور بابن حمديس الصقلي.

[١٣] ذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» أن قلعة بني حماد «مدينة متوسطة، لها قلعة بُنيت فوق قمَّة جبل سُميت باسم تقربوست، هذه القلعة جد محصنة وتقع شرق المدينة.»
[١٤] عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص٩٠.
[١٥] عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص١٠٠.

وُلد ابن حمديس الصقلي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٣م بسرقوسة، كبرى مدن جزيرة صقلية. هاجر إلى الأندلس بعد هجمة النورمان لصقلية سنة ٤٧١هـ. لازم المعتمد بن عباد ومدحه، ودخل إفريقية يوم كان يحكمها تميم بن المعز. له ديوان شعر حقَّقه الأستاذ إحسان عباس سنة ١٩٦٠م.

كُفَّ بصره عند بلوغه ثمانين سنة، وتُوفِّي في رمضان من سنة ٥٢٧هـ ودُفن في جزيرة ميورقة، «ويُرجح أنه تُوفي في بجاية في الجزائر؛ لأن الذي دُفن في ميورقة بجانب ابن اللبانة هو أبو العرب الصقلي، فخلط الناس بينهما.»[١٦] وفي البيت الذي يلي ذكرٌ للشاعرة الحمادية عائشة العمارية.

يعود أصل تسمية الناصر بن علناس إلى «أعلى الناس»، تقلَّد الإمارة الحمادية سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م. بهدف حماية نفوذه، طلب الناصر التصالح مع ابن عمه تميم بعد موقعة سبيبة المذكورة، وتوسَّط في هذا الأمر وزيره أبو بكر بن أبي الفتوح، ولم يُكتب للصلح تمام إلا سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م رغم ما رُوي عن خيانة ابن البعبع له، ولم يُدعم إلا بزواج الناصر من بلارة ابنة تميم.

وفي القصرِ تختالُ بلَّارة ... تُشيع الضياء، وتفشي السنا
تَصَاهر فيها الدها والجمال ... فضمَّ انصهارُهما شملَنا
وأعلت بجايةُ هامَ الجزائـ ... ـرِ علمًا وشادت صروحَ الهنا

يقول في شأن هذا القصر ابن خلدون: «إنَّه كان من آنَق الرياض وأحفلها.» حطَّمه المرينيون سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م.[١٧]

اشتهرت بجاية بوفرة العلم وتطوُّر الفنون وتقدُّم الصناعات المتعلقة بالعتاد الحربي وأواني النحاس والفضة وصناعة الشمع، وقد بلغت التجارة الخارجية أوج

[١٦] محمد كمال سليمان حمادة، «الخطاب الشعري عند ابن حمديس الصقلي»، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٢م، ص٢٥.

[١٧] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، الجزء الأول، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م، ص٣٨٧.

سموها؛ حيث عرفت بجاية تصدير الشمع إلى إيطاليا، «ولا يزال مسمَّى الشمع عند الأوربيين بوجي Bougie وهو اسم بجاية في نطقهم الإفرنجي.»[١٨]

شهد العهد الحمادي هجرةَ الهلاليين إلى المغرب العربي، وخاصة إلى الجزائر، يقول توفيق المدني: إن «الخليفة الفاطمي بمصر حين أراد أن ينتقم من المعز الصنهاجي لخلعه سلطانه وانتمائه للعباسيين، أرسل عليه وعلى بلاده القبائل الأعرابية من بني هلال وبني سليم ومَن معهم، فأقبلوا بخيلهم ورَجْلِهم، وطغت موجتهم الأولى على دولة صنهاجة بالبلاد التونسية، ثم اجتاحوا دولة الحماديين.»[١٩]

أخذ الصراع بين العرب والأمازيغ بُعدًا ومنحنًى آخَر، استُهدفت فيه المعالم الثقافية والتاريخية، وهذا ما وقع عند الهجرة الهلالية لبلاد المغرب في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، أو بالأحرى ما عَلِق بالعرب الهلاليين من تخريبهم لإفريقية كما ورد عن المؤرخين المسلمين والمستشرقين. حمَّلت المدرسة الفرنسية القبائل الهلالية مسئولية انحطاط المغرب وفقدانه لمقوِّمات البقاء من خلال ما نشره إرنست مرسيي Ernest Mercier في كتابه «تاريخ استقرار العرب بإفريقية الساحلية من خلال وثائق المؤلفين العرب، وعلى الخصوص تاريخ البربر لابن خلدون» (١٨٧٥) وكتابه «تاريخ إفريقية الساحلية من الأزمنة البعيدة إلى الفتح الفرنسي» (١٨٨٨)، وقاسم هذه النزعة العنصرية كلٌّ من جورج مارسي Georges Marçais وإميل فليكس غوتيي Emile Félix Gautier بشهاداتهم حول إشاعة الهلاليين للفوضى وإجبار البربر إلى الانسياق لبداوة الجزيرة العربية، واغتصاب أراضيهم ومصادرتها، مكيفين تعريب المنطقة البربرية من «الجرائم الكبرى».

لقد وظَّفوا ما قاله ابن خلدون في تأريخه لهذه الهجرة في قالب إيديولوجي استعماري.[٢٠] انساق العديد من الكتَّاب والمفكرين العرب وراء طرح المدرسة الاستشراقية،

---

[١٨] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص٣٨٤.

[١٩] أحمد توفيق المدني، «كتاب الجزائر»، المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٣١م، ص٢٥.

[٢٠] انظر الفصل ٢٦ في أن العرب «إذا تغلبوا على أوطانٍ أسرع إليها الخراب»، عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء الأول «المقدمة»، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١م، ص١٨٧.

ويمكن فقط ذكْر ما توصَّل إليه فكْر الهادي روجي إدريس من أنَّ هجرة بني هلال تُصنَّف ضمن «الكوارث» التي حلَّت بالمغرب العربي و«ضربة قاضية لحضارة المغرب».[٢١]

يقول عبد الرحمن بن خلدون عن إفريقية والمغرب: «لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرَّسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين؛ قد لحق بها وعادت بسائطه خرابًا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانًا، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر، والله يرث الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.»[٢٢]

وتنصب أندلس عندنا وترْتاحُ للعربِ النازحين

بِغَض النظر عن بعض عوائد التوحُّش التي أَلِفها العرب في صحراء مصر، والسلوكات السلبية المحسوبة على الهجرة الهلالية، غير أنها لم ترقَ إلى اعتبارها عاملًا من عوامل السقوط؛ بل إنَّ الواقع التاريخي يُشيد بالدور الرائد لبني هلال في الحروب ضد الصليبيين وفي فتوحات الأندلس؛ بل أبعد من ذلك ما أثبته ابن خلدون في كتابه «العمران»، عندما أعزى انحطاطَ العالم الإسلامي وركونه إلى الضعف بسبب تراجع العصبية العربية، ووصول القيادات القَبَلية العسكرية الممثَّلة في الأتراك والبربر إلى قيادة الأمة الإسلامية، حسب قوله.

شهدت الدولة الحمادية غزو النورمان لجيجل سنة ٥٣٧هـ،[٢٣] واتسمت بودية علاقتها بالمسيحيين، وصارت مركزًا تجاريًّا، وتجلَّت فيها معالم الحضارة في قصورها ومساجدها ومساكنها وطرقها. سادت فيها اللغة العربية وأصبحت اللغة الرسمية للدولة. تقلَّص استعمال اللغة الأمازيغية في بعض مناطق المغرب العربي، وأصبحت حكرًا شفويًّا على سكان بعض الجهات في الجزائر.

---

[٢١] علاوة عمارة، «دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص١٣–١٦.

[٢٢] عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص١٨٨.

[٢٣] أصل الكلمة نور ثمن: «رجال الشمال»، وهم من النرويج والدانمارك، انتقلوا أيام شارلمان إلى منطقة نورمنديا وعُرفوا بالقرصنة البحرية (مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٢٥٦).

لم يفلح عبد الله المهدي في نشر المذهب الشيعي الإسماعيلي في الأوساط الجزائرية، ولعل أهم عامل قضى على هذا التيار السياسي والمذهبي هو ثورة أبي زيد المحتسب الملقَّب بصاحب الحمار (ت٣٣٦هـ/٩٤٧م) تحت لواء المذهب الإباضي.[٢٤]

ساد المذهب المالكي في الجزائر واعتمد في تأصيله تدريس موطأ الإمام مالك بن أنس — رضي الله عنه — ويرجع توسُّع الأخذ به، في عهد سحنون بن سعيد التنوخي (ت٢٤٠هـ/٨٥٥م) عندما شغل منصب قاضي إفريقية، ثم تولَّى نشره وتعليمه أبو زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م)، وقد ألَّف في ذلك العديدَ من المؤلَّفات: «الرسالة» و«النوادر والزيادات».[٢٥]

سعى أبو حفص عمر بن الحسين الصابوني على رأس السادة المالكية في الجزائر في نشر المذهب المالكي بتأييدٍ من سلطة بني حماد. أما عن انتشار المذهب الإباضي، فاقتصر تواجد هذا المذهب في بعض مناطق الجزائر، «لم ينجح أتباع مذهب جابر بن زيد إلا في الحفاظ على جزء صغير من نفوذهم بوارجلان (ورقلة) وأسوف (واد سوف) وخصوصًا ببلاد مصعب (ميزاب)؛ حيث لجئوا إلى هناك وبنوا مدن العطف وبنورة وبني يسجن وغرداية ومليكة.»[٢٦] أطاح المرابطون بآخر أمراء الدولة الحمادية يحيى بن عبد العزيز سنة ٥٤٧هـ، وانتهى بذلك حكم الدولة الحمادية من بجاية.

## (٦) دولة المرابطية: ٤٧٢–٥٣٩هـ/١٠٧٩–١١٤٥م

وهم من الأمازيغ الذين ربطوا أنفسهم لخدمة الدين من قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة، التي استقرَّت بجنوب المغرب وضفاف نهرَي السنغال والنيجر، ويُقال لهم الملثمون. عاشوا حياة الاعتزال في الصحاري، وانقطعوا بجزيرة،[٢٧] وربطوا أنفسهم للطاعة والذكر

[٢٤] علاوة عمارة، «دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص١٣١.

[٢٥] علاوة عمارة، مرجع سابق، ص١٣٣.

[٢٦] علاوة عمارة، مرجع سابق، ص١٣١.

[٢٧] يرى ابن خلدون أنَّ الجزيرة ببحر النيل. أما الأستاذ يحيى بوعزيز — رحمه الله — فيرى أنَّها تقع بحوض نهر السنغال.

مع شيخهم عبد الله بن ياسين المتوفَّ سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م مؤسس طائفة المرابطين، وهم الذين يُقال لهم التوارق.[٢٨]

تزعَّم الدعوة المرابطية في منطقة السودان أبو بكر بن عمر اللمتوني، وفي المنطقة الساحلية لمراكش يوسف بن تاشفين. أخذت هذه الدعوة الإصلاحية في التوسُّع واستحوذت على قلوب الكثير من المريدين، وانتقلت من مرحلة الدعوة إلى مرحلة قيام الدولة.

أسَّس يوسف بن تاشفين مدينة مراكش سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٣م)، وتمكَّن من السيطرة على كامل المغرب من مراكش إلى الحدود الشرقية لمملكة بني حماد. عُرف يوسف بن تاشفين بدهائه في المعارك؛ فقد استطاع أن ينتصر على جيش الإسبان بقيادة «الأذفونش السادس» في معركة الزَّلاقة سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، بعدما تفطَّن لخديعةٍ طمأن فيها الإسبان المسلمين بعدم مواجهتهم يوم الجمعة لقداسته، إلا أنَّ جيش ابن عبادة كان مستعدًّا وقت صلاة الجمعة، فانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا وفرَّ الأذفونش السادس في نفرٍ قليلٍ من أصحابه.[٢٩]

أمَّا على صعيد تعزيز سلطان الدولة المرابطية، فغزا يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٢هـ تلمسان في ٢٠ ألفًا من المرابطين، فعسكرَ بها وسكَّ اسمه في جهةٍ، وفي الأخرى كتب ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ سنة ثلاث وسبعين ٤٧٣هـ/١٠٧٧م.[٣٠] وفي سنة ٤٧٤هـ عسكرَ بتاقرارت وأقام بها وافتكَّها من أيدي بني يعلى الخزريين، وأصبحت مدينة واحدة مع تلمسان، واتخذها المرابطون عاصمة لهم.[٣١]

---

[٢٨] آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٣٢.

[٢٩] محمد حسن العيدروس، «المغرب العربي في العصر الإسلامي»، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٦٧٠.

[٣٠] آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٣٣.

[٣١] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٢٨٣.

بنى فيها يوسف بن تاشفين جامعها الكبير سنة ٤٩٥هـ/١٠٦٦م. مَلَكَ وهرانَ بعده ابنه علي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، وفي أيامه ظهر أمر الشريف المهدي بن تومرت القائم بدولة الموحدين.[٣٢]

تُوفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ، وخَلَفه ابنه علي بن يوسف. في سنة ٥١٦هـ أشعل المهدي بن تومرت الموحدي نارَ الثورة على عليٍّ؛ فكانت تلك الحرب سببًا في سقوط الدولة المرابطية سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م،[٣٣] قُتل في معركةٍ على إثرها قرب مدينة وهران تاشفين بن علي بن يوسف، وانتصر عبد المؤمن بن علي الموحدي معلنًا بذلك قيام الدولة الموحدية.

## (٧) دولة الموحدية: ٥٢٤–٦٦٨هـ/١١٣٠–١٢٦٩م

أصلُ تسميتهم بالموحدين تعود لعِلم التوحيد الذي عُرف به أتباع الشيخ الشريف المهدي بن تومرت؛ فهو الذي سمَّاهم بذلك تعريضًا بالمرابطين. وهو أول ملوك الدولة الموحدية.[٣٤]

ويمضي ابن تومرت يغزو الضَّـ ـلال فيُخلصُ لله عقل ودين

اشتهرت الدولة الموحدية عند نشأتها بانتشار العلوم المختلفة، ولقي ميدان الفنون عناية كبرى، نبغ فيها الشريف بن عمارة.[٣٥]

[٣٢] آغا بن عودة المزاري، مرجع سابق، ص١٣٥.

[٣٣] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٩.

[٣٤] آغا بن عودة المزاري، مرجع سابق، ص١٤٢.

[٣٥] هو أبو طاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني، له علم وأدب وفضل ونُبل، قضى في بعض النواحي ببجاية، كان متقدِّمًا في علم العربية والأدب، وله تأليف في علم الفرائض منظوم، وتواشيحه في نهاية الحسن وبها يُضرب المثل، وكثيرًا ما يقول الناس عندما يشطط الإنسان على الإنسان في الطلب فيجاوبه: وأغنِّي لك موشَّحًا لعمارة — عن موقع المكتبة الشاملة shamela.ws.

ويوسف بن يعقوب الوارجلاني:[٣٦]

ويهْزَجُ بالصادحات الشريف ويلمعُ يوسفُ في اللامعين

دخل جد المهدي ابن تومرت مع أبيه المغربَ مع عقبة بن نافع الفهري في فتحه الإسلامي. بُويع سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م وخَلَفَه تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي[٣٧] على رأس الدولة الموحدية، وبُويع سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م بعد وفاة ابن تومرت.

وتنجب ندرومة الخالدين فتُعلي الجزائر منَّا الجبين
ويصنعُ وحدتَنا ابن علي فيرْفع رايتها باليمين

كان عبد المؤمن بن علي فصيحَ اللسان، ضليعًا في علوم اللغة العربية والأدب والتراجم، اعتنى بتنظيم الجيش والتعليم والدواوين والأسواق، عقدت في عهده الدولةُ الموحدية معاهداتٍ مع جمهورية جنوة، كانت العلامة السلطانية عند الموحدين في رسائلهم «الحمد لله وحده».

قالت الشاعرة حفصة الأندلسية بنت الحاج الركوني، مخاطبةً عبد المؤمن بن علي:[٣٨]

يا سيِّد الناس يا مَن يُؤمِّل الناس رفده
امنن عليَّ بطرس يكون للدهر عُدَّه
تخط يمناك فيه «الحمد لله وحده»

---

[٣٦] هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مياد السدراتي والوارجلاني، ارتحل إلى الأندلس وسكن قرطبة، وفيها تعلَّم علوم اللسان الحديث والتنجيم وغيرها، وفسَّر القرآن تفسيرًا كبيرًا فائقًا جمع فيه من العلوم ما لم يذكره غيره. له مؤلَّفات، أشهرها: تفسير القرآن الكريم، العدل والإنصاف في أصول الفقه، الدليل والبرهان، مرج البحرين في المنطق والفلسفة وفتوح المغرب. تُوفي سنة ٥٧٠هـ — بتصرُّف عن موقع نور الاستقامة noor-alestiqamah.com.

[٣٧] عاهل إفريقية عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي نسبة إلى كومية، وهي قبيلة بربرية، وُلد بضيعةٍ من أعمال تلمسان تُعرف بـ «تاجرا» بنواحي ندرومة سنة ٤٩٠هـ وقيل سنة ٥٠٠هـ (عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ص٧).

[٣٨] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٣٠٩.

بعد قضائه على الدولة الحمادية احتل عنابة، ثم واصل مسيرته إلى تونس ومدينة المهدية فاستولى عليهما سنة ٥٥٥هـ، واستطاع القضاء على الاحتلال النورماندي بالأراضي التونسية.[٣٩]

وتصفو «أعز المطالب» فيه　　فتصفو المناهج للسالكين
وتزخر بالعلم أرجاؤنا　　فتسمو المداركُ بالنابهين

وقد أورد آغا بن عودة المزاري قولًا لابن رزقون فيه حديث المدوَّنة التي أشار إليها مفدي زكريا بتسمية «أعز المطالب»، قال: «كنت في العلماء الذين جمعهم عبد المؤمن بن علي سنة خمسين من القرن السادس (موافق لـ ١١٥٥-١١٥٦م) التي أمر فيها بحرق كتب الفروع، وقام وزيره أبو جعفر بن عطية وقال: بلغ سيدَنا أن قومًا تركوا الكتاب والسنة، وصاروا يفتون بفروعٍ لا أصول لها، «فمن نظر فيها عاقبته»، وأنهم عندهم كتابٌ يُقال له «المدوَّنة» لا يرجعون إلا إليه، ومن العجب قولهم بإعادة الصلاة في الوقت، مراده بذلك أن يحمل الناس على مذهب ابن حزم الظاهري، قال فحملتني الغَيرة، وتكلمت بأن رسول الله ﷺ لما صلَّى أعرابي أمامه قال له: «صلِّ فإنك لم تصلِّ.» كما في صحيح البخاري.

فقال: لا أحسن غير هذا، فعلمه، فلم يأمره بإعادة ما خرج وقته، فقام عبد المؤمن وسكن الحال ولم أرَ منه بعد هذا إلا الكراهة.»[٤٠] في سنة ٥٥٨هـ ندب عبد المؤمن عرب بجاية إلى الحرب في الأندلس برسالة ختمها بأبياتٍ من نظمِه ذكرها المبارك الميلي في مؤلَّفه.[٤١]

فرض عبد المؤمن على اليهود والمسيحيين أن يتميَّزوا بلباسهم حتى يُعرفوا، وبنى القلاع والمصحات. اعتمد المذهب المالكي وأمر جماعةً من المحدِّثين بجمع الأحاديث من

[٣٩] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٠.

[٤٠] آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٤٦.

[٤١] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٣٢٤.

الموطأ والصحيحين والترمذي وأبي داود والنسائي والبزار وابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي.[٤٢]

انتهج السكان الأمازيغ من الحضر والرحَّل عقيدةَ أهل السنة والجماعة، واتخذوا من المذهب المالكي مسلكًا فقهيًّا لهم، «وكان للتقارُب بين القيادات الفقهية المالكية بالمغرب الأوسط، وخصوصًا ببلاد المرابطين في المغرب الأقصى والأندلس، الأثرُ الكبير في بناء ثقافةٍ فقهيةٍ مالكية.»[٤٣]

تُوفي عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، ودُفن بتنمليل بجوار شيخه المهدي بن عبد الله تومرت. تولَّى من بعده الإمارة أبو يعقوب يوسف (ت٥٧٩هـ)، ثم المنصور (ت٥٨٠هـ) وانتهت بعد حكم إدريس الواثق سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م.

ظهر في عهد الدولة المؤمنية التصوُّف بالجزائر، واشتهر به أبو مدين شُعيب الأندلسي دفين تلمسان المتوفَّى سنة ٥٩١هـ أو ٥٩٤هـ على خلاف. تعرَّف بالشيخ عبد القادر الجيلاني بعرفة وأخذ عنه، واستوطن بجاية، فكان يُقرئ بها رسالة القشيري وغيرها، وكثُر أتباعه فاستقدمه يعقوب المنصور إلى مراكش، فلما بلغ تلمسان تُوفِّي بها، ودُفن برابطة العباد.[٤٤]

تلمسان أنت عروس الدُّنا ... وحلم الليالي وسلوى المحب
بحسنك هام أبو مدين ... وفي معبد الحب شاد القبب

وقال في موطنٍ آخر:

وأرقامُنا العربية مالت ... أوروبا العجوزُ لها طوعنا
وكان أبو مدين والثَّعَا ... لبيُّ هنا، يَرفعان البنا

[٤٢] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٣٣٩.

[٤٣] علاوة عمارة، «دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص١١٥.

[٤٤] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٣٤٧.

يشهد علماء المشرق والمغرب بفضل الرعيل الأول من رجالات الجزائر في التمدُّن والتحضُّر ورِفعة الكعب في العلم، ولقد أحسن مفدي زكريا إذ خلَّد في إلياذته تميم بن خريف في التأسيس للأرقام العربية التي تعتمد على الزوايا وقيمة الرقم؛ فإذا كانت زاوية واحدة فهو واحد، أو زاويتان فهو اثنان ... وهكذا على تسع.[٤٥]

استطاع الموحدون توحيدَ المغرب العربي، وردَّ هجومات الصليبيين عن شمال إفريقية، وبسطَ نفوذ المسلمين في الأندلس بعد انهيار دولة الأمويين بالأندلس في سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م واستيلاء الطوائف على كل مقاطعة.[٤٦]

كانت هزيمة معركة «الغراب» على المسلمين سنة ٦٠٩هـ/١٢١٤م نكبةً كبيرة في تاريخ المسلمين، وكان لها الأثر البالغ في تمرُّد الأندلسيين على الموحدين، وفتحت أبوابَ حربِ بني مرين على بني عبد المؤمن بداية من سنة ٦١٣هـ بالمغرب الأقصى، واعترى الدولة الموحدية الضعف والوهن وآلت إلى السقوط.

قامت على أنقاض الدولة الموحدية ثلاث دول: الحفصية، والمرينية، والزيانية. كان الصراع المفضي إلى الاقتتال أبرز مظاهر نشأة هذه الدول، ولعل طمع الإسبان في الإغارة على المغرب واستعماره كان ناتجًا عن ضعفها وذهاب ريحها وإطلاق عنان الحملة الصليبية عليها، «ولولا قيام الدولة التركية بأساطيلها في وجوه الدول الأوربية لَلَحِقَ المغرب بالأندلس وصقلية.»[٤٧]

وقد سبق لصلاح الدين الأيوبي أن طلب من المنصور عام ٥٨٠هـ يستنجد به فيها على الإفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد الشامية، خاصة أن أساطيلهم كانت تمر بممر جبل طارق، وكان حامل الرسالة شمس الدين بن منقذ، غير أن طلبه قُوبل بالرفض.[٤٨]

---

[٤٥] محمد حسن العيدروس، «المغرب العربي في العصر الإسلامي»، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٦٣٩.

[٤٦] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤١.

[٤٧] مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص٣٥٥.

[٤٨] لم يجبه سلطان الموحدين لذلك، لا لشيء سوى أنه لم يخاطبه بأمير المؤمنين، فضاعت فرصةٌ غاليةٌ لاتحاد المسلمين ضد الصليبيين بالمشرق والمغرب (محمد حسن العيدروس، «المغرب العربي في العصر الإسلامي»، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٦٧٧).

## (٨) الدولة الحفصية: ٦٢٧–٩٤٣هـ/١٢٢٩–١٥٣٦م

يعود أصل الحفصيين إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، أحد العشرة المقربين من ابن تومرت،[٤٩] تُوفي سنة ٥٧١هـ، ومن أشهر أبنائه: أبو زكريا، سمح له موقعه ونفوذه باحتلال قسنطينة وبجاية والجزائر وتلمسان.

احتلت إسبانيا في سنة ٩١٥هـ/١٥١٠م بجاية، ودلس والجزائر من غير مقاومةٍ حفصية، وفي سنة ٩١٩هـ احتلت جيجل، وفي سنة ٩٤١هـ تنازل الحسن عن بونة فتم خروج الجزائر من أيدي الحفصيين.[٥٠] تسبَّبت الفتن الداخلية وغارات الإسبان والبرتغاليين ووهن الجيش في إضعاف الدولة الحفصية، فكان سقوطها حتميًّا سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.

بدأت أولى التدخلات العثمانية في بلاد المغرب على يد بربروس وخير الدين من جهة تونس، وقد تمكَّن من تحرير بجاية وبقية السواحل التي ملكتها إسبانيا، وسُرَّ به الحفصيون، ثم استرجع جيجل سنة ٩٢٠هـ والجزائر سنة ٩٢٢هـ، فولَّاه سليم العثماني عليها، وكان ذلك أول قدمٍ للعثمانيين بالجزائر.[٥١]

## (٩) الدولة المرينية: ٦٦٨–٧٩٦هـ/١٢٦٩–١٣٩٣م

يُنسب المرينيون إلى جدِّهم مرين بن أمير الناس على قولٍ، وابن ورتاجن على قولٍ آخَر، وأما تسميتهم ببني حمامة فنسبة لجدهم حمامة بن محمد بن ورزين.[٥٢]

في خضم الحروب الصليبية المعلنة وتحالفات الإمبراطوريات الأوروبية، انشغل المرينيون بالصراع مع بني عبد الواد، فوهنت قواهم، وتشتَّت شملهم، واشتدت بهم عواصف الفُرقة، وضعفُت لذلك غرناطة التي كانت تستمد منهم المدد العسكري والمالي، فسقطت على يد الإسبان سنة ٨٩٧هـ.

---

[٤٩] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٣٨٢.

[٥٠] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٤١٢.

[٥١] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٤١٣.

[٥٢] آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٦٨.

## (١٠) الدولة الزيانية: ٦٣٣–٩٦٢هـ/١٢٣٥–١٥٥٤م

امتد نفوذ الدولة الزَّيانية إلى معظم التراب الجزائري، وكانت عاصمتها تلمسان، ومن المرجح، أن تلمسان هي اسم عَلم زناتي مركَّب من «تلم» بمعنى تجمع، و«سان» بمعنى اثنين؛ أي أنَّها تجمع بين اثنين: التل والصحراء، لاعتبارات مصيرية تخص بقاء الدولة واستمرار نفوذها. تحالف الزيانيون مع الموحدين وبقوا على خلافهم مع المرينيين والحفصيين. تُنسب إلى زيان بن ثابت بن محمد بن زيدان والد يغمراسن من بني طاع الله، «وبنو طاع الله من بطون بني القاسم من عبد الواد.»[٥٣] ويرتفع نسبهم إلى إدريس بن عبد الله الكامل، نسبتهم لعبد الواد من جدهم لأمهم عبد الوادي[٥٤] بن يادين بن محمد رزجيك بن واسين.

دلال المدية أعيا الملوك        وكم خاطبٍ ودها أخفقا
تنازعها الروم والمسلمون        وحاولَ زيَّان أن يسبقا

كان أول مَن حكمها، أبو يحيى يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العيد الوادي،[٥٥] وُلد سنة ٦٠٣هـ، أسَّسها سنة ٦٣٣هـ/٩٦٢م وبُويع في هذه السنة يوم كان الحُكم لبني عبد المؤمن، أما الذين من قبله فلم يكن لهم الحكم والسيادة؛ بل مجرد المشيخة والريادة، «وفي رواية، أنه بدأ حكمه في أيام الرشيد عبد الواحد بن إدريس المأمون.»[٥٦]

عُرف يغمراسن بتديُّنه ومحبته لأهل العلم والأدب ومجالسة الصالحين، ومن آثاره صومعتا جامعَي تلمسان القديمة والحديثة.

---

[٥٣] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص٤٣٩.

[٥٤] أصله عابد الوادي، صفة لتبتله بوادٍ هناك (عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، الجزء الثاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٤١).

[٥٥] أورد آغا بن عودة المزاري في كتابه «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر» في صفحته ١٦٢ قولًا للحافظ أبي راس في كتاب «الحاوي» أن معنى يغمراسن بلغتِهم كثيرُ المرق، ولُقِّب بذلك لكثرة جوده.

[٥٦] آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص١٦٢.

سُئل أن يأمر بكَتْب اسمه في صومعة الجامع الأعظم، فأبى وقال: «عِلم ذلك عند ربي.» وقد أورد محمد بن عبد الله التنسي في كتابه[57] قولًا ليحيى بن خلدون أن يغمراسن قال بالزناتية: «يسنت ربي»؛ أي علمه لله، غَيَّر يغمراسن — عندما استقر له الأمر وكثر ماله — اسم تاجرارت من اسمها القديم إلى تلمسان، المعروفة الآن.[58]

| | |
|---|---|
| تلمسان مهما أطلنا الطوافا | إليك تلمسان ننهي المطافا |
| يغمراسن الشهم ضاق اصطبارا | وغالب خمسين عامًا عجافا |
| وأصلى بني حفص حربًا عَوانا | وما اسطاع بابن مرين اعترافا |
| فكانت تلمسانُ دارَ سلام | وأمرُ الجزائر فيها ائتلافا |
| فأكرِمْ بمَشْوَرِها الوطني | وزيان يحسم فيه الخلافا |
| ويدفع خطو بني عبد واد | فتغزو الحياة، ثقالًا خفافا |

بعد محاولات عدة للسيطرة الحفصية على الجزائر، أغار أبو زكريا الحفصي على تلمسان سنة ١٢٤٢م، لكن جيش يغمراسن كان بالمرصاد واستطاع صد الهجوم.

هذا عن الحفصيين، أما عن أطماع المرينيين فلم تلبث أن طفت مرة أخرى على سطح العلاقات بين الإمارات الإسلامية، وتعكَّر صفو الدولة الزيانية، حتى بادر يعقوب بن عبد الحق المريني لتوجيه جيشه للإغارة على يغمراسن.

كانت الموقعة بوادي تلاغ سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، انهزم فيها الجيش الزياني شر هزيمة، قُتل فيها أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان، وكان كبير أولاده وولي عهده، وهلك في المعركة نفرٌ من أكبر رجال بني زيان.[59]

بعد ثلاث سنوات، من موقعة تلاغ، أعاد يعقوب الكرَّة على الدولة الزيانية، ومُني مرةً أخرى يغمراسن بهزيمة في معركة إيسلي الشهيرة، وفقدَ هذه المرَّة ابنَه أبا عدنان

[57] محمود آغا بوعياد، «تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان»، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١١م، ص١٢٥.

[58] ابن الأحمر، «تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان»، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠١م، ص٣٨.

[59] ابن الأحمر، «تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان»، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠١م، ص١٩.

فارس وبضعًا من أهل بيته. استغل يعقوب المريني شقاقًا بين يغمراسن وطائفة من بني عمومته، وجعله عاملًا من عوامل القضاء على يغمراسن، وكان على رأسهم أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن توجين من زناتة.[٦٠]

تُوفي يغمراسن — رحمه الله — يوم الإثنين ٢٩ ذي القعدة سنة ٦٨١هـ الموافق لـ ٢٨ مارس ١٢٨٣م بـ «رهيو» بعد عودته من مليانة وعمره ٧٦ سنة.[٦١] خَلَفه ابنه أبو سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان ٦٨١هـ/١٣٠٣م، ثم جاء من بعده ابنه محمد بن السعيد سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م، وجدد الدولة أبو حمو موسى الثاني.

في غَمرة التهديدات التي كان يطلقها الأسطول الإسباني على الجزائر، دخل الأتراك إلى الجزائر في عهد الحسن بن عبد الله الثاني ٩٥٧هـ/١٥٥٠م، وقد كان آخر عهد الدولة الزيانية بالحكم.

ويُنسب لبني عبد الواد حرصهم على العلم وترقية القضاء والعمران، ويعود لهم الرسم الحالي لحدود الجزائر المعاصرة. ألحق الأتراك إمارة بني زيان للحكم العثماني، ونقلوا العاصمة من تلمسان إلى الجزائر بعدما استنقذوها من الإسبان، وأخذت الجزائر يومها نظامَ حكمٍ آخر وسياسةً مخالفةً لما سبق.[٦٢]

---

[٦٠] ابن الأحمر، مرجع سابق، ص٢٣.

[٦١] محمد بن عبد الله التنسي، «تاريخ بني زيان ملوك تلمسان»، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١١م، ص١٢٨.

[٦٢] ابن الأحمر، مرجع سابق، ص٥١.

المبحث الثالث

# العصر الحديث والمعاصر

الفصل الأول

# التدخل الأجنبي في الجزائر

تنازع في دخول الجزائر الإسبانُ باعتبارهم قوةً بحرية أرادت الهيمنة على المنطقة وبث نفوذها، والأتراكُ باعتبارهم قوةً عظمى تم الاستنجاد بها من طرف الجزائر، ثم فرنسا المتحيِّنة لفرصة الاحتلال.

## (١) ملوك الإسبان: عين على الجزائر

كان اجتماع الإسبان بداية من سنة ٩٨٨هـ/١٤٨٤م على ملك واحد اشترك فيه هو وزوجته إيزبيلة، ودام مدة ٣٥ سنة.[١] راوده افتكاك الأندلس كاملة من المسلمين؛ لذلك عزم على غزو غرناطة في سنة ٩٩٥هـ/١٤٩٠م وكان أميرًا بها أبو عبد الله محمد حسن، وسقطت في أيدي النصارى الإسبان سنة ٩٩٧هـ/١٤٩٢م، وانتهى بذلك حكم المسلمين في أوروبا، كما يؤرِّخ العالم الغربي لبداية الاكتشافات الجغرافية وانطلاق النهضة الأوروبية؛ فحري بالعالم الإسلامي أن يعتبر سنة ١٤٩٢م بدايةً لاستعمار الدول الإسلامية ودخولها في دوامة الغزو الصليبي وتدمير مقوماتها ومقدساتها.

غزا الإسبان مرسى وهران سنة ٩١١هـ/١٥٠٥، ودخلوا وهران سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م، لم يكن للغزاة أن يدخلوها لولا غدر يهودي ذمي يُدعى «سطورا»، كان يشتغل قابض مكس، فتح الباب للإسبان، على حين غفلة من المسلمين بمعية عيسى العريبي وابن قائص،

---

[١] آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص٢٠٨.

وقد أسفر الغزو عن مقتل ٤ آلاف مسلم وأسر ٨ آلاف، وإنقاذ ٣٠٠ أسير مسيحي.[٢] وما استطاعت يومها السلطة الزيانية فعل شيء لرد العدوان.

بعدها بسنة واحدة، أي سنة ١٥١٠م، غزا فرناندو مدينة الجزائر، يقول مفدي زكريا:

وأوغر قلبَ الصليب الحقود علانا، وأمعن فينا الحسُود
وطافت بوهران جيطان غدرًا وزيان ما اسطاع حشد الجنود

في سنة ١٥١٦م وفي ظل الهجمة الإسبانية المسيحية، استنجد سالم بن تومي بالسلطة التركية، حسب غالب الروايات، فلبَّى لندائه الأخوان «عرُّوج» و«خير الدين» واستطاعا ردَّ الغزو الإسباني عن الجزائر. قُتل عرُّوج — رحمه الله — في معركة سقوط تلمسان سنة ١٥١٨م ضد الإسبان في السنة التي تُوفي فيها السلطان أبو حمو الثالث، فاستنجد خير الدين بالسلطان سليمان العثماني فأمدَّه بأسطول بحري. في سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م حرَّر خير الدين الجزائر من الإسبان. عمد الأسطول الجزائري إلى مواجهة «شرلكان» سنة ١٥٤١م في عرض البحر، مُني على إثرها الإسبان بخسارة قُدِّرت بـ ١٢ ألفًا من الجند وإتلاف ١٥٠ سفينة.

ولعلع في بربروس نداها فثار ... وأقسم أن لا يعود

## (٢) العثمانيون في الجزائر: نظام الحكم ورد العدوان الإسباني

قبل دخول العثمانيين، حكمَ الجزائرَ الشيخ العالم الجليل سيدي عبد الرحمن الثعالبي،[٣] فلما تُوفي تولَّى الحكمَ من بعده سالم التومي، وانتقلت الرئاسة من الثعالبة إلى بني سالم.

[٢] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٧.

[٣] فخر علماء الجزائر الإمام المسند أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، نسبة إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وُلد سنة ٧٨٥هـ بوادي «يسر»، وهو موطن آبائه وأجداده الثعالبة أبناء ثعلب بن علي من عرب المعقل، تُوفي يوم ٢٣ رمضان سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م (عن كتاب عبد الرحمن الثعالبي، «غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد»، تحقيق محمد شايب شريف، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٥٦).

انتزع العثمانيون السلطةَ من الجزائريين، وكان «الريَّاس» أول طبقة حاكمة للجزائر في العهد العثماني.

يليهم «اليولداش» وهم طبقة الجيش البري، ينحدر معظمهم من أصل تركي، ومنهم تتشكَّل الفرق الإنكشارية.

## (٢-١) فترات الحكم العثماني

مر الحكم العثماني بالجزائر بأربع فترات:

عصر البايلربايات (أمير الأمراء) ١٥١٤–١٥٨٧م، وعصر الباشوات ١٥٨٧–١٦٥٩م، وعصر الأغوات ١٦٥٩–١٦٧١م، وانتهى بعصر الدايات ١٦٧١–١٨٣٠م.

## (٢-٢) التقسيم الإداري للجزائر

**دار السلطان:** الجزائر العاصمة وضواحيها ومقر الداي.

**بايلك الشرق:** المقاطعة الشرقية للجزائر وعاصمتها قسنطينة.

**بايلك الغرب:** المقاطعة الغربية وعاصمتها وهران — بعد إجلاء الإسبان عنها سنة ١٧٩٢م.

**بايلك التيطري:** وعاصمته المدية.

انتقل خير الدين من مجرَّد «رايس» بحر تركي إلى رئيس دولة جزائرية، أوصلها القهرُ الخارجيُّ والفُرقةُ الداخليةُ ودورةُ الزمان من صفة الدولة الرائدة صاحبة السيادة إلى دولة مرتبطة بالإمبراطورية العثمانية.

وللدين خيرٌ يصون حماه وأسطولنا في البحار يسُود
قراصنة البحر عاثوا فسادا فأدَّب ليث البحار القرود
وخاض الأمازيغ ساح الفدا تُباركهم صلوات الجدُود
وآزرنا الترك حتى انتصرنا ولم يخفر الترك ماضي العهُود

وقد أحسن شاعر الثورة إذ أضاف:

| | |
|---|---|
| وقمنا نسوس البلاد بعدل | ونسدي الجميل، ونرعى الحدود |
| ولم نكُ للتركِ بالتابعين | وإن عززوا سعْينا بالجهود |
| ونحن أناسٌ نَعُدُّ الجميل | ونرعى ذمام الصديق الودود |

لم يستمر الأتراك كثيرًا في مهام الدفاع عن الجزائر؛ لقد استغلت السطوة على البحر الأبيض المتوسط للقيام بأعمالٍ وُصفت بالقرصنة، كان الغرض منها الحصول على موارد تموين الخزينة العثمانية خارج مجال الأتاوى المعهودة. غذَّت هذه الأعمال شعور الانتقام من الحكم التركي لدى العديد من دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

## (٣) الأطماع الفرنسية في الجزائر

كان باديًا أنَّ علاقة فرنسا بالجزائر وديَّة على أبعد الحدود، لكن الواقع التاريخي أثبت أنَّ هذه العلاقة كانت تخفي وراءها نيةَ القضاء على الحكم العثماني في الجزائر واحتلالها منذ ١٢٧٠م في عهد الملك لويس التاسع. حظيت فرنسا بامتيازات تجارية ودبلوماسية، كان أهمها الترخيص لفرنسا، سنة ١٧٩٤م، بالتمويل من ميناء الجزائر عندما صُدَّت أبوابُ الأسواق التجارية أمامها.

| | |
|---|---|
| جاءت فرنسا ... فكنا كرَاما | وكنا الألى يطعمون الطعاما |

رغم اعتراف الجزائر بالجمهورية الفرنسية الجديدة المنبثقة عن الثورة الفرنسية، إلا أنَّ ذلك لم يمنعها من التفكير في مشروعها «الحضاري» المتمثِّل في الاستعمار. يشير الأستاذ مولود قاسم — رحمه الله — إلى رسالة نابليون بونابرت التي بعث بها إلى وزيره «ديكريس» يوم ١٨ أبريل ١٨٠٨م يقول فيها: «فكِّروا في إعداد غزوة للجزائر، وذلك على كلا المستويَين؛ البحري والبري.»[٤]

[٤] مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠»، دار الأمة، الجزء الثاني، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٣٠.

كلَّف نابليون «بوتان» لإعداد خطة هجوم على الجزائر من سيدي فرج في يوليو ١٨٠٨م.

أبوتانُ ... هل سيدي فرج وإن طال ليل ... أقرَّ النظاما؟

في بداية الأمر كان دفع المقابل المالي لأي معاملة تجارية يُسدَّد من الحكومة الفرنسية إلى الجزائر بصفة مباشرة، فلجأت فرنسا إلى اعتماد وساطةٍ ماليةٍ يقوم بها ميشيل بكري كوهين المعروف بابن زاهوت، ونافتالي بوشناق المعروف ببوجناح، وهما تاجران يهوديان قدِما من إيطاليا سنة ١٧٧٠م واستقرَّا بالجزائر، يعود لهما أمر الوهن الذي أصاب الاقتصاد الجزائري، والقيود السياسية التي أدَّت إلى حصار الجزائر والحملة عليها واحتلالها.

أورد الأستاذ عبد الله شريط في كتابه[٥] قولًا لحمدان خوجة، يروي فيه قصة ثراء بوشناق حينما طلب منه الباي حلية كريمة تُعرف بالصريمة، فاشتراها منه بـ ٣٠٠ ألف فرنك ودفع مقابلها ٧٥ ألف كيلة من القمح، ثم باع بوشناق القمح في فرنسا، وقد كان محتكرًا لتجارته فربح ٣ ملايين و٤٥٠ ألف فرنك. ورحم الله صاحب الإلياذة حين يقول:

فأبطرهم قمحُنا الذهبي وكم تُبطِر الصدقات اللئاما
وباعت فرنسا ضميرَ اليهود فباع ضميرُ اليهود الذماما
وما كان بوشناق إلا ابن آوى وما كان بوخريص إلا طُغاما

بلغ نفوذ اليهوديَّيْن مبلغ القدرة في توجيه سياسات الجزائر واقتصادها، وكان لهما الباع الطويل في تعيين موظفي الدولة الساميين، وعقد الاتفاقيات مع الخارج والتفاوض مع الدول الأجنبية.

كان التحضير للانتقام من بوشناق عاملًا مشتركًا بين العديد من الجزائريين والأتراك؛ حيث قام أحد الجنود الإنكشاريين سنة ١٨٠٥م باغتياله. ثارت نعرة اليهود لمقتله، ويرجح أن يكون مقتل الباشا مصطفى في تلك السنة في سياق الانتقام.

---

[٥] أبو القاسم سعد الله، «محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، الجزائر، ١٩٨٢م، ص١٥.

في زمن تجاذب المصالح والنزاعات الحاصلة عن دفع الديون وتهديدات الحرب البحرية واكتشاف الداي حسين لخدعة إيقاع الجزائر التي نسج خيوطها القنصل الفرنسي بالجزائر دوفال مع شركة يهودية، وقعت في يوم عيد الأضحى المصادف ٢٩ أبريل ١٨٢٧م حادثة المروحة المشهورة؛ «فقد حضر كالعادة القناصل الأجانب، ومن بينهم دوفال، لتهنئة الباشا حسين، ودار حديث بين الباشا والقنصل الفرنسي حول رد فرنسا على طلبه المتعلِّق بدفع الديون، فكان رد القنصل غامضًا، ولعله كان مهينًا للباشا ... وأمره بالخروج، وعندما لم يتحرَّك ضربه بالمروحة التي كانت بيده.»[٦]

ومروحة الدَّاي لم تكُ إلا    كما يستبيح اللصوص الحراما

أعلن التحالفُ المسيحيُّ الحربَ على الجزائر في يوم ١٦ يونيو ١٨٢٧م، وجهَّزت فرنسا وإنجلترا وروسيا عُدَّتها وعددها لخوض المعركة النهائية ضد الجزائر، فوقعت معركة نافارين الشهيرة يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م التي تحطَّم فيها الأسطول الجزائري تحطمًا كليًّا، ثم ضُرب الحصار البحري على الجزائر.

قرَّر مجلس الوزراء الفرنسي في ٣٠ يناير ١٨٣٠م القيامَ بحملة على الجزائر، وفي ٧ فبراير ١٨٣٠م أقرَّ الملك شارل العاشر مشروع الحملة، وعيَّن الكونت دي بورمون قائدًا لها، والأميرال دوبيري قائدًا للأسطول البحري.

وخرَّب شارل المريض فرنسا    فثار بها الشعب يغلي انتقاما
وضاق الفرنسيس بالعاطلين    وما ذاق شارل المريض المناما
وأوحى له قمحنا غزونا    فأطلق هذي القموح سهاما
وصبَّ النفايات في أرضنا    وخانَ المسيحَ وأغرى السواما

نزلت القوات الفرنسية المحتلة أرض الجزائر عبْر سيدي فرج في ١٤ يونيو ١٨٣٠م، ونصب القائد العام الفرنسي دي بورمون مقرَّ قيادته في زاوية سيدي فرج.

استنفر الباي إبراهيم جنوده لمقاومة القوات الغازية، غير أنه انهزم في معركة إسطاولي في ١٩ يونيو ١٨٣٠م. لم يكن الوضع يدعو للطمأنينة؛ فبعد تمركُز الفرنسيين

---

[٦] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص٢٤.

بساحل سيدي فرج وفشل محاولات الجزائريين لرد العدوان، أصدرت القوات الفرنسية الغازية بيانًا للسكان الجزائريين تدعوهم فيه للتعاون مع الفرنسيين للتخلُّص من «جور الأتراك».[٧]

لم يكن أمام الباشا حسين إلا التوقيع على معاهدة الاستسلام في ٥ يوليو ١٨٣٠م مع شارل العاشر، والتي أمضاها نيابة عنه الجنرال دي بورمون.[٨]

تضمنت المعاهدة البنود التالية:

- تُسلَّم قلعة القصبة وكل القلاع الأخرى المتصلة بالمدينة وميناء هذه المدينة (الجزائر) إلى الجيش الفرنسي هذا الصباح على الساعة العاشرة صباحًا.
- يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي أمام سعادة باشا الجزائر أن يترك له الحرية وكل ثرواته الشخصية.
- سيكون الباشا حرًّا في أن يذهب، هو وأسرته وثرواته الخاصة، إلى المكان الذي يقع عليه اختياره. فإذا فضَّل البقاء في الجزائر فله ذلك هو وأسرته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي، وسيعين له حرسًا لضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.
- يتعهَّد القائد العام لكل الجنود الإنكشاريين بنفس المعاملة ونفس الحماية.
- سيظل العمل بالدين الإسلامي حرًّا، كما أن حرية السكان مهما كانت طبقتهم ودينهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم لا يلحقها أي ضرر. وستكون نساؤهم محل احترام، ويلتزم القائد العام على ذلك بشرفه.
- وسيتم تبادل وثائق هذا الاتفاق في الساعة العاشرة هذا الصباح، وسيدخل الجيش الفرنسي حالًا بعد ذلك إلى القصبة، ثم يدخل كل القلاع التي حول المدينة كما يدخل الميناء.

(توقيع الكونت دي بورمون، وختم حسين باشا داي الجزائر.)[٩]

---

[٧] ملحق رقم ٤، ص١٥٥.

[٨] مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠»، دار الأمة، الجزء الثاني، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٢٤٤.

[٩] أبو القاسم سعد الله، «محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، الجزائر، ١٩٨٢م، ص٤٦، عن كتاب «المرآة» لحمدان خوجة.

نصَّب دي بورمون أول مجلس بلدي (كان مقره ما يُصطلح عليه «قصر خداوج العمياء»)، ترأَّس المجلس أحمد بودربة، وضم كلًّا من حمدان خوجة وعدد من الأعضاء المسلمين واليهود، وأبرق دي بورمون تقريرًا حول الاجتياح مذكِّرًا بإخفاق القوات الإسبانية والبريطانية والهولندية والدنماركية والأمريكية في دخول الجزائر فيما سبق.[١٠]

نُقل الداي حسين باشا بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٣٠م إلى مدينة نابولي الإيطالية، ثم التحق بفرنسا، وأخيرًا توجَّه إلى الإسكندرية حيث أقام بها حتى يوم وافته المنية ودُفن بها سنة ١٨٣٤م.[١١]

---

[١٠] انظر الملحق رقم ٧، ص١٥٩.

[١١] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٠٠.

الفصل الثاني

# الانتفاضة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي

لم تكن تلك الجيوش الجرارة من الفرنسيين الغزاة حجةً للجزائريين في الاستسلام الكامل لفرنسا. ما فتئت القوات الفرنسية الاستعمارية تستقر في العاصمة حتى بدأ التفكير في المقاومة. لم يكن لنضال حمدان خوجة السياسي أن يرقى لمستوى تحدي دولةٍ استعمارية؛ فلقد بات مؤكدًا لدى الجزائريين أن استرجاع السيادة الوطنية لا بد أن تُعَبَّأ لها التضحيات بالنفس والنفيس.

كان للدافع الديني دور إيجابي في إيقاظ همة الثورة لدى زعماء ومريدي الطرق الدينية المختلفة بالجزائر التي استطاعت أن تُشكِّل هاجسًا لفرنسا وكابوسًا نغَّص عليها استقرارها. تزعَّم الثورة في بداية الاستعمار عدد من هؤلاء الزعماء من بينهم بن زعمون، والحاج سيدي السعدي، والحاج محيي الدين بن المبارك، والأمير عبد القادر.

لم تكن استكانة الطبقة الحاكمة العثمانية في صد العدوان واستسلامها، عاملًا مشتركًا بين جميع الحكام من الأصل التركي؛ بل عمد بعض البايات والقادة الذين عملوا بالإدارة العثمانية إلى تزعُّم الثورة ضد الفرنسيين بعد استسلام الداي حسين وتسليمه العاصمة الجزائرية، نذكر منهم باي التيطري مصطفى بومرزاق، وإبراهيم باي قسنطينة السابق، والحاج أحمد باي قسنطينة.

وفي ردِّها على ثورة الجزائريين، أرادت فرنسا، أن تبلغ رسالة لكل الشعب الجزائري من خلال إقدامها على إصدارِ حكمٍ بالإعدام في حق كلٍّ من مسعود بن عبد الواد، والعربي بن موسى في فبراير ١٨٣٣م في عهد الدوق دي روفيغو، ونُفِّذ في نفس التاريخ، وكان هذا أول حكم بالإعدام في تاريخ الجزائر.

تعالت أصوات غربية وشرقية تندِّد بتدهور حقوق الإنسان في الجزائر، أوفد على إثرها لويس فيليب ملك فرنسا في ٧ يوليو ١٨٣٣م لجنةً لتقصي الحقائق، وإعداد تقرير حول الوضع العام في الجزائر، كانت نتيجة اللجنة أن سكان الجزائر «ينعمون بما تقدِّمه حضارة فرنسا» وأنَّ الوضع مستقر. اقترحت تعيين حاكم عام للجزائر، والسماح لكل الجنسيات بدخول الجزائر والاستقرار فيها، وخرجت بتوصية الحفاظ على الجزائر كممتلكة فرنسية في أفريقيا. عند احتلالها للجزائر، قامت كذلك السلطة الاستعمارية «القائمة على مبادئ الإخاء والمساواة وحقوق الإنسان» على نهب أوقاف الحرمين الشريفين — مكة والمدينة — في الجزائر. أحصت فرنسا سنة ١٨٣٧م في العاصمة وحدها ١٢٢٥٠٣ فرنكات قيمةً لتلك الأوقاف.

## (١) الأمير عبد القادر يؤسِّس للدولة الجزائرية

بناءً على كِبَر سنه وعدم قدرته الصحية، اعتذر الشيخ محيي الدين بن مصطفى؛ لعدم استطاعته تلبية نداء السكان لقيادة المقاومة ضد فرنسا. واقترح عليهم تقديم ابنه عبد القادر للمبايعة. قَبِل الجزائريون اقتراح محيي الدين، فبايعوا الأمير عبد القادر يوم ٣ رجب ١٢٤٨هـ/٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م.

يقول مفدي زكريا في الإلياذة:

معسكر فجَّر عزم الشباب فطال عملاقها الأنجما
وبُويع شاعرها الهاشمي فكان بها القائد الملهما
يصوغ النظام ويبري الحسام فيقطر ذاك وهذا ... دما

فقام الشاب المعروف بتدينه وشاعريته وقوَّته بالعمل على تأسيس دولة جزائرية عصرية. نظَّم الجيش وأسَّس الديوان، وأقام نظام الشورى. أقام النظام الإداري على تقسيم الجزائر إلى مناطق، تنقسم إلى دوائر، وكل دائرة يرأسها «أغا»، وكل دائرة إلى وحدة يحكمها «قايد» مستعيناً بشيوخ القبائل.

أيا عبدَ قادرِ ... كنت القديرا وكان النضال طويلًا عسيرا
شرعْت الجهاد، فلبَّاك شعب وناجاك ربٌّ، فكان النصيرا

ونظَّمت جيشًا، وسُست بلادًا فكنت الأمير الخبير الخطيرا
وألهبت في القابعين الحنايا وأيقظت في الخانعين الضميرا

لم تمضِ ثلاثة أشهر على مبايعة الأمير حتى بدأ شتات القبائل المناهضة لدولة الأمير والمناصرة لفرنسا يلتف، فما كان من الأمير إلا أن قرَّر صد عدوانها وردها إلى رشدها بالهجوم عليها وعلى معاقل القوات الفرنسية بتاريخ ٤ فبراير ١٨٣٣م. اضطُرَّ الجنرال «ديميشيل» أن يبرم معاهدة مع الأمير عبد القادر في ٢٦ فبراير من سنة ١٨٣٣م والتزم فيها الطرفان بما يلي:

- يعيِّن الأمير عبد القادر وكلاء له في مدن مستغانم ووهران وأرزيو كما تعيِّن فرنسا وكيلًا لها في معسكر.
- احترام الديانة الإسلامية.
- التزام الفريقين بردِّ الأسرى.
- إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.
- التزام كل طرف بإرجاع كل مَن يفر إلى الطرف الآخر.
- لا يُسمح لأي أوروبي أن يسافر داخل البلاد إلا إذا كان يحمل رخصة من وكلاء الأمير وموافقة الجنرال الفرنسي.[1]

لم تلتزم فرنسا بالتزاماتها، فما كان من الأمير عبد القادر إلا أن يُعلن الحرب مرة أخرى ويستنفر الجيش يوم ٢٦ يوليو ١٨٣٥م بمعركة «المقطع» التي انتصر فيها وانهزم فيها الجنرال «تريزل» منسحبًا إلى أرزيو. في شهر ديسمبر من نفس السنة، أغار الماريشال «كلوزيل» على المنطقة التي عسكر بها جيش الأمير فانسحب منها الجيش الجزائري ليعيد حساباته وينظِّم صفوفه للمعارك القادمة.

في ١٨٣٦م تمكَّن جيش الأمير من إلحاق هزيمة كبرى بفرنسا في معركة «التافنة» الشهيرة. بدأ الجيش يستنفد طاقاته العسكرية في ظل الإمدادات التي كانت تصل إلى الجيوش الفرنسية، وخيانة بعض القبائل التي أضحى شغلها الوحيد قطع المَدد عن الجيش وتثبيط معنويات السكان في محاولات الالتحاق بجيش الأمير.

---

[1] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص١١١.

ولله در شاعر الثورة حين يقول متفاخرًا بالأمير عبد القادر:

| | |
|---|---|
| وحمَّلْتَ ماريان ما لا تطيق | وجرَّعْتَ بيجو العذابَ المريرا |
| ثمان وعشرًا تخوض المنايا | وتجزي السرايا، وتبني المصيرا |
| وتدمغ بالعلم مَن جادلوك | فكُنتَ الضليع وكانوا الحميرا |
| وكم رامَ إغراءك العابثونَ | فلم تكُ غمرًا صبيًّا غريرا |
| وكم عاهدوك وكم أخلفوا | وكنت بما يضمرون بصيرا |
| وعبَّدت للشعب دربَ الفدا | وما خِستَ مذ خطفوك أسيرا |

ضاقت السبل بالأمير، ولم يكن أمام الأمير سوى قبول معاهدة التافنة في ٣٠ مايو ١٨٣٧م في ضوء معطيات خطيرة كانت تشير إلى إبادة جماعية لكل من يقف في وجه فرنسا. نصَّت المعاهدة بين الجنرال «بيجو» قائد القوات الفرنسية وبين الأمير عبد القادر على أحقية الحكم الذاتي لكلٍّ من فرنسا والأمير على الأقاليم الجزائرية، وممارسة الدين الإسلامي في أقاليم السيادة الفرنسية، والضرائب الواجب تسديدها على الأمير، وتنظيم عمليات اقتناء الأمير للبارود والكبريت من فرنسا، وممتلكات وتنقلات «الكول أوغلي»، وحرية التجارة بين فرنسا والجزائر، والتبادلات التجارية ...

وتم تعديلها بموجب اتفاقية مؤرخة في ٤ يوليو ١٨٣٨م.[٢] نظرًا لنكث العهود التي عُرفت بها فرنسا، أعلن الأمير عبد القادر الحرب مجددًا على فرنسا في ١٩ نوفمبر ١٨٣٩م؛ حيث قام الجيش الجزائري بهجمات مختلفة منظمة على إقامة الجيوش الفرنسية في منطقة وادي علاق بالمتيجة وقتلوا جميع مَن فيها (١٠٨ جنود وضباط).[٣]

أعلن قائد الجيش الفرنسي «بيجو» خوضَ حرب الإبادة ضد الجزائريين. ونظرًا لعنف المواجهة وقساوة الحصار، التجأ الأمير إلى المغرب الأقصى في أكتوبر ١٨٤٣م، لكنه فوجئ بتسليمه سجينًا من قِبَل سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن إلى القوات الفرنسية، وفرض عليه قبول شروط «لاموريسيير» سنة ١٨٤٧م.

[٢] ملحق رقم ٦ ص١٥٧-١٥٨.

[٣] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص١١٤.

سُجن الأمير لمدة خمس سنوات بسجن «أمبواز» في فرنسا، ثم أُطلق سراحه واستقر بدمشق إلى أن تُوفي — رحمه الله — يوم ٢٤ مايو ١٨٨٣م ودُفن بها. عند استقلال الجزائر، نُقل جثمانه بقرارٍ من السيد رئيس الجمهورية الراحل هواري بومدين — رحمه الله — إلى مقبرة العالية يوم ٥ يوليو ١٩٦٦م.[٤]

من أفدح المجازر البشرية التي وقعت آنذاك في حق الشعب الجزائري مجزرةُ غار الظهرة بتاريخ ١٩/٦/١٨٤٥م، على بُعد ٨٠ كم من مدينة مستغانم؛ حيث أُبيد أكثر من ألفٍ ومائتين من السكان الجزائريين اختناقًا بدخان الحرق على يد الكولونيل السفاح بيليسي بأمرٍ من المارشال Bugeaud، عندما احتمى السكان بهذه المغارة، ولم تُكتشف هذه المغارة إلا في ١٩/٦/٢٠١١م من قِبَل فريقِ بحثٍ أكاديمي من جامعة مستغانم.

## (٢) المقاومة الشعبية تخلط الحسابات الاستعمارية

### (٢-١) ثورة الحاج أحمد باي

تزعَّم أحمد باي قيادة قسنطينة، واستطاع جمع شتات الجزائريين على كلمة واحدة تقضي بالثبات وصد العدوان الفرنسي. لقي دعمًا من أهالي قسنطينة رغم أنَّه كوروغليا وحاكم في الحقبة العثمانية. حقَّقت الثورة الشعبية في الإقليم القسنطيني انتصارًا في سيدي مبروك على الجيش الفرنسي سنة ١٨٣٦م، فجهَّزت القوات الاستعمارية حملةً عسكريةً لإخضاع أحمد باي في ١ أكتوبر ١٨٣٧م بقيادة الجنرال «دامريمون» ورئيس الأركان «بيريقو».

لم تكن معركة قسنطينة سهلة المنال بالنسبة للجيش الفرنسي؛ فلقد تمكَّن الجيش الجزائري من القضاء على الجنرالين المذكورين، وعدد من ضباط وجنود الرتل الفرنسي، استعمل فيه أحمد باي المدفعية المتطورة، ولولا خيانة فرحات بن سعيد، حسب تقدير العديد من المؤرخين، لما سقطت قسنطينة في يد فرنسا، ولما أُجبر أحمد باي للانسحاب إلى الصحراء.

[٤] عمار بوحوش، مرجع سابق، ص١١٥. انظر الملحق رقم ٥، ص١٥٦.

غزا لاموريسيير أحمد باشا     فقمنا بسيرتا نصون الحمى
وثُرنا نقاوم: بيتًا فبيتا     وشبرًا فشبرًا ونُسبي الدمى
ولولا تخاذل بعض الكسالى الرَّ     عاديد لم نُفلت المجرما

أمضى الحاج أحمد باي عشر سنوات في ترحال دائم إلى أن استسلم للقوات الفرنسية في ٥ يونيو ١٨٤٨م، تُوفي — رحمه الله — بالجزائر العاصمة سنة ١٨٥٠م، ودُفن بزاوية سيدي عبد الرحمن.

للتمكُّن من التقرُّب من الأهالي وتتبُّع كل حركاتهم أقبلت فرنسا على إنشاء «المكاتب العربية» في محاولة منها لمد جسرٍ يربط الجزائريين بالفرنسيين ويكسب مودة رؤساء العشائر والقبائل. ظاهر المشروع أن تقيم فرنسا جهازًا إداريًّا يسمح بالترجمة، إلا أنَّ حقيقة الأمر هو مد استعماري في كامل الأوساط الشعبية.

أسَّس المكاتب العربية النقيب «لاموريسيير» سنة ١٨٣٣م، ثم طوَّرها بيجو Bugeaud سنة ١٨٤٤م.[٥] أُعطيت لهذه المكاتب سلطة التسيير المحلي وجمع الضرائب، وإحصاء السكان والأراضي، وجمع البيانات ذات الطابع الأمني والإشراف على تنفيذ الأحكام القضائية. تفاقم الوضع الأمني والاجتماعي جرَّاء توافد المعمرين، وسيطرة الجيش الفرنسي على السكان، واعتقال وتصفية كل رافض للوضع الاستعماري، وظهرت ثورات شعبية أخرى في نواحٍ مختلفة من الجزائر، نوردها باختصار:

## (٢-٢) ثورة أولاد سيدي الشيخ

قام بها الأعلى بن بوبكر بن حمزة:

بنو سيدي الشيخ قادوا النضالا     فهزوا الثرى وأذابوا الجبالا
سليمان حمزة آلى يمينا     فبرَّ وأصلى المغير الوبالا
سلوا بوبريت العقيد المسجَّى     وحمزة يغرس فيه النبالا

[٥] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٢٩.

ويستل من صدره روحه بيمناه يبكي عليه الثكالى
ووهران تصرخ فيها الدماء بساح الفدا تستفزُّ الرجالا

قاد سليمان بن حمزة معركة ضد جيش العقيد بوبريتر Beauprêtre، فهزمه ويروى أن القائد حمزة هو مَن قتله بنفسه.

### (٢-٣) ثورة محمد بن تومي شوشة

مؤسِّس حركة التوارق بالصحراء، تعاون مع ثورة أولاد سيدي الشيخ في الجنوب، في ٥ مارس ١٨٧١م هاجم حامية ورقلة فهزمها، وعيَّن عليها بن ناصر بن شهرة. في ١٣ مايو ١٨٧١م هاجم توقرت، وانتصر على قوات المحتل بها. اعتُقل في معركة مارس ١٨٤٧م، حوكم وصدر في حقه حكمٌ بالإعدام ونُفِّذ فيه — رحمه الله — بتاريخ ٢٩ يونيو ١٨٧٥م بقسنطينة.

وصحراؤنا وابن شهرة فيها يهيل على الغاصبين الرمالا
وجيش أبي شوشة المستميت بصحرائنا ينسف الإحتلالا

### (٢-٤) ثورة الزعاطشة

بقيادة عبد الرحمن بن زيان سنة ١٨٤٦م بمنطقة بسكرة.

وهبَّ الزعاطشة الثائرون فهبَّ لنصرتهم كل ثائر
تحدَّى ابن زيان سخف اللئام فمات الشهيد فداء الجزائر
وهل يُخفِض ابن الجزائر هاما ويحني جبينًا أمام الصَّراصر؟
لتشهدْ بسكرة إصرارنا وصدق ندانا أمام المجازر
وتَروِ النخيل لعقبة عنَّا وتَحْكِ الرمال صمود القساور

## (٢-٥) ثورة محمد الأمجد بن عبد الملك

ابتدأت ثورة محمد الأمجد بن عبد الملك، المعروف بالشريف «بوبغلة» سنة ١٢٦٧هـ:

ويذكر أبو معزة للجبال صراع أبي بغلة في المغاور
وتحفظ سطيف لأبطالها وأبطال سرتا جليل المفاخر
ودام الصِّراع ولم تخبُ يومًا شعاليله في القرى والحواضر
وكانوا البغاة فكنا المنايا وكانوا البغاث فكنا الكواسر

## (٢-٦) انتفاضة أولاد عيدون بالميلية

وقعت بداية من ١٥ فبراير ١٨٧١م في شمال قسنطينة.

## (٢-٧) ثورة لالة فاطمة نسومر

لما اعتُقل الحاج عمر شيخ الزاوية الرحمانية ونُفي إلى تونس، قادت زوجته «لالة فاطمة» الحركةَ بنفسها، وهي بنت الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية الرحمانية.[٦]

وتذكر ثورتنا العارمه بطولات، سيدتي فاطمه
يفجِّر بركانها جرجرا فترجف باريس والعاصمه
وخلَّد باسم أمها ذكره فزكَّى قداسته الدائمه
وفاضت دماء بني راتن تفدي قراراته الحاسمه
نسومر مُذ نسبوك لتاكلا رفضت التواكل يا فاطمه
وألهبت نارًا تذيب الثلوج وتعْصف بالفئة الظالمه

[٦] محمود شاكر، «التاريخ الإسلامي: التاريخ المعاصر، بلاد المغرب»، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٣٠.

وجند يُباع ويُشترى كما تُباع وتستأجر السائمه
وأرعفت راندون في كبره ودست على أنفه الراغمه
وصعرت للجنرالات خدا فخابت نواياهم الآثمه
أتنسى الجزائر حواءها وأمجادها لم تزل قائمه؟

استمرت ثورتها حتى ٢٠ ذي القعدة ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م.

## (٨-٢) ثورة المقراني والشيخ محمد أمزيان الحداد وبومرزاق

هاجم المقراني القوات الفرنسية المعتصمة ببرج بوعريريج في ١٦ مارس ١٨٧١م، واشترك المقراني والشيخ الحداد في معركة جبل تفارطاست في ١٢ أبريل ١٨٧١م.

وصوتُ ابن حداد دوَّى دويًّا ينادي: البدارَ، ويدعو: القتالا
ومِن آل مقران في الشاهقاتِ نسورٌ بَواشقُ تهوى النزالا

في ٥ مايو ١٨٧١م أثناء خوضه لمعركة بسور الغزلان ضد الكولونيل «تروملي»، هاجمه جنود الزواف فاستُشهد رفقة ثلاثة من رفقائه، ثم دُفن في قلعة بني عباس.

خاض بعده الشيخ الحداد المقاومة في منطقة القبائل إلى أن اعتقلته القوات الفرنسية بداية يوليو ١٨٧١م بقيادة الجنرال «لالمان». في ٨ أكتوبر ١٨٧١م خاض بومرزاق معركةً ضد الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال «سوسي» في ناحية بجاية، وانهزم فيها بعد مقاومة عظيمة.

وقال بومَرزاق حان الجهاد فحقَّق بالمعجزات المحالا

توجَّه إلى ورقلة للانضمام إلى بوشوشة وابن شهرة، غير أنه تاه وأُلقي القبض عليه في ٢٠ يناير ١٨٧٢م بواحة الرويسات، واقْتِيد بعدها إلى سجن كاليدونيا الجديدة وبقي هناك ٣٠ سنة، ثم تُوفِّي بها.[٧]

---

[٧] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٤٨.

شمل النفي إلى كاليدونيا ١٤٠ جزائريًّا في قضية استبدال الأحكام القضائية الصادرة عن محكمة الجنايات بقسنطينة في ١٩ رجب ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م القاضية بالإعدام في حق بومرزاق والسجن للبقية.[٨]

فيا آل مقران أسد الكفاح ونبع الندى، والهدى والصَّلاح
نهدتم تشقُّون دربَ الخلود فعبَّدتموا نهجه بالسلاح
وحَدَّاد في السوق ألقى عصاه وأعلنها في الذرى والبطاح
كمثل عصاي ... سألقي الفرنسيـ ـسَ في البحر، أركلهم بالرماح
سلام لمقرَان يمضي شهيدًا بسوفلات رمز الفدا والكفاح
ولابن الثمانين يغدو أسيرًا وما كبَّل القيد فيه الطماح
ومرحى لمالكِ يطغى بِشرْشا لَ برْكانه بالأماني الفساح

انتفاضاتٌ أخرى: الحسين بن أحمد الملقَّب بمولاي الشقفة، يحيى بن محمد، أولاد بن عاشور ...

## (٢-٩) ثورة الشيخ بوعمامة

الشيخ بوعمامة بن العربي بن التاج من قبيلة أولاد سيدي الشيخ التي ثارت على الاستعمار. تمكَّن رجال المقاومة في ٢٢ أبريل ١٨٨١م من إلحاق هزيمة بالقائد الفرنسي «واينبرينار» وبعدها انتصروا على بعثة الكولونيل «فلاتير». تُوفي — رحمه الله — في ٧ أكتوبر ١٩٠٨م.

فردَّدَ رجعَ صداهُ أبو عَمامة يدني حظوظ النجاح

[٨] محمود شاكر، «التاريخ الإسلامي: التاريخ المعاصر، بلاد المغرب»، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٣٢.

## (٢-١٠) ثورة الشيخ آمود

شيخ قبائل التوارق:

وهـقـار تـزهـو بـآمـودهـا يذود عن الشَّرف المستباح

## (٣) حملات التمسيح ... الفشل في استمالة الجزائريين

يظهر جليًّا أمر الروح الصليبية في احتلال الجزائر في أول تصريح لوزير الحربية الفرنسي (كلير مونت طونير)، حينما أعلن أمام مجلس الوزراء طالبًا من لويس العاشر في ١٤ أكتوبر ١٨٢٧م غزو الجزائر عقب حادثة المروحة: «إنَّ العناية الإلهية تستثأر جلالتكم للانتقام لقنصلكم (يقصد القنصل دوفال) من أعتى أعداء المسيحية (أي الداي حسين)؛ لذلك سيدي فإن العناية تدعو لأغراضٍ خاصةٍ ابن سان لويس (شارل العاشر) للانتقام في نفس الوقت للدين وللإنسانية، ومن سباب الداي ... وسوف نكون سعداء بمرور الزمن عندما نحضِّر الجزائريين بتصييرهم مسيحيين، وإن كان هذا الاعتبار غيرَ كافٍ للقيام بحرب فإنَّه سيكون على الأقل سببًا للسير بثقةٍ أكبر إلى النصر الذي تحضِّره العناية الإلهية لنا ... إنني أتوسَّل إلى جلالتكم باسم أغلى مصالح الوطن ... أن تعزموا على الانتقام للمسيحية وللسباب الذي تعرضتم له.»[٩]

عند الغزو الفرنسي، اصطحب دي بورمون ١٦ قسيسًا وعلَّق الصليب في أعلى بناية في القصبة بتاريخ ٦ يوليو ١٨٣٠م، وأُقيمت فيه الطقوس الدينية المسيحية في حفل كبير، بدأت في حينها عملية بناء الكنائس وتحويل المساجد إلى كنائس، واستقبال المبشرين المسيحيين على أرض الجزائر. قام كلوزي الذي خلَفَ دي بورمون بطلب مسجد من بلدية الجزائر لكي يُحوَّل إلى مسرحٍ، كما قام بتهديم ثلاثة مساجد، وصدر عنه قرار الاستيلاء على الأملاك الوقفية لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

استمرَّت مظاهر التنصير وتدنيس مقدسات المسلمين، وشُيدت كنيسة نوتردام الإفريقية سنة ١٨٥٨م، وحُوِّل جامع كتشاوة الذي بُني في العهد العثماني سنة

[٩] شاوش حباسي، «من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر ١٨٣٠–١٩٦٢»، دار هومه، الجزائر، ١٩٩٨م، ص١١.

١٠٢١هـ/١٦١٢م إلى كاتيدرائية؛ حيث قام الجنرال الدوق دو روفيغو قائد الحملة الفرنسية، عند قرار التحويل، بنصبِ الصليبِ، ورفعِ عَلم فرنسا المحتلة، وإحراقِ المصاحف الموجودة به في ساحة الشهداء.

بعد الإعلان عن تحويله إلى كنيسة «سانت فيليب»، أقام المصلون احتجاجًا، قُوبل بمجزرة رهيبة، ذهب ضحيتها المئات من الشهداء، سُمِّيت من يومها ساحة المجزرة بـ «ساحة الشهداء» تخليدًا لذكراهم. صلَّى المسيحيون فيه أوَّل صلاة مسيحية ليلة عيد الميلاد ٢٤ ديسمبر ١٨٣٢م، فتوافدت الهدايا والتبريكات من ملوك المسيحية وقدِّيسيها. وفي تاريخ ٤/١١/١٨٤٠م حُوِّل كذلك مسجد البليدة إلى كنيسة، واتسعت رقعة التمسيح إلى المضايقات التي سُلِّطت على الزوايا والمرافق الدينية الجزائرية. في إحدى حملات بيجو Bugeaud الهمجية على مدينة بوفاريك، اعتقل ٢٥٠ طفلًا وقدَّمهم إلى «الأب» برومو قائلًا: «إنَّهم يتامى لُقطوا في ساحة الوغى، ربُّوهم واجعلوهم مسيحيين.»[١٠]

كما أنَّ نشاط المسيحيين من أمثال دي فوكو كان كثيفًا وموجَّهًا خاصة إلى سكان الصحراء. في ردِّه على وفد المؤتمر الإسلامي الثاني الموفد إلى باريس، صرَّح رئيس الحكومة الفرنسي دلادييه Daladier بقوله: «ليس في إمكان فرنسا أن تمنح شعبكم حقوق المساواة مع الشعب الفرنسي ما دمتم متمسكين بشريعتكم الإسلامية، وأُعلِمكم أنَّ فرنسا لا تزال قوية، وأن مدافعها لا تزل طويلة المدى ...»[١١]

لقد أبان القرآن الكريم عن تلك الكراهية الدفينة المعادية لرسالة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ولَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُو الْهُدَى ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ ولِيٍّ ولا نَصِيرٍ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٢٠).

يقول مفدي زكريا في الإلياذة:

وجامع كتشاوة المستعاد … أما انفكَّ رمزًا لأجيالنا
يناجيه في النيل أزهارنا … فيستنجدون بأسلافنا

[١٠] شاوش حباسي، مرجع سابق، ص٢٥.

[١١] شاوش حباسي، مرجع سابق، ص٤٤.

دبورمون هل دام حقد الصليب؟ أنـالَ قـريـقـوار مـن بـأسـنـا؟
وهـل فتَّ فيـليـب فـي عزمـنـا؟ وحطَّ الـقـسـاوس مـن شـأنـنـا؟
وهـل نـابـلـيـون ومـن وسـمـتـه يـداه، اسـتـهـان بـإصـرارنـا؟

«استغل رجال الدين المسيحي المجاعة والأوبئة التي وقعت بين ١٨٦٧م و١٨٦٨م والتي راح ضحيتها نصف مليون جزائري، نتيجة قلة الأمطار، وفساد المحصول وهجوم الجراد، وصحب تلك المجاعةَ حدوثُ زلزال، ثم وباء الكوليرا والتيفوس، ونجحوا في جمع عدد من هؤلاء الأطفال الجزائريين في أديرتهم، ثم منحوهم مساحات صغيرة من أراضي وادي الشلف، وهذا أصل فرقة الآباء البيض الجزائريين التي كوَّنها المنسيير لافيجري Lavigerie.»[١٢]

وهل لافيجري وطول السِّنين اسـ ـتَطـاعـا الـمـروق بـأطـفـالـنـا

---

[١٢] نبيل أحمد بلاسي، «الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٢٦.

الفصل الثالث

# الحركة الوطنية الجزائرية

في عام ١٨٨١م أنشأت فرنسا نظام «الإنديجينا» الذي يحدِّد القوانين السارية المفعول على السكان الجزائريين. تقرَّر تعيين متصرف إداري Administrateur لضبط تنفيذ هذا النظام.

## حركة محمد البدوي

| | |
|---|---|
| سلوا ساحة الشهداء أمَا | بها قرَّر البدوي المآل؟ |
| ودوَّى بشرشالَ صوت النفير | وإن كان يبدو بَعيدَ المنال |

بالرغم من الإغراءات للحصول على الجنسية الفرنسية، فإن معظم الشعب الجزائري رفض هذا التجنُّس، وفضلوا حياة القهر بالجنسية الجزائرية على حياة الرفاهية في ظل الجنسية الفرنسية.

وهذا ما أكده الحاكم العام الفرنسي «فيوليت» في إحصاءٍ قدَّمه بين ١٩١٩م و١٩٢٥م بأنه لم يتقدم لطلب الجنسية إلا ٦٤١ فردًا.[١]

---

[١] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٠١.

## (١) النضال السياسي والإصلاحي

في خضم تعتيم وقهْر الجزائريين، نهض تيارٌ سياسيٌّ من المتعلمين في المدارس الفرنسية وتشكَّلوا في حركة «الشبان الجزائريين» للمطالبة بحق التمثيل والاعتراف بالشخصية الجزائرية، وشكَّلوا سنة ١٩٠٤م جريدة «المشعل». اتخذت النخبة الجزائرية موقفًا إزاء قانون التجنيد الإجباري الصادر في ١٩٠٨م والمطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا.

في سنة ١٩١٣م ضم قادة حركة «الشبان الجزائريين» بقيادة الشريف بن حبيلس جهودهم إلى الأمير خالد ابن الهاشمي — حفيد الأمير عبد القادر — لتصعيد احتجاجاتهم المطالِبة بالحقوق الكاملة لكل الجزائريين، وحق التمثيل في البرلمان الفرنسي.

وراودَ صدق الضَّمير الأمير فقام يلاحقُ طيف الخيال
ويعدو بـ «فرساي» خلف الوعود يُناشد «ولسون» فرض المحال

في سنة ١٩١٧م، شارك الأمير خالد في مؤتمر رابطة حقوق الإنسان الذي نُظِّم بفرنسا من قِبَل بعض المثقفين الجزائريين والتونسيين. لم يدُم نضاله السياسي طويلًا بسبب العراقيل التي وضعتها الإدارة الفرنسية أمامه، ثم الانتقال إلى مرحلة تزوير الانتخابات المحلية التي فاز بها سنة ١٩٢٢م. كان هذا العامل الأساسي الذي أدرك فيه الأمير خالد أنَّ فرنسا ليست راعية عهود، وأن الاندماج سياسةٌ ماكرة وخاطئة، ليست سبيلًا لحصول الجزائريين على حقوقهم المشروعة، وأنَّ الركود وراء تصريحات الرئيس الأمريكي «ولسون» في تقرير المصير سراب؛ بل وهمٌ لم يكن ليتحقق في ضوء التكتلات الغربية. رغم ذلك، نجد شاعر الثورة مفدي زكريا يرتِّب نضال الأمير خالد ضمن التجارب السياسة الممكنة للتعامل مع الاستعمار دون أن يبخس حقَّه في جهده من أجل حصول الجزائريين على حقوقهم.

تجاريبُ خالد مهما تكن فلم نكُ نغمط قدْر الرجال

قرَّر الأمير خالد ترك النضال السياسي الذي طالما نادى به وانسحب من الحياة السياسية. استقرَّ بسوريا، وعاش بها إلى أن تُوفي — رحمه الله — في ٩ يناير ١٩٣٦م، ودُفن بها.

فرضت فرنسا سياسة التمييز العنصري، وبدأت تظهر نتائج تطبيق قانون الإنديجينا على الشعب الجزائري في صور انتشار الفقر وعموم الجهل، وتفشي الأمراض المعدية. فضَّل الكثير من الجزائريين الهجرة إلى الخارج. لم تفتُر نار الاحتلال على الشعب الجزائري رغم دور شُبَّانه الذين جُنِّدوا قهرًا في صفوف الجيوش الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى في إطار ما يُسمَّى بالتجنيد الإجباري.

### (١-١) الذكرى المئوية للاحتلال

قرَّرت السلطات الاستعمارية الاحتفالَ بمرور قرنٍ من الزمان لاحتلال الجزائر، فجهَّزت لذلك عُدةً وعتادًا، وحظرت وفودًا أجنبيةً أخرى، وأُرغم الشعب الجزائري إرغامًا على المشاركة في تمويلها.

جزى الله عنَّا الشدائد خيرًا وذكرى احتلال الجزائر شكرا
وإن ننسَ ... هلَّا نسينا الجراح وما تزال الجراحات حمرآ
وإن آلمونا بمائة عام حفلنا بعيد الجزائر دهرا
وإن رقصوا فوق أشلائنا وأحيوا على مذبح الشعب ذكرى
رقصنا على نغمات الرصاص ورحنا نبث المقادير سرًّا

كانت الحركة الإصلاحية نشيطة في مواجهة تيار التغريب بقيادة زعماء جزائريين استطاعوا باندماجهم في الحركة الفكرية العربية المنتشرة في بلاد المشرق أن يُؤسسوا لنهضة فكرية شاملة، ولعل أبرز مناصر للقضية الجزائرية من زعماء الإصلاح السياسي الأمير شكيب أرسلان.

يقول مفدي زكريا:

وصوت شكيب يهزُّ الدُّنا فترجف منه النفوسُ السقيمة

تتلمذ الأمير على يد الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٦م. كان على علاقة بعائلة الأمير عبد القادر بسوريا. تحدَّث عن الأمير في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»، كان نائبًا عن حوران في المجلس العثماني ببرلمان اسطنبول. وفي اضطهاد جمال باشا لبعض زعماء

العرب، علَّق أرسلان أنَّ جمال باشا لم يرعِ حرمة جهاد والد الأمير علي — أي الأمير عبد القادر — وتشفَّع في الأمير عمر ابن الأمير عبد القادر فلم يُصغِ إليه وحكم بشنقه. وقال عن الأمير خالد إنَّه «على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر» وكان أرسلان على صلة بالأستاذ توفيق المدني منذ ١٩٢٣م.

أنشأ جريدة «الأمة العربية» باللغة الفرنسية في جنيف في مارس ١٩٣٠م، وكان على علاقة وطيدة بين الشيخ عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي والحاج بنونة وسعيد الزاهري ومصالي الحاج، وكان يناضل من أجل الوحدة العربية.[٢]

الشيخ أحمد سحنون — رحمه الله — أول مَن أبَّنَ شكيب أرسلان، وذكر نضاله من أجل العروبة والإسلام ومساهمته في القضية الوطنية.[٣] أُقيم حفل تأبين في ذكرى وفاة أرسلان بنادي الترقي سنة ١٩٤٧م، وحضر المناسبة الأستاذ محمد الحسن فضلاء — رحمه الله.[٤]

لم يتوقَّف النضال السياسي بفشل الأمير خالد، ولم تتلاشى سياسة الاندماج من مخيَّلة الجزائريين. حرك خيوط فكرة الاندماج، هذه المرة، بن جلول، ولكن سرعان ما تصدَّى له حزب «نجم شمال إفريقيا» وقرَّر عزله سنة ١٩٣٦م.

لئن مجَّ صوت السيوف الصقال — وأغفى صريرَ الرماح العوالي
فحربُ اليراع أعاد الصراع — يقود سراياه نجم الشمال
بأرض فرنسا يدُك فرنسا — وينذرُ ساستَها بالوبال

أخذ النضال السياسي بُعدًا آخر في التعامل مع الوضع الاستعماري. وكان للإبداع الفني دور هام في رفع الهمة للجزائريين من خلال نظم أول نشيد وطني للجزائر، نظمه بكل اعتزاز شاعر الثورة مفدي زكريا في ١٧ نوفمبر ١٩٣٦م عندما كان مناضلًا في «نجم شمال إفريقيا» ومطلعه «فداء الجزائر، روحي ومالي.»

---

[٢] أبو القاسم سعد الله، «أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر»، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م، ص١١٦.

[٣] العدد الأول من جريدة البصائر ٢٣ يوليو ١٩٤٧م بعنوان «حارس الشرق».

[٤] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص ١٣٥.

وقال الألى: ناصروا حزبنا    سنقضي على لعنة الاحتلال
وقال الذي خلَّدوا شِعره    فداء الجزائرَ روحي ومالي

أخذ «حزب الشعب الجزائري» بعد ذلك، بزعامة مصالي الحاج، زمامَ الريادة والقيادة ووقف ضد مشروع «بلوم فيوليت» المنادي بالاندماج:

إذا ما فيوليت ضلل قومًا    وغرَّ ضعاف العقول وأغرى
وخدَّر قومًا بمؤتمرات    فظنَّت سرابَ المتاهات نهرا
فللشعب حزبٌ يصون المبادئ    وشعبُ الجزائرِ بالناس أدرى

### (١-٢) جمعية العلماء المسلمين

جمعية جزائرية أخذت على عاتقها إصلاح الأمة، والتفكير في الخروج من مأزق الاستعمار الذي بات يقوِّض أركانَ الشعب الجزائري، ويهدم مقوماته ومقدَّساته. ترأَّسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقاد حركتها الإصلاحية، واتخذت الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي نائبًا له.

وُلد الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٨٨٩م بقسنطينة، تتلمذ على يد الشيخ حمدان الونيسي والتحق بجامعة الزيتونة. أصدرت الجمعية أول جريدة (المنقذ) في ٢ يوليو ١٩٢٥م، صُودرت من قِبَل السلطات الاستعمارية بدعوى المساس بأمن فرنسا وإثارة الفوضى. كانت المصادرة تلاحق كلَّ جريدة لها طابع إصلاحي، ومن ذلك جريدة «السنة» و«الشريعة المطهرة» و«الصراط».

تأسَّست جمعية العلماء المسلمين في ٥ مايو ١٩٣١م بالجزائر العاصمة، استقطبت جهود العديد من علماء ومفكري الجزائر، فازدادت قوةً إلى قوَّتها، وكان من بين أعضائها المؤسسين: الشيخ المبارك الميلي (أمين المال)، والشيخ إبراهيم بيوض (نائب أمين المال)، والطيب العقبي (أمين عام مساعد)، والشيخ الأمين العمودي (أمين عام)، والأستاذ أحمد توفيق المدني. ونورد على سبيل الذكر لا الحصر بعض رسائل الشيخ مبارك الميلي إلى الأستاذ توفيق المدني؛ لنستشف درجة التمسُّك بالوطنية والحرص على حماية مقوماتها.[٥]

---

[٥] انظر الملحق رقم ١٠.

أصدرت جمعية العلماء جريد «الشهاب»، ثم «الدفاع» في «البصائر»، وحاصرت سلطات الاحتلال الفرنسي نشاط الجمعية بدعوى التخفي وراء الدين من أجل مقاصد سياسية، وبث العداوة لفرنسا، والتحريض والتخابر مع قوًى أجنبية، كانت إشادة الإلياذة بها في المقطع ٤٤:

| | |
|---|---|
| وفي الدار جمعية العلماء | تُغذِّي العقول بوحي السماء |
| وتهدي النفوس الصراط السوي | وتغرس فيها معاني الإباء |
| تواكب نجم الشمال اندفاعًا | وتغمر أكوانه بالسَّناء |
| ويَعْضُد باديسَ فيها البشيرُ | فتزخر بالخلَّص الأصفياء |
| وتغزو الضلالات في التائهين | مع الوهم في موكب الأغبياء |
| وتُرسي جذور الأصالة في الشَّعـ | ـبِ تمحو بها وصمة الدخلاء |
| وتَبني المدارس عرض البلاد | فيُعلي ابن باديس صرح البناء |

طلب الشيخ عبد الحميد بن باديس بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٣٧م في رسالة إلى شيخ الأزهر مصطفى المراغي يطلب فيها منه قبول وفد جمعية العلماء المسلمين للتكوين في الأزهر.[٦]

تُوفِّي الشيخ عبد الحميد بن باديس — رحمه الله — في ١٦ أبريل ١٩٤٠م، واتخذت الجزائر من ذكرى وفاته محطةً تاريخية لتثمين العلم وترقية المعارف والعلوم.

وختم مفدي زكريا المقطع بـ:

| | |
|---|---|
| كذا عبَّد العلماءُ الثنايا | بوحي السماء، ووحي الدماء |

لم يقتصر نشاط جمعية العلماء على الجانب الدعوي والإصلاحي؛ بل تمدَّد إلى غاية النضال السياسي في خطوة منها لتكامل الجانبين، وأن كليهما يكمل الآخر، ومن ذلك استنكار الجمعية لقانون التجنُّس ومقاطعة البضائع اليهودية.

[٦] انظر الملحق رقم ٨.

انعقد بالجزائر العاصمة مؤتمرٌ يوم ٧ يونيو ١٩٣٦م، خرج بجملة من التوصيات والمطالب تمحورت جلها حول وجوب إلغاء القوانين الاستثنائية والولاية العامة، كما طالبت السلطات الاستعمارية بالحفاظ على الدين الإسلامي باعتباره مرجعًا لا بديل عنه للجزائريين، وضمان حرية تعليم اللغة العربية، وتعميم التعليم لكل شرائح المجتمع الجزائري، كما رفع المؤتمر مطلبًا يضمن تمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي ... انتقل وفد عن المؤتمر برئاسة بن جلول إلى باريس، ورُفعت المطالب إلى رئيس الحكومة الفرنسية «ليون بلوم» يوم ٢٣ يوليو ١٩٣٦م،[٧] كانت تلك المطالب سرابًا يحسبه الظمآن ماء، وصدق مفدي زكريا إذ يقول:

وخدَّر قومًا بمؤتمرات     فظنَّت سرابَ المتاهات نهرا
فللشَّعب حزبٌ يصون المبادئ     وشعبُ الجزائر بالناس أدرى

سبق انتقال وفد المؤتمر إلى باريس، بأيام قليلة تصريح مصالي الحاج خلال تجمُّع شعبي بالملعب البلدي للجزائر بتاريخ ١٤ يوليو ١٩٣٦م:

ويوليُوز والملعب البَلدي     وأحمد يعلن فيه الأذان
ويصعق فيه بصوت جديد     فيصعق منه العُتل الجبان

كانت الإدارة الاستعمارية وراء اغتيال مفتي الجزائر «كحول» في شهر أغسطس من سنة ١٩٣٦م، وأُلصِقت التهمة في عقب الشيخ الطيب العقبي بحكم انتمائه إلى جمعية العلماء المسلمين، وسوَّقت فرنسا لدعوى العداوة التي كانت بين المفتي والجمعية بهدف اعتقال الشيخ الطيب العقبي، وتصدُّع وحدة الصف الوطني. واعتبر مصالي أن هذا الاغتيال سذاجة من الجمعية، وقد تنسف بـ «إنجازات النضال السياسي».

ولاذت فرنسا بأصنامها     تحاول بالدَّس كسبَ الرهان
فتغتال كحول تلقي دماه     على الطيب الواسع الصولجان

[٧] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٦٠.

لئن خاننا الدهرُ في طيب ... وأصغى مصالي لغدرِ الزمان
فلن يجحد الفضل تاريخنا ... وهذي الدُّنا للرجال امتحان

انعقد مرةً أخرى مؤتمرٌ كذلك في ٧ يوليو ١٩٣٧م لكنه لم يحقِّق أي نتيجة.

بدأت فكرة إنشاء دولة مستقلة بعيدة عن أي طرح إدماجي تراود التيار الوطني. قال فرحات عباس لمصالي الحاج: «لقد كنت ضدك، أدافع بحرارة عن الاندماج ووقفت ضدك، لقد أثبتت الأحداث أنك كنت على صواب، وكنت أنا على خطأ، اليوم أعترف لك بأنني سأتبع خطاك.»[٨]

اعتبر الحاكم العام «كاترو» فكرة استقلال الجزائر إهانةً لفرنسا، وقال: إنَّ الجزائر «جزء لا يتجزأ عن فرنسا، وأنه لا يقبل أن تكون النقاط المقترحة من طرف الجزائريين قواعد للعمل والتفاوض.» وكان جوابه على موقف فرحات عباس والسائح عبد القادر اللذين قاطعا رفقة زملائهما مداولات المجلس المالي، استصدار أمر القبض عليهما بتهمة العصيان والتحريض.

أفاق من الوهم حزب البيان ... فأسلم للمخلصين العنان
وزايله الشَّكُ في أصله ... فمدَّت لحزب البيان اليدان
وأوحى اندماج فرنسا اندماجًا ... لحزبين مرماهما توأمان
فبارك باديسُ جمعَ الصفوف ... ودشَّن باديسُ عهد الأمان

فور إفراج السلطات الاستعمارية عن فرحات عباس في ديسمبر ١٩٤٣م، التحق مجددًا بالنضال السياسي وأنشأ حركة «أصدقاء البيان والحرية» في ١٤ مارس ١٩٤٤م، ضمت كلًّا من جمعية العلماء المسلمين، والحزب الشيوعي الجزائري، وحزب الشعب، ولاحت في الأفق بوادر مطالبة بإنشاء حكومة مؤقتة، وتحرير دستور جزائري، وإلغاء نظام الاستعمار، وإنشاء نقد وطني جزائري.

---

[٨] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٣٧، عن بن جامان ستورا في كتابه «مصالي الحاج» الصادر بفرنسا سنة ١٩٨٢م.

كان الظرف الذي ساد الحكم الفرنسي آنذاك مساعدًا لطرح بدائل في صالح الجزائريين، اهتدى «البيان» فيها إلى كسب مودة فرنسا واستعطافها السعي لمساعدة الجزائريين للقوات الفرنسية في حربها ضد الألمان.

### (١-٣) مجازر الثامن مايو ١٩٤٥م

انتصر الحلفاء فخرج الشعب الجزائري عن بكرة أبيه مبتهجًا بالنصر الذي اعتقد فيه وفاء فرنسا بوعدها في حصول الجزائر على استقلالها، لكن كانت الفاجعة أكبر مما تصوَّر العالم؛ مجازر رهيبة لم يسبق للبشرية أن شهدتها، جرت بداية من ٨ مايو ١٩٤٥م، تحوَّلت فيها المسيرات السلمية إلى مجزرةٍ بكل مقاييس الجبن والحماقة في حق الشعب الجزائري، استُشهد فيها ٤٥ ألفًا من الجزائريين، ثم حلَّت على إثرها كلَّ الأحزاب السياسية، وألقت القبض على الزعماء السياسيين.

ولم ننسَ في أربعين وخَمس ضحايا المذابح في يوم نحس
طربنا مع الحلفاء اغترارا وقمْنا نصفِّق في غير عرس
فكانوا مع الغدرِ عونًا علينا ودرسًا لقادتنا أي درس
وكانت مجازرهم بسطيف وقالمة للشعب، دقَّات جرس

بات يقينًا بعد هذه المجاز أنَّه لم يَعُد للمراوغات السياسية سبيلٌ يخلص هذا الشعب من قيد الاستعمار، وأن كل نضالها السياسي لم يَعُد إلا وهمًا وحلمًا.

وكانت تلاحق أقلامُنا سرابَ الضياعِ فباءت ببخس
وكانت تُكافح أحزابُنا مع الوهم، بين صراخٍ وهمس
فعطَّل صوت الرصاص اللُّغى وأنطق ألسنةً غيرَ خُرس
فقامت تعبِّد أكبادُنا طريقَ التخلُّص من كل رجس

اعتُقل الشيخ البشير الإبراهيمي عقب المجزرة، ثم أُطلق سراحه بموجب عفوٍ عام.

استمرت جمعية العلماء في نشاطها بنضال ومؤازرة من الأستاذ الفضيل الورتلاني، والشيخ العربي التبسي، والشيخ محمد خير الدين، والأستاذ أحمد توفيق المدني.

### (٢) العمل المسلح ... التنظيم، الانطلاقة ثم التفاوض

في ١٥ فبراير ١٩٤٧م خلال المؤتمر الأول لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، تقرَّر تكوين «المنظمة الخاصة»، وهي منظمة شبه عسكرية بقيادة محمد بلوزداد أُوكلت لها مهام جلْب الأسلحة والتحضير للعمل المسلح، شارك فيها كلٌّ من السادة: حسين آيت أحمد، بلحاج جيلالي، أحمد بن بلة، محمد بوضياف، رجمي الجيلالي، أحمد محساس، محمد ماروك.[٩]

| | |
|---|---|
| وما الانتصار دخول انتخابٍ | وضرْب الموائد، ضربًا شديدا |
| ولا كلمات على جدرانٍ | هل الحِبرُ في الحرب كان مفيدا؟ |
| ولا بالهُتافات عاش ويحيى | فما حرَّر القولُ يومًا عبيدا |
| ولا بالوفود ... وسمع فرنسا | أهال عليه الغرُور الصَّديدا |
| ولن يغسل العارَ إلا الدما | وعاش الحديد ... يفل الحديدا |

كان تأسيس المنظمة الخاصة نهايةً حتميةً لأي حسم عن طريق الخطابات والتنديدات والانتخابات، وبدايةً لعهد جديد لا يفلح فيه إلا النفير والدخول في ثورة عارمة ضد المستعمر الغاشم. غير أن انكشاف هذا التنظيم سنة ١٩٤٩م بالمنطقة الشرقية من البلاد، أدَّى إلى تقييدِ العمل المسلَّح، ووضعِ كل الناشطين تحت الرقابة البوليسية.

| | |
|---|---|
| وطالت خرافات حرب الكلام | وما بلغ الشعبُ فيه المرام |
| فآمن بالنار مَن عرفوها | ومَن كاشفتهم بسرِّ النظام |
| إلى أربعين وتسعٍ سلامي | وقد بلغ الشعب فيها الفطام |
| فكانت شرارة حربَ الخلاصِ | وإن أخفتوها بلغوِ الكلام |

[٩] عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٢٠، عن «جبهة التحرير الوطني: السراب والحقيقة» لحربي.

أشاد مفدي زكريا في الإلياذة بذلك الرعيل الأول من المجاهدين والمناضلين في الأحزاب السياسية والشهداء، في التفاتةٍ طيبة مباركة لتضحياتهم الجسام في سبيل إنهاء الاحتلال ونيتهم للحصول على الاستقلال، وذكرَ منهم: عمر عيمش، أرزقي كحال، رابح موساوي، إبراهيم غرافة، حسين عسلة، محمد طالب، محمد دوار …

رعى الله عيمش في الخالدين ... وكحَّال في السَّابقين الكرام
ورابح تَعْبَق أنفاسُهُ ... وغرَّافة الوطني الهمام
وعسْلة يندبهُ طالبٌ ... فيلحقه بعد مرِّ السقام
ودوَّار يستقبل الشهداء ... ومَن أخلصوا للوفاء والذمام
هُم الثائرون الألى ولدوا ... نوفمبر من صلبهم فاستقام
متى نزلت ثورةٌ من سماء ... نزول المسيحِ عليه السلام؟

بعد وفاة محمد بلوزداد — رحمه الله — في ١٤ يناير ١٩٥٢م خلَفه السيد حسين آيت أحمد. ولتفادي عزلة العمل الثوري على العالم، قام زعماء المنظمة بتأسيس مكاتب اتصال بالقاهرة وتونس وبغداد والرياض؛ لإيجاد متنفَّس تتفادى به الثورة خطر الاختناق.

بغية إسماع صوت الجزائر في الأمم المتحدة قام الشيخ البشير الإبراهيمي بزيارةٍ إلى محمد فاضل الجمالي في سنة ١٩٥١م عندما كان شاغلًا لمنصب نائب رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة. كان هدف الإبراهيمي وضعَ القضية الجزائرية في جدول أعمال منظمة الأمم المتحدة، ولم يكن بيان جمعية العلماء المسلمين إلى الجامعة العربية في ٦ يناير ١٩٥٤م إلا قيمةً مضافة لحصول الجزائر على مساندةٍ تقيها خطورة العزلة.

## (٢-١) التحضير لاندلاع الثورة

شهدت الساحة السياسية بين المناضلين انشقاقًا بين المركزيين والثوريين لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، أسفرت في بادرة للمِّ الصفوف عن إنشاء «اللجنة الثورية للحرية والعمل» في شهر مارس ١٩٥٤م. وفي ٢٥ يونيو ١٩٥٤م، اجتمع الأعضاء الـ ٢٢ من المناضلين الذين آلوا على أنفسهم عناء الثورة المسلحة.

### (٢-٢) المنظمون الرئيسيون

ديدوش مراد، والعربي بن مهيدي، ومحمد بوضياف، ومصطفى بن بولعيد، ورابح بيطاط.

### (٢-٣) الممثلون لمنطقة العاصمة

محمد مرزوقي، وعثمان بلوزداد، والزبير بوعجاج، وغلياس دريش.

### (٢-٤) الممثلون لمنطقة البليدة

سويداني بوجمعة، وأحمد بوشعيب.

### (٢-٥) الممثلون لمنطقة وهران

عبد الحفيظ بوصوف، ورمضان بن عبد المالك.

### (٢-٦) الممثلون لمنطقة قسنطينة

زيغود يوسف، ولخضر بن طوبال، ومحمد مشاطي، وعبد السلام حباشي، وعبد القادر العمودي، ورشيد ملاح، والسعيد بوعلي، وعمار بن عودة، ومختار باجي.

انتُخب محمد بوضياف مسئولًا وطنيًّا، وخلصت المشاورات بين أعضاء لجنة الـ ٢٢ وبين كريم بلقاسم إلى ضرورة تضافر الجهود، وتوحيد العمل المسلح وتنظيمه عبْر كامل التراب الوطني، وتقرَّر إلغاء كل الأحزاب والتكتلات الوطنية، والانضواء تحت «جبهة التحرير الوطني» الناطقة الوحيدة والرسمية باسم الشعب الجزائري، وتسمية المنظمة العسكرية بـ «جيش التحرير الوطني».

جمعنا لحرب الخلاصِ شتاتًا　　　سلكنا به المنهج المستبينا

تقرر أيضًا تحديد تاريخ انطلاق الثورة التحريرية في الفاتح من شهر نوفمبر، وتوزيع المهام عبْر مناطق الوطن، ولتفادي تداخل الصلاحيات، أُعطيت أولوية الداخل

على الخارج والعمل السياسي على العسكري في اتخاذ القرارات السيادية. أُذيع بيان أول نوفمبر عبْر أمواج «صوت العرب» من القاهرة.

ضبط الأستاذ أحمد توفيق المدني لقاء مع الشيخ عمر دردوز[١٠] في أكتوبر ١٩٥٤م، تم التحضير فيه لاجتماع المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين، وعليه تم الإعلان عن مساندة الجمعية لاندلاع ثورة التحرير تحت قيادة جبهة التحرير الوطني، ودعوة كل الجزائريين للمشاركة فيها، كان يومها الشيخ البشير الإبراهيمي في القاهرة، فقام بمعية الفضيل الورتلاني بإصدار بيان للشعب الجزائري حثَّ فيه الشعب الجزائري للانضمام إلى الثورة، استمر الوضع متأزمًا إلى أن قامت ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م وفق القواعد والمبادئ المنصوص عليها في بيان أول نوفمبر.[١١]

تـأذَّن ربـك لـيـلـة قـدرٍ ... وألقى السِّتار على ألف شهر
وقال له الشعب: أمرك ربي! ... وقال له الرب: أمرك أمري

وقال:

نوفمبر غيَّرت مجرى الحياة ... وكنتَ نوفمبر مطلع فجر!
وذكَّرتنا في الجزائر بدرًا ... فقمنا نضاهي صحابة بدر

وقال:

نوفمبر جلَّ جلالك فينا ... ألست الذي بثَّ فينا اليقينا؟
سَبحنا على لُججٍ من دمانا ... وللنصر رُحنا نسوق السفينا
وثرنا، نفجِّر نارًا ونورًا ... ونصنعُ من صلبنا الثائرينا!

[١٠] الشيخ عمر دردور، عالمٌ ومجاهدٌ عضوٌ في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وُلد سنة ١٩١٣م في قرية حيدوس بدائرة ثنية العابد، نشط في منطقة الأوراس، لُقِّب بنبراس جبال الأوراس وباديسها، تُوفي — رحمه الله — سنة ٢٠٠٩م، ودُفن في تازولت (على سبيل الإشارة، رسالة الشيخ البشير الإبراهيمي إليه في الملحق رقم ٩، ص١٦١).

[١١] انظر الملحق رقم ١١، ص١٦٥.

ونُلهم ثورتَنا مُبتغانا    فتلهم ثورتُنا العالمينا
وتسخر جبهتُنا بالبلايا    فنسخر بالظلم والظالمينا

كان أثر العمليات العسكرية الدقيقة على ثكنات العدو والاستيلاء على أسلحة وجلبها من تونس والمغرب والقاهرة، قويًّا على فرنسا، أربك قوَّاتها وزاد من عزيمة صفوف الثورة الجزائرية.

لم يكن رد القوى الاستعمارية على اندلاع الثورة، وانتشار الهجمات العسكرية غريبًا من فرنسا؛ فلقد أعلن رئيس الحكومة الفرنسية منديس فرانس أمام الجمعية الوطنية بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٥٤م توعُّده بالقضاء على هذا «التمرُّد» ورفضه لأي تفاوض مع «المتمردين». أما وزير الداخلية الفرنسي فرانسوا ميتران، فقد وصف إعلان الثورة بـ «العمل الإرهابي» وهدَّد الجزائريين يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٤م بإعلانه الحرب عليهم.

استعملت فرنسا في قمعها للثورة الجزائرية، القتل الجماعي والاغتيالات والتدمير الشامل للقرى والمداشر، والاعتقالات العشوائية والمحاكمات الجائرة، وسلَّطت القهر والتعذيب والتنكيل بكل فئات الشعب.[١٢] صدر قانون الأحكام العرفية بتاريخ ٣ أبريل ١٩٥٥م، وتم بموجبه نقل السلطات القضائية والتنفيذية إلى الجيش.

## (٧-٢) هجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م

كان لهجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م الذي قاده زيغوت يوسف على الشمال القسنطيني الأثرُ البالغ على قوات الاستعمار وعلى سياسات القمع والاندماج، وأعطى دفعًا للثورة الجزائرية.

سكِيكَدة الثائرينَ أعيدي    علينا فضائح باغٍ حقودِ
أغسطس عشرون ... لم يَنسَها    ويذكرها ألفُ ألفٍ شهيدِ
وخمسٌ وخمسون في الذكرياتِ    جلالٌ ... يهدهد صدر الوجودِ
وعطرٌ للمذابح في ساحِها    نوافِج تُلهم سِفر الخلودِ

[١٢] صورة فوتوغرافية لمشهد من مشاهد الإهانة والتعذيب، الملحق رقم ١٥، ص١٦٩.

أما سياسة «سوستيل» التي أراد بها فصل الثورة عن الشعب فلم تُجدِ نفعًا، وإنشاؤه في ٢٦ سبتمبر ١٩٥٥م «أقسامَ العمل المتخصص» SAS في الأرياف لاحتوائها، لم يزد الشعب الجزائري إلا تمسكًا بثورته.

| | |
|---|---|
| أَنَنسى ثلاثة أيام نحسٍ | وسوستالُ يندب في النائحين |
| وأخضرُ يحصد حُمْرَ الحواصـ | ـلِ فيها، ويقطع منها الوتين |

## (٢-٨) مؤتمر الصومام ٢٠ أغسطس ١٩٥٦م

استضافت الولاية الثالثة مؤتمر الصومام، وقام العقيد عميروش بتجنيد ٣٠٠٠ جندي لحماية المؤتمرين من أي هجوم فرنسي مفاجئ،[١٣] وانتهت أشغاله يوم ٥ سبتمبر ١٩٥٦م. خرج المؤتمر بترتيبات استراتيجية وهامة في مسار الثورة، كان أهمها: إنشاء تنظيم قائم على تقسيم التراب الوطني إلى ست ولايات، كل ولاية إلى مناطق، وكل منطقة إلى نَواحٍ ثم قسمات، وتنظيم الجيش في شكل كتائب وفرقٍ وأفواج.

وُضعت اللبنات الأولى لمجلس وطني للثورة الجزائرية، كما تعزَّز اعتبار جبهة التحرير الوطني الهيئة السياسية الرسمية الوحيدة المخولة لأي تخطيط أو قرار يخص الشأن الوطني.

| | |
|---|---|
| تباركَ واديك صُومَامُ إنَّا | حفظنا عهودكَ أيَّان ثُرنا |
| أصُومَامُ باسمِك، صمَّم شعبٌ | سياسةَ ثورته فانطلقنا |
| وجلجل صوتُك بين الجبالِ | يبارِكُ وحْدتنا، فالتحمْنا |
| كأنَّ لخمسٍ وخمسينَ نجوى | لسِتٍّ وخمسينَ يومَ اجتمعنا |
| وأصغى لنا المجمعُ الدوليُّ | الأصمُّ، وأرهف للسمع أُذنَا |
| رأينا السياسة دربًا طويلًا | فلذْنا بساح الوغى، فاختصرنا |
| وقـرَّر صـومـامُ أهـدافـنـا | فسِرْنا على هديها، فانتصرنا |

[١٣] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٩٣.

انتشرت الثورة الجزائرية في ربوع التراب الوطني، واتخذت فرنسا من سياسة عزل الثورة أسلوبًا لقطع الدعم وتكميم الأفواه. زرعت حكومة «بورجيس مونوري» الأسلاك الشائكة المكهربة والملغمة على الحدود الغربية والشرقية فأوقعت ٦٠٠٠ شهيد والعديد من الإصابات المؤدية للبتر والإعاقات.

اعتُقل في سنة ١٩٥٦م الشيخ العربي التبسي، ولم يُعرف إلى يومنا هذا مكان اعتقاله أو دفنِه — رحمه الله.

وتــقــفــو تــبــسـةُ آثــارهــا    تباركها هبوات العصُورِ
ويدفعها العربيُّ التِّبَسِّي الشَّـ    ـهيد، فتحتلُّ عرش النسورِ
ويُجري العلومَ بأوصالها    حيَاة أصالتها في الجذورِ
على العربي الشَّهيد، صلاةٌ    مـضَـرَّجـةٌ بـدمـاءٍ، ونُـورِ

بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦م، حوَّلت الطائرة المغربية المقلَّة للزعماء الخمسة المتوجهين لحضور مؤتمرٍ بتونس؛ حيث أُودعوا السجن بفرنسا إلى غاية مارس ١٩٦٢م.

تعددت أطياف الثورة وتنوَّعت أساليب احتجاج الشعب الجزائري، وبات ضروريًّا رفع درجة الضغط على فرنسا الاستعمارية بالإضراب سنة ١٩٥٧م.

قال مفدي زكريا:

وجُنَّت فرنسا لإضراب شعبٍ    فعاثت بعرض البلاد فسادَا
بكت، فضحكنا ... وقال الزمانُ:    تبارك شعبٌ تحدَّى العنادا

وقال أيضًا:

وكم عاش طلابُنا حربنا    وقاسم تجارنا خطبنا
وعمَّ النِّضالُ وفاض النَّوالُ    فَشِدنا بهذا، وذاك، البنآ
ومن عَرق الكادحين صنعنا    مصائرنا، فبهرنا الدُّنا
ومن نَصَب الزارعين غرسنا    مشاتلنا، فقطفنا الجَنَى

صادق البرلمان الفرنسي في ١ يونيو ١٩٥٨م على تعيين ديغول رئيسًا للحكومة الفرنسية، وخوَّل له كامل السلطات وركَّزها بيده، دون إخضاع سياسته المسلطة على رقاب الجزائريين لأي رقابة شعبية.

انتُخب رئيسًا لفرنسا في يناير ١٩٥٩م، وصار من الأكيد بعد عدم قدرته على إخماد الثورة البحثُ عن سبلٍ ودية للمصالحة والتفكير في أي مشروع يؤدي إلى وقف التصعيد. أعلن ديغول، لتحقيق ذلك مشروعًا اجتماعيًّا في ٣ أكتوبر ١٩٥٨م أطلق عليه مشروع قسنطينة لكسب ثقة الشعب الجزائري ومحاولة عزله عن الثورة.

بدأ الصف الفرنسي يتصدَّع وظهرت أزمةٌ بين «سالان» وديغول، وتكتَّلت ضد ديغول كل التيارات الداعمة لفكرة «الجزائر فرنسية».

## (٢-٩) مظاهرات ١١ ديسمبر ١٩٦٠م

كان لإلقاء الثورة في الشارع واحتضانها من طرف الشعب الأثرُ البالغُ على السياسة الاستعمارية، وفضْح جرائمها أمام الرأي العالمي. إثر المطالب المتعددة لتقرير المصير، خرجت مسيرات حاشدة للجزائريين في مظاهرات بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٦٠م، فقُوبلت بقمع المشاركين والتنكيل بالداعين إليها.

فيَا عامَ ستِّين قُصَّ علينا فضائح جيشٍ يذوب غليلَا
ويا زارعَ الموتِ في أرضهم هُمو زرعوا، فأقمْنا الدَّليلا

## (٢-١٠) مظاهرات ١٧ أكتوبر ١٩٦١م

وكم ألحقوا بالمهاجر ذُلًّا فذاق العذاب الأليم الوبيلا
سَل السينَ كم قذفوا من ضحايا؟ وكم صنعوا المذهل المستحيلا
وسَل في المناجمِ كم من قتيلٍ أهالوا عليه التراب الثقيلا
وكم في سجون فرنسا بريءٌ من الدَّاء والغدرِ عاشَ عليلا
هو الحقدُ طيَّر صبر الرَّصاصِ فألهب منه القصاص الفتيلا

بعد استفتاء شعبي ٨ يناير ١٩٦١م في فرنسا والجزائر كان لصالح تقرير المصير في الجزائر بدأت المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، وهو نفس التاريخ الذي حُلَّ فيه الاتحاد العام للطلبة المسلمين واعتُقِل أعضاؤه.

## (٢-١١) المفاوضات

٢٠ مايو ١٩٦١م مفاوضات بين الوفد الجزائري: «كريم بلقاسم، وأحمد بومنجل، وسعد دحلب، وأحمد فرنسيس، وقايد أحمد، ومحمد الصديق بن يحيى، وعلي منجلي»، والوفد الفرنسي: «لويس جوكس، وبرنارد تريكو». وقد شهدت «منظمة الجيش السري» سنة ١٩٦١م اغتيالات في صفوف مناضلي جبهة التحرير والمتعاطفين مع ديغول.

بعد مصادقة المجلس الوطني للثورة بطرابلس في ٢٧ فبراير ١٩٦٢م على أرضية المفاوضات بين الوفدين الجزائري والفرنسي، تقرَّر الشروع في المفاوضات يوم ٧ مارس ١٩٦٢م بإيفيان، توصَّل الجانبان إلى اتفاقٍ يسري مفعوله بداية من يوم ١٩ مارس ١٩٦٢م:[١٤]

- إطلاق سراح المساجين خلال ٢٠ يومًا من اتفاق وقف إطلاق النار.
- يبقى الجيش الفرنسي في الجزائر لغاية يوم تقرير المصير.
- إنشاء حكومة تنفيذية.
- يختار الجزائريون بين الاستقلال التام أو الارتباط بفرنسا.
- احتفاظ الفرنسيين الذين يريدون البقاء في الجزائر بين الجنسية الفرنسية والجنسية الجزائرية.
- احتفاظ الأوروبيين بأملاكهم في الجزائر.
- مصالح فرنسا في الصحراء تبقى مضمونة لمدة ٥ سنوات.
- تبقى القاعدة العسكرية بمرسى الكبير مؤجرة لفرنسا لمدة ١٥ سنة.

[١٤] انظر الصفحة الرئيسية لجريدة «الفيقارو» الفرنسية: الملحق رقم ١٣، ص١٦٧.

أتى أمرنا صارخًا فانطلقنا ولُذْنا بوحدتنا فانعتقنا
وفاوضَنا القومُ في أمرنا وأمْرِ سيادتنا ... فرفضنا
وقالوا: سنُجري عليها اقتراعًا بلا ونعم — خدعة — فاعترضنا
فرنسا ... تناسيتِ ما ليس يُنسى أمَا في نوفمبر ... كنا اقترعنا
وأجرى علينا الرصاص انتخابًا وخضَّب أوراقنا فانتخبنا؟
وقلنا وقالت لنا الكائنات خذوا حِذْركم واثبتوا فثبتنا
فلم نكُ نرضى بنصفِ الحلول ولا بالدومنيون نحن انخدعنا
وديغول ألقى بيادقهُ فطاولها رُخُّنا فانتصرنا
وخاف الحواجز تحمي الغلاةَ وتبكي فرنسا لها فضحكنا
وفكَّر ديغول في حمقهم وفي صدْقنا ... ثم قال: «فهمْنا»

في يوم ١ يوليو ١٩٦٢م أُجري الاستفتاء، عبَّر ٦ ملايين جزائري عن رأيهم في الاستقلال التام:٥٩٥١٥٨١ صوتًا بنعم، و٥٣٤١٦ معارضًا.[١٥]

## (٢-١٢) التفاتة طيبة لدور الحيوان إبان ثورة التحرير

سخَّر الله تبارك وتعالى الحيوان للإنسان في حِله وتَرحاله وحمل أثقاله، يقول تعالى في سورة النحل: ﴿والْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ * ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ * وتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الآيات: ٥–٨).

على نهج القرآن الكريم، عدَّد مفدي زكريا مناقب الحيوان إبان الثورة التحريرية، ودوره الدقيق في نقل السلاح، وحرق مزارع المعمرين، وتضليل العدو، وفي السكوت عن إصدار أصواته إذا تعلَّق الأمر بسلامة المجاهدين.

[١٥] عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٦٠. ورقة التصويت، الملحق رقم ١٤، ص١٦٨.

إذا الشِّعر خلَّد أُسْد الرهان　　أَينْسى مغامرةَ الحيوانْ؟
أينسى البغال أينسى الحميرَ　　وهل ببطولاتها يُستهان؟
سلامٌ على البغل يعلو الجبال　　ثقيلًا فيكبره الثقلان
وعاش الحمار يُقلُّ السلاح　　ويغشي المعامع ثبتَ الجنان
وبارك فأرًا يوزِّع نارًا　　فيخْلعُ بالرعب قلب الجبان
ويلقى الشهادةَ شهمًا كريمًا　　وقد عاف ذلَّ الشقا والهوان
وطُوبى لعنزٍ يضلل جندًا　　ويخدعُ أحلاسهُ بالأمان
وللكلب يهجر طبع النباحِ　　ويهوى النَّميمةَ بالطيران
فلولاك يا حيوان الفدا　　لما أحرزَ الشعبُ كسبَ الرهان
بذكراكَ تعتزُّ إليادتي　　فأزكى التحيات يا حيوان

ومن طرائف الشاعر مفدي مع الحيوان، هجاؤه لحِمار الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أسقطه من على ظهره بنظمه لأبياتٍ في مأدُبةٍ أُقيمت على شرفِ المشاركين في المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقية المسلمين بتاريخ ٨ أكتوبر ١٩٣٥م:[١٦]

يا حمارَ الشيخ لا نلْتَ المنى　　أُبْتَ بالجوعِ والضربِ الوجيع
كيف أسقطتَ على الأرض امرأً　　وهو ذو قدْرٍ على الأرضِ رفيع
تتمنَّى الشمسُ لو تغدو لهُ　　كحمار هادئ الظهر وديع

## (٣) الاستقلال الوطني

ويُعلن الاستقلال مدويًا في سماء الجزائر معلنًا الخلاص من ربقة الاستعمار، ومبشرًا بغدٍ ينعم به الجزائريون في كنف الحرية على مبادئ مقومات الأمة الأساسية الني ضحت من أجلها القوافل من خيرة هذا الشعب الأبي، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وهُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١١٥) اقتبس صاحب

[١٦] مفدي زكريا، «أمجادنا تتكلم»، مؤسسة مفدي زكريا والوكالة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص١٣٦.

الإليانة من هذه الآية الكريمة حقيقةً أزلية وسُنَّة كونية، مفادها أنَّ بعد العسر يسرًا، وأن مَن جدَّ وجَد، وأنَّ مَن قام دون حقِّه مدافعًا ومطالبًا ومضحيًّا كان على الله نصره على أعدائه.

فـرضـنـا إرادتـنـا الـفـارعـه ولـم تـخْـبُ نـيـرانـنـا الـدالـعَـه
وصُغنا مصائرنا بالرَّصاصِ وبـالـرأي والـحـجـةِ الـقـاطـعـه
وتمَّت بها كلماتُ الإله الَّـ ـتي وقعت باسمها الواقعه
ولاحَ الخلاصُ بحُلم الليالي تـرفـرف أعـلامـه الـلامـعَـه
ودوَّى نشيد الجزائر يغزو الدُّ نـا قـسـمًـا بـالـدمَـآ الـنـاصـعَـه[17]

بدأت ثورة البناء والتشييد مستلهمةً قواعدها وسياساتها وأهدافها الاستراتيجية من بيان أوَّل نوفمبر الذي أسَّس لمشروع دولةٍ مستقلة تُحفظ فيه الحقوق وتُصان الواجبات، ويُحقق فيها النمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

وقمنا نُشيد صرحَ البلادِ ونبني سيادتنا الطالعه

[17] النشيد الوطني الجزائري. انظر الملحق رقم ١٢.

الفصل الرابع

# جزائر العلم والنهضة الفكرية

كان فضل الجزائر على الأمة العربية والإسلامية خاصة والإنسانية عامة بارزًا من حيث مساهمة علمائها في نشر العلوم الشرعية واللغوية والتجريبية، وإنه لمن دواعي الاعتراف بالجميل، وإظهار هذا البُعد الحضاري الذي تميَّزت به الجزائر أن تُلقى الأضواء وتُنظَّم الملتقيات لإبراز حياة ومؤلفات هؤلاء العلماء.

## (١) علماء الجزائر ... المفخرة الوطنية

أشاد مفدي زكريا بأبي حمزة، والأخضري، وأبي مروان الذين نبغوا في شتَّى العلوم وبالأخص في الرياضيات.

أصالة هذي البلاد الكريمه    تُجلُّ كفاح النفوس العظيمه
تحيي أبا حمزة في بنيها    وأفكاره النيِّرات العليمه
وتكبر عالمَها الأخضريَّ    وآراءه الناصعات السليمه
وعالم بونة مروان مهما    تصدَّى لفكِّ الرموز القديمه
عباقر أرض الجزائر كونٌ    تموجُ به المعجزاتُ الجسيمه

## (١-١) أبو حمزة

هو علي بن ولي بن حمزة المغربي، عالم رياضيات جزائري، وُلد سنة ١٥٥٤م في الجزائر، حفظ القرآن الكريم بها ثم انتقل إلى اسطنبول في عهد مراد بن سليم. من مؤلفاته الشهيرة «تحفة الأعداد لذوي الرشد والسداد» و«تحفة الأعداد في الحساب» الأول كَتَبه في اسطنبول والثاني بمكة المكرمة. كان بفضل بحوثه ودراساته من المؤسسين لعلم اللوغاريتم. عُيِّنَ خبيرًا للحسابات بديوان المال في قصر السلطان العثماني، بعد وفاة والده، رجع ابن حمزة إلى الجزائر وامتهن التجارة، تُنسب له «المسألة المكية» في حساب النخل.[١]

## (١-٢) الأخضري

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري من بني سليم، وُلد سنة ٩٢٠هـ الموافق لـ ١٥١٤م في بنطيوس بالزاب الغربي.[٢]

تتلمذ على أبيه محمد الصغير وشقيقه الأكبر الشيخ أحمد، ومن أساتذته كذلك عبد الرحمن بن لقرون والخروبي، وعمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان، درس في جامع الزيتونة العامر، وقد أخذ عنه العديد من المشايخ والطلبة والباحثين رغم حداثة سِنه في عديدٍ من علوم الفلك واللغة والفقه والتوحيد وأصول الدين والتصوف.

تُوفي — رحمه الله — على أرجح الأقوال سنة ٩٥٣م، وترك موروثًا علميًّا نفيسًا، نذكر منه:

- مختصر الأخضري على مذهب الإمام مالك.
- المنظومة القدسية.
- السلم الرونق في علم المنطق.
- الدرة البهية في نظم الآجرومية.

---

[١] أ. هدى الصادق أرحومة، المجلة الجامعة، العدد ١٥، المجلد الأول، جامعة طرابلس، ٢٠١٣م، ص١٨٠.

[٢] بوزياني الدراجي، «عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوَّق في عصره»، الطبعة الثانية، البلاد، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص١٤.

- اللامية في مدح الرسول ﷺ.
- أزهر المطال في علم الأسطرلاب.
- الدرة البيضاء.

عُرف عنه نظم القصائد في العديد من المواضيع التي له باع عظيم فيها. نورد على سبيل الذكر أبياتًا في الرياضيات يقول فيها:[٣]

| | |
|---|---|
| والصفر كافٍ إن طرحت العددا | من مثله كالصفر من صفر بدا |
| وإن يكُ الصفر الذي من أسفلا | فاقنع إذًا بعددٍ قد اعتلى |
| وكل ما ذكرت من أقسامٍ | فيما عدا الآخر ذي الإتمام |
| لأنه حتمًا يكون أكثراً | من الذي من تحته قد شُهرا |

وله قصائد في غير الرياضيات والحساب والعلوم التجريبية، نلحق قصيدة على سبيل الإشارة فقط.[٤]

## (٣-١) طفيش

خصَّص مفدي زكريا مقطعًا كاملًا للتنويه بالشيخ طفيش محمد بن يوسف، لمرتبته العلمية ونضاله المستميت.

| | |
|---|---|
| طُفيِّش سقياك ... قطب الأيمَّه | ومن عاشَ بالفكرِ يصنع أمَّه |
| ومن شقَّ بالعلمِ دربَ الحياة | وصان لنيلِ الرسالات حُرمه |
| ومن قطع العمر يغزو الكتاب | ويفري الظَّلام ويُلهب همه |
| ودان له الحرف بالخالدات | فأخلصَ للحرفِ عهدًا وذِمه |
| وأنصف مَن خالفوه اجتهادًا | وصانَ عن الجدليَّات علمه |

[٣] بوزياني الدراجي، مرجع سابق، ص٥٩.

[٤] ملحق رقم ٣، ص١٥١–١٥٤.

هو قطب الأمة الشيخ محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز بن بكير الحفصي أطفيش، أشهر علماء المذهب الإباضي في العالم الإسلامي الحديث، وُلد سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م ببني يزقن.

نبغ في عائلة يميِّزها العلم والتدين، تُوفي والده — رحمه الله — وهو ابن الخامسة من العمر، وحرصت والدته على تربيته وتعليمه، فحفظ القرآن الكريم.

تتلمذ على يد أخيه إبراهيم بن يوسف أطفيش وعُمر بن سليمان وسليمان بن يحيى وإبراهيم بن يوسف بن عيسى، أنشأ معهدًا للتدريس وتتلمذ على يديه أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، أبو اليقظان، إبراهيم الإبريكي ... وسليمان الباروني وسعيد بن تعاريت وأحمد الرفاعي وغيرهم.

له عدة مؤلَّفات، من بينها: تيسير التفسير، وداعي العمل ليوم الأمل، وهميان الزاد إلى دار الميعاد، وتلقين التالي لآيات المتعالي، وترتيب الترتيب، والرد على الصفرية والأزارقة، وشرح كتاب النيل وشفاء العليل. تُوفي — رحمه الله — سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.

ونبغ كذلك في الجزائر الشاعر ابن الفكون، محمد القسنطيني، عبد القادر البجاوي، حمدان بن الونيسي، ابن باديس والشيخ عاشور.

ذكرنا بسرتا نفوسًا أبيَّه ذكرنا بها الأعْصُرَ الذهبيَّه
معاهد تزخرُ علمًا وفضلًا وتُلهِم روادَها العبقريَّه
يصوغُ ابن فكون فيها الشوادي بوحي خميلاتها السُّندسيَّه
تزهو قسنطينة بابنها محمد من شرف العربيَّه
قوافيه تسري بأنفاسِ سرتا فتخجلُ منها الورودُ النديَّه
وخلَّد سرتا البجاوي الضَّليع وواصل حمدانُ صنْع البقيه
كأن الحطيئةَ عاشَ مدينًا لعاشور في هجوهِ للبريه

## (٤-١) ابن الفكون

هو عبد الكريم الفكون، وُلد بقسنطينة سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م، من عائلة عريقة ومحافظة، كانت بيدها إمارة الحج لبيت الله الحرام، كان والده إمامًا بالجامع الكبير بقسنطينة، تلقَّى على يديه العلم الشرعي واللغوي وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، تتلمذ

كذلك على الشيخ سليمان القشي وعبد العزيز النفاتي وأبي عبد الله محمد الفاسي المغربي ومحمد التواتي المغربي ومحمد بن راشد الزواوي.

أورد شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون تعريفًا بجد والده الشيخ أبي زكريا يحيى بن محمد الفكون — رحمه الله — في كتابه «منشور الهداية في كشف حال مَن ادعى العلم والولاية» يقول فيه: «وممن يُذكر في المدينة المذكورة، الجد أبو زكرياء يحيى بن محمد الفكون جد والدي، كان — رحمه الله — من العلماء المتقنين البارزين، وكان ممن له اليد الطولى في الفقهيات، وممن يعرف المدوَّنة[٥] وكان من المعتنين بها، وله حاشية عليها بديعة في معناها، ضمَّنها نوازل ووقائع قلَّ أن توجَد في المطولات، وهي مسودة بخطه — رحمه الله — ولم تخرج منها نسخة إلا ما يُذكر أن نسخةً أخذها الوادين، وكان من فقهاء البلدة لم تُوجَد للآن، وكان الجد ممن تصدَّر الإفتاء في زمن مشيخة أكابر وهو أسنُّ من الشيخ الوزان إلا أنه عاصره.»[٦]

نبغ في العلوم وتولَّى التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، وخلف أباه بعد وفاته — رحمه الله — في الإمامة والخطابة. يقول المؤرِّخ المهدي البوعبدلي الجزائري عن إمارة الحج:

تخرَّج على يدي الفكون العديد من الطلبة، أشهرهم: أبو مهدي عيسى الثعالبي، بركات بن باديس، علي بن عثمان بن الشريف، أبو سالم العياشي المغربي، محمد وارث الهاروني، محمد البهلولي، وغيرهم.

تُوفي — رحمه الله — في ٢٧ ذي الحجة ١٠٧٣هـ الموافق لـ ٣ أغسطس ١٦٦٢م عن عمر يناهز خمسًا وثمانين سنة.

## من آثاره

- «منشور الهداية في كشف مَن ادَّعى العلم والولاية»، طبع سنة ١٩٨٧م، بعناية الدكتور أبي القاسم سعد الله — رحمه الله.
- «فتح الهادي في شرح جمل المجرادي ومخارج الحروف من الشاطبية.»

---

[٥] هو الكتاب المشهور في الفقه المالكي، وقد رواه سحنون عن أبي القاسم عن مالك بن أنس.

[٦] منشور الهداية في كشف حال مَن ادعى العلم والولاية، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، تقديم وتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، بيروت، ص٤١.

- «الدرر في شرح المختصر.»
- «شرح البسط والتعريف في علم التصريف.»
- «فتح المالك في شرح ألفية ابن مالك.»

### (١-٥) محمد القسنطيني

هو محمد بن عيس الشاذلي البوزيدي القسنطيني، عالم جليل وأديب مشهور، وُلد في قسنطينة سنة ١٨٠٧م، بدأ دراسته في قسنطينة، وقرأ الفقهَ على الشيخ السعيد طبال الشيخ، واللغةَ والأدبَ على يد الشيخ مصطفى باش طرزي والشيخ أحمد العباسي[٧] وتولَّى القضاء المالكي في قصر أحمد باي، وكان بمجلس حكمه الشيخ المكي بن باديس، جد الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد بن عزوز، كما اشتغل بالتدريس، وتولَّى إدارة المدرسة الكتانية منذ تأسيسها عام ١٨٥٠م، ودرس فيها علوم الشرع واللغة، لازم الأمير عبد القادر بفرنسا، تُوفي — رحمه الله تعالى — بقسنطينة سنة ١٨٧٧م.

### (١-٦) عبد القادر البجاوي

الشيخ عبد القادر البجاوي من رواد النهضة الإسلامية في الجزائر، ومناضل في الحركة الوطنية، وُلد سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م. وعُرف بتسمية «دائرة المعارف» لغزارة علمه، من مؤلفاته الشهيرة «منظومة اللمع فى إنكار البدع»، تُوفي — رحمه الله — سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م.

### (١-٧) حمدان بن الونيسي

هو الإمام العلامة الشيخ محمد بن أحمد بن محمد حمدان الونيسي، وُلد سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م بقسنطينة، تتلمذ على الشيخ عبد القادر المجاوي، وامتهن التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة بداية من سنة ١٨٨١م. برع في علوم الشرع واللغة، تتلمذ على

---

[٧] أبو القاسم محمد الحفناوي، «كتاب تعريف الخلف برجال السلف»، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ١٩٠٦م، ص٣٨٦.

يديه الشيخ العربي التباني، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ سعيد بهلول الورتلاني، والمفتي محمود بن دالي كحول وغيرهم.

رحل الشيخ حمدان الونيسي إلى البقاع المقدَّسة واستقر بالمدينة المنورة ودرَّس بالحرم النبوي إلى أن وافته المنية — رحمه الله — سنة ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م ودُفن بالبقيع.

## (١-٨) الشيخ عاشور

هو أبو الفيض عاشور بن محمد بن عبيد بن أبي عبد الله محمد المسعود بن أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي الخنقي الشهير بالشيخ عاشور، وُلد في خنقة سيدي ناجي ببسكرة سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، ونشأ في محيطٍ يجلُّ العلم ويشع خلقًا حميدًا. حفظ القرآن الكريم والحديث والمتون، تنقَّل في طلب العلم بين بسكرة وتونس وقسنطينة وبوسعادة، وتتلمذ على الشيخ محمد المكي بن الصديق الونجلي، والشيخ محمد الصالح العبيدي الحمادي، فأخذ عنه الفقه والنحو، وساير الشيخ محمد المدني بن عزوز. درس في زاوية الهامل، سبق له وأن التقى بشيخ الزاوية صدوق ببلاد القبائل، والشيخ الحداد شيخ الطريقة الرحمانية.

له ديوان شعر شهير «منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف»، تم طبعه سنة ١٩١٤م بالمطبعة الثعالبية بالجزائر، قامت السلطات الاستعمارية بنفيه في إقليم «تعظميت» لقرابة عقدٍ من الزمن ثم عاد للزاوية القاسمية للعمل بوساطةٍ من مفتي الجزائر الشيخ سعيد بن زكري.

### ومن أشعاره

أنا مِغْيارٌ عليه، لم أزَلْ صخرةَ الوادي، عليكم لا تزولْ
مَن يساجِلْني يساجلْ شاعرًا يضعُ الأعراضَ في أنيابِ غُول

تُوفي — رحمه الله — في مدينة قسنطينة سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

## (١-٩) نادي صالح باي

أسَّس جمعٌ من علماء الجزائر نادي صالح باي بقسنطينة:

وقف بالرُّبوع يُفاجئْك نادٍ　　لصالحِ باي الشهيدِ الضحيَّه
تظافر فيه دعاةُ الصلاحِ الـ　　ـهُداة إلى القيم السلفيَّه
وجاء ابنُ باديس يغزو الظلامَ　　ويُعلي الرءوسَ، ويذكي الحميَّه

نادٍ أسَّسه نخبة من المثقفين الجزائريين سنة ١٩٠٧م في قسنطينة. وهو نسبة إلى صالح باي. وُلد صالح باي في مدينة أزمير بتركيا سنة ١١٣٧هـ/١٧٣٩م ثم انتقل إلى الجزائر والتحق بفرقة الأوجاق بقسنطينة، عيَّنه باي قسنطينة أحمد قلي قائد الحراكتة بالأوراس سنة ١٧٦٢م، ثم تولَّى منصب خليفة الباي بقسنطينة سنة ١٧٦٥م، يعود له فضل تدوين وتوثيق الأملاك الوقفية في قسنطينة وتطوير الزراعة، يُروى أنه نُفِّذ فيه حكم الإعدام خنقًا من طرف الداي بابا حسن بحصن القصبة بقسنطينة في سنة ١٧٩٢م، وقد استعطفت هذه النهاية قلوبَ سكان قسنطينة واستنكروا إعدامه وأصبح بفعل أعماله مفخرة لهم.

## (١-١٠) أبو مروان

وُلد أبو عبد الملك مروان بن علي بن محمد البوني في قرطبة، وتتلمذ على يدي والده، حفظ القرآن الكريم والعلوم الشرعية وعلوم اللغة.

نهل من علماء تلمسان والقيروان والمغرب؛ فدرس عن علي القابسي وأبي جعفر الداودي من أئمة المالكية ببلاد المغرب ثم استقر ببونة، كان عالمًا ورعًا معروفًا بالصلاح، تتلمذ على يديه حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمي وولده علي بن مروان. من مؤلفاته الشهيرة شرح موطأ الإمام مالك، وشرحٌ لصحيح البخاري، تُوفي — رحمه الله — بمدينة عنابة سنة ٤٣٩هـ ودُفن بها.

## (٢) إشادة برجال النهضة في المشرق العربي

وفي تواصلها وتفاعلها مع العالم العربي والإسلامي استلهمت النخبة الوطنية أفكارها ومناهجها ونضالها في الإصلاح من رموز النهضة المشرقية التحررية أمثال: الشيخ رضا، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وتوري السموري، وعمر المختار، وشامل الداغستاني، وسليمان الباروني، وشكيب أرسلان ...

وفـي الشـرقِ، يبـهرنـا عبـدُهُ    فيقفو رشيدٌ خطاهُ الحكيمه
وأفـغـانُ تـروي جـهـادَ جمـالٍ    فتلهبُ في الثائرين العزيمه
وتُوري السموريُّ في غينيا    وشاملُ والروسُ تَلْقى الهزيمه
ومـخـتـارُ تـلـقي به الطـائرات    وفَتْك سليمانَ يمحو الجريمه
وصـوتُ شـكـيب يـهـزُّ الـدنـا    فترجفُ منه النفوسُ السقيمه

رواد من العالم الإسلامي آلوا على أنفسهم رفعَ تعاليم الدين والنصر لمتطلباته في إقامة نظام حياة على أسسٍ من التوحيد الخالص والأخلاق السامية والمنهج الرباني القويم، عظمت فيه شعائر الله واستنارت نفوس المسلمين، وتوسَّعت فيه رقعة الأمة الإسلامية. كان أوَّل تحدٍّ مشتركٍ بين كل هؤلاء الدعاة والمصلحين، طرد الاستعمار من الديار الإسلامية وتجديد الروح الإيمانية في مناهج الفكر والتربية والتعليم وأساليب تسيير الشأن العام للمسلمين، ولقد ذاق الرواد المصلحون في الأمة الإسلامية ويلات القمع والتشريد والتضليل والنفي من الأوطان في سبيل نهضة شعوبهم ورقي همتها في الدفاع عن هويتها.

«ففي اتجاه مكافحة المحتل الغاصب تجد أعلامًا ضحَّوا براحتهم، وأفنَوا صحَّتهم ثائرين على الاحتلال، مرحبين بعذاب السجن، وأليم الجوع، ومرير البرد، حتى تعلو كلمة الله، ومن هؤلاء: عبد الحميد بن باديس، وعبد العزيز جاويش، ومحمد البشير الإبراهيمي، ولهم مع ذلك صرخاتهم البيانية في إيقاظ الرقود وإلهاب النفوس.»[٨]

ويُحسب ذكر رواد النهضة في إلياذة الجزائر إلى ثقافة مفدي زكريا المتشبِّعة بخصال الحق والجهر بمحاسن كلِّ مَن قدَّم تضحية في سبيل إعلاء الأمة العربية والإسلامية.

[٨] محمد رجب البيومي، «النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين»، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، ١٩٩٥م، ص٦.

الفصل الخامس

# جزائر ما بعد الاستقلال

وتتحقَّق للجزائر استعادة حريتها، وتنطلق السياسات بأشكالها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مجتهدة لرفض التبعية الأجنبية ومسايرة تطور المجتمع الجزائري. رغم التوجُّهات الأيديولوجية في دفع التنمية الشاملة حافظت الجزائر على مركز إشعاعها الديني والثقافي، وظهر ذلك في بناء المساجد، ونشر التعليم الديني وإدراج مقومات الأمة في مناهج التربية والتعليم، رغم بعض المحاولات اليائسة الغريبة عن الشعب الجزائري في أصلِه وفي معتقَدِه، والتي سخَّرت كل جهدها في بعْث تيار التغريب، وإبعاد مظاهر الأصالة الوطنية من المشهد السياسي والثقافي والجامعي.

تسامتْ مَصادرُ إشعاعنا     تُدعِّم خالصَ إيماننا
مساجد للهدْي في كل فجٍّ     تنيرُ السَّبيلَ لأجيالنا

ونوَّه مفدي زكريا بالجزائريات الأصيلات اللاتي أنجبن للوطن مَن يحفظ قيمَه ويذود عن مقدساته.

كانت عوامل النهضة الفكرية بارزة لدى علماء الجزائر وشبابها وشباتها، والشاهد على ذلك تنظيم ملتقى الفكر الإسلامي السنوي فيها، وكان جامعًا لطاقات الفكر في العالم العربي والإسلامي، ويعود له فضل التنظير والتأسيس لفكرٍ سليمٍ أصيل.

وكانت شهادة مفدي زكريا بوزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية في حفظ كتاب الله، والمساجد، وتعاليم الدين الإسلامي أصيلةً؛ إذ يقول:

رعى الله في العاملين الوزاره　　أعادت لعلم الكتاب وقاره
جهاد الوزارة نورٌ وحقٌّ　　سما بالبناء، وأرسى جداره
وكم خلَّد الملتقى مهرجانا　　يوجِّه صدق الضمير حواره
وروح الأصالة تسمو بشعبٍ　　منابع إشراقهِ في الوزاره

ولعل من أبرز التأصيل الواجب الثناء على من أحسن لهذا الوطن، تأبينة الشاعر مفدي زكريا لسفير الجزائر في الصين مصطفى الفروخي — رحمه الله:

أناجيك يا مصطفى في سَماك　　ويوم عرجت تشق السِّماك
بُعثت سفيرًا لبيكين لكن　　ذهبْتَ سفيرًا لأفق علاك

## (١) الاقتصاد الجزائري غداة الاستقلال

واجهت الجزائر غداة الاستقلال وضعًا سيئًا جرَّاء تدمير البنية التحتية لاقتصادها، وانتهاج سياسة الأرض المحروقة من طرف القوات الاستعمارية والخلايا الاستدمارية للمعمرين. وتميَّزت الساحة الاقتصادية والاجتماعية بمغادرةٍ جماعيةٍ لحقول الزراعة من طرف المعمرين، وتحويل مدخراتهم ورءوس أموالهم، وتعطل الشركات التجارية والصناعية، مما أدَّى إلى الانكماش الاقتصادي في البلاد. كما ساير هذا الوضع المتردي تفشي الأمراض المعدية، وارتفاع نسبة الوفيات لدى حديثي الولادة والطفولة؛ هذا فضلًا عن البطالة والأمية.

في ضوء هذا الوضع المتردي، بات من الضروري أن تقيم الحكومة الجزائرية الحديثة سياساتٍ اقتصاديةً واجتماعيةً تتحمَّل فيها أعباء التنمية على عاتقها، معتمدةً في بادئ الأمر على الهياكل والمنشآت الاقتصادية والاجتماعية الموروثة عن الاستعمار، وعلى نمط تسييرها وترسانتها القانونية. كما سعت الجزائر إلى الحصول على الامتيازات المقدَّمة من طرف الحكومة الفرنسية بموجب اتفاقيات إيفيان.

اعتمدت الجزائر على سياسة التخطيط المركزي التي وُلدت وترعرعت في المعسكر الشرقي، وتم إعلان الأملاك التي تركها المعمرون أملاكًا شاغرة، وتبنَّت التسيير الذاتي للتعاونيات الفلاحية والاشتراكي للمنشآت الاقتصادية. أُنشئت الدواوين والشركات الوطنية، وأُمِّمت الأراضي والشركات البترولية والبنوك، وضُبطت آليات مراقبتها، وأُعطيت الأسبقية في التنمية والتطوير لقطاع المحروقات وللفِلاحة.

فقُمنا نُشيد اقتصاد البلادِ    ونُعْلي المصانع فيهِ ونبني
ورُحنا نوفِّر للكادحين الرَّ    غِيف الشريف بعلمٍ وفن
ويـزرع فـلاحـنـا أرضـهُ    بذوب الشرايين لا بالتَّمني
ونصنع من صلب واقعنا    مذاهبنا ... رافضين التبني

وفي مقطعٍ آخر:

وفي الأرض للزارعين خبايا    مُضَمَّخَةٌ بدماء الضحايا
وفي عُمقها تكمن البركات    إذَا باركَ السعيَ صدقُ النَّوايا
وقمنا نوزِّع ما أورث الله    للصالحين، زوايا زوايا
ورُحْنا نجمِّع ما طيَّرته    يدُ الغاصبين شظايا شظايا

لم تكن للزعامة الفردية فرصةٌ للبقاء في الجزائر، وحلت محلها الاشتراكية في التخطيط والتسيير والبرامج، مستلهمة من قواعد العدالة الاجتماعية والمشاركة الشعبية معالم في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة.

اتخذنا العدالةَ نهجًا صريحًا    وإنصافَنا في علاج القضايا
ورأيَ الجماعة فيما نراه    فجنَّبنا الرشدُ كلَّ البلايا

## (٢) من مظاهر الوضع الأخلاقي

ذكر مفدي زكريا بعض مظاهر الزيغ والانحراف التي رآها مستفحلة لدى بعض الجزائريين بعد الاستقلال. وصف الانحلال الخلقي من تخنثٍ وشذوذٍ وتعاطٍ للمُسكرات والمخدرات، وغلاءِ المهور وتفضيلِ الزواج بالأجنبيات، وكذا التميع واللهف على المناصب

والمجون والفجور. كما أظهر امتعاضه من انتشار النفايات والقاذورات وتلوث المحيط الخارجي للمدن، وفي كلا الإشارتين تذكير بقواعد الأخلاق والنظافة التي نصَّ عليها ديننا الحنيف، والتي من العار أن توجد في بلدٍ مثل الجزائر الذي شهد أعظم ثورة، وساير تاريخها كل محطات البشرية بطولةً وشهامةً ونبلًا.

وفي خضم هذا التنكُّر السفيه لمقوِّمات الأمة الجزائرية وتاريخها وبطولاتها وامتدادها للحضارة العربية والإسلامية، نورد ما ذكره الدكتور سعد الله: «إنَّ ثورتنا قد جُرِّدت من قيَمها، وأصبحت شعارات جوفاء تُعلن في المناسبات.»[١]

إضافة إلى الانحرافات الأخلاقية، تفشَّت في الجزائر مظاهر الانحراف الفكري، وكانت وقتها عابرة للحدود والقارات، ومن بين المظاهر التي ذكرها مفدي زكريا، اعتبار صوت الأذان إزعاجًا، والإنابة إلى الله رجعية مقيتة، والإلحاد حرية فكرية؛ بل وجه من وجوه التحضُّر والتقدُّم، وشاعت في البلاد رزايا الخمور والمخدرات وفساد الفكر والأخلاق.

يقول مفدي زكريا:

وصَهْينَ صهيونُ أخلاقنا فَكَيَّفَنَا أن نكون رعايا
وهل يُحْزِن العتقُ مستعمِرًا وأخلاقنا في يديه سبايا

وكل هذه المظاهر هي استثناء عن القاعدة العامة التي بُني عليها قوام الشعب الجزائري، وفي ذلك يشيد مفدي زكريا بالشباب الجزائري الواعي والمؤمن بقضية وطنه وامتداد تاريخه وأصالة منبعه، وضارب عرض الحائط بكل أيديولوجية منحرفة وكل ضلالة غربية:

وأفلت من قفصِ الإتِّهامْ شبابٌ أصيلٌ وفيٌّ الذِّمامْ
شبابٌ تطهَّر فيه الضميرُ فأعرض عن شبهات الطغامْ
وأُشرب من نبعِ إسلامِهِ وفلسفةِ الدِّين، روحَ النِّظامْ
ولم يتنكَّر لأمجادِهِ وأجدادِه الخالدين العظامْ

[١] محاضرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله، أُلقيت في الملتقى الثاني للثورة الجزائرية، باتنة في ١١–١٤ نوفمبر ١٩٩٠م، الواردة في كتابه: «أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر»، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م، ص١٣.

## (٣) الوحدة المغاربية ... السعي الجزائري

تأسَّست التكتلات في العالم على قواعد جغرافية وأخرى تاريخية وثقافية، ظهر إيجابياتها في حشد المعسكرات وتوجيه التجارات. وكان توجُّه الجزائر وسعيها المتواصل لجمع القوى الإسلامية والعربية لتوحيد الصفوف في وجه التكتلات الخارجية التي باتت تهدِّد أمنَ الدول العربية وقراراتها السياسية. ولا شك أنَّ أثرها كان جليًّا على الأصعدة السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والثقافية.

ورغم استحالة الوحدة العربية في تلك الحقبة الزمنية، كان بريقُ أملٍ يلوح في أفق المغرب العربي ويشير لوحدةٍ مغاربية، أشاد بها مفدي زكريا بحكم التاريخ المشترك والمقومات التي تتقاسمها الدول المتجاورة في المغرب العربي من إسلام وعروبة وروابط أسرية وقبلية.

| | |
|---|---|
| هو المغربُ الأكبر المستمِد | رسالاته من رسول الهدى |
| ووحدة مغربنا اليوم خطوٌ | إلى وحدة المسلمين غدَا |
| بتوحيد بعضٍ، نوحِّد كلًّا | وهل ينكِر الخبرُ المبتدا؟ |
| فـربَّـمـا كـان مـغـربُـنـا | مثالًا قويمًا، به يُقتدى |

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولَا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٠٣).

بعد التذكير بملتقى الفكر الإسلامي المذكور آنفًا والترحيب بالمشاركين فيه والإشادة بوزارة الشئون الدينية والعاملين فيها، يرفع الشاعر مفدي زكريا أكفَّ الضراعة سائلًا الله — عز وجل — المغفرة والصفح، ثم يعود مفتخرًا ببلاده التي ألهمته الحب ووهبها فكره وعمره فوهبته المجد:

| | |
|---|---|
| فخلَّد قدسُ اللهيب بياني | وأذكى لهيبُ الجزائر فكري |
| وإن يجحدوني فحسبي أنِّي | وهبتُ الجزائر فكري وعمري |

ومن المفاخر في الإلياذة الردُّ على المناوئين لمفدي زكريا في مسألة الشعر وتبيان أصالة شعره شكلًا ومضمونًا، وفي مسألة تفضيله الإقامةَ خارج الوطن بعد الاستقلال، وما تحتويها من خصوصيات شخصية لا يحق لأي إنسانٍ الخوضُ فيها، ها هو شاعرنا المفدَّى يبرز مرة أخرى في آخر مقطع من الإلياذة هيامَه بالجزائر وحبَّه العميق لها ولتاريخها وحضورها البطولي في التاريخ البشري ليختتم شعره الإلياذي مسكًا وعطرًا:

إليكِ صلاتي وأزكى سلامي        بلادي، بلادي الأمان الأمان

ومن الملاحظ من خلال الإلياذة أنَّ الشاعر مفدي زكريا يتميَّز بشخصيةٍ فذة وفريدة من نوعها، أعظمَ شأنَ الدِّين، وأعلى الوطن، وأكرم الشهداء، وأحبَّ كلَّ مقومات الجزائر، وأجلَّ بطولاتها بأسلوبٍ جميلٍ جمالَ طبيعتها وروائعٍ روعةَ تاريخها، لم ينتقص قدْر أحدٍ من الزعماء، ولم ينتصر لفكرة أو مذهب. تظهر نقاوة سريرته، كذلك في اعتبار كل الدول والممالك التي حكمت الجزائر في العصر الحديث والمعاصر من قبيل القيم المضافة في تاريخ الجزائر رغم تطاحنها وسجالها فيما بينها، فرحمة الله تعالى عليك أيها الشاعر المتمرِّس والمناضل الخالص مفدي زكريا.

# خاتمة

بنظمٍ شعري متميز ورصين، استطاع الشيخ زكريا بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان بن الحاج عيسى، الملقَّب بمفدي زكريا أن يُؤرِّخ لتاريخ شعب، ويبرز معالم نبوغه ونهضته ونضاله من أجل إثبات وجوده ونَيْل حريته وسيادته على أرضه عبْر فترات تاريخية متعاقبة شهدت بزوغ فجر البشرية وتنامت فيها حملات الغزو والاحتلال، أرَّخ للبطولة وللقيم السامية التي تحلَّى بها الشعب الجزائري، وأظهر فخره بأمازيغية الأصل وبعروبة المنبع وبإسلام المعتقَد، متخذًا من هذه المقومات الأساسية لُحمة الشعب الجزائري وكُنه وجوده في هذا العالم.

إنَّ مشوار الشَّاعر القدير المُسْتَلْهَم من دراساته الخلدونيَّة والزيتونيَّة صقلَ قريحته اللغوية، وغذَّى روحه الوطنيَّة، وأضفى على سريرته النضاليَّة نزعةً ثوريَّةً ضد المحتل ومسحةً جماليَّة ودلالية توَّاقة لوصف جمال الجزائر والهيام في سحرها.

من عبقرية مفدي زكريا في الشعر الربطُ الرائعُ بين العقيدة وجمال الطبيعة في شطر واحد، في قوله:

فلولا جمالك ما صحَّ ديني وما أن عرفت الطريق لربي

إشارة جليلة لقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، الآية: ٤٦).

ومن المآثر التي تتجلَّى في إلياذة مفدي زكريا تلك الرغبةُ المتأصلة في الشعب الجزائري، الداعية لتحرير فلسطين المغتصَبة والآملة في توحيد الأمة العربية والإسلامية في زمنٍ لا مكان للفُرقة والضَّعف فيه.

إلياذة الجزائر ملحمةٌ ليست كالملحمات، وكلماتٌ ليست كالكلمات. إلياذة الجزائر ليست أساطيرَ هوميروس ومَن نحا نحوه؛ بل ديوان شعر ... بل ألبوم أمة يحتفظ للأجيال بصور التَّاريخ العريق والحب العميق لمبادئ السلام وحرمته ولحرية الإنسان وكرامته.

اختلج تركيبَ الأبيات الشعرية ذكرٌ للقيم الجمالية والتاريخية والوطنية؛ فالقيم الجمالية هي كل وصف لجمال الطبيعية التي حبا الله بها الجزائر وللمواقع الأثرية. أما القيم التاريخية فهي بيان لمختلف المحطات التاريخية التي شيدتها بطولة الشعب الجزائري. وأما القيم الوطنية: فهي تركيبة الشخصية الجزائرية من إسلامها وأمازيغيتها وعروبتها.

ولعلَّ التناص القرآني هو مَن أعطى لإلياذة الجزائر بُعدًا جماليًّا ونسقًا إبداعيًّا مميزًا تجلَّت فيه أعظم الدلالات القرآنية والتعاليم السمحة للإسلام.

حاولت أن أقدِّم مقاربةً تاريخية في هذا البحث المتواضع الموسوم بـ «ملحمة الجزائر»، وأن أراعي التسلسل التاريخي الوارد في الإلياذة، مستلهمًا التوضيح والاقتباس من المصادر الموثقة، متخذًا الحيطة من أباطيل المستشرقين وأراجيف الحاقدين.

بعد التغني بجمال الجزائر وذكْر شمائلها يشق بنا الشاعر مفدي زكريا عُباب بحر التاريخ بشموخٍ، مستظهرًا معالم الإعجاز في النضال والجمال وتقبُّل الإسلام دينًا، والعربية لغة والجزائر وطنًا. طبع التذكيرُ بأمازيغية الشعب الجزائري وتبنِّيه للعروبة واعتناق رعيله الأول للإسلام الإلياذةَ برونقٍ من الشمائل الوطنية التي جعلت من الجزائر بالفعل مطلعَ المعجزات وحُجَّةَ الله في الكائنات.

يتطرَّق الكتاب الذي بين أيديكم إلى أبرز الوقائع التاريخية، خاصة منذ العهد الفينيقي الذي شهد تعايش الفينيقيين، ووصولًا إلى ما بعد استعادة السيادة الوطنية.

أبحر الفينيقيون من فينيقيا واستقروا بسواحل البحر الأبيض المتوسط في القرن ١٢ق.م، وأسَّسوا فيها الموانئ وطوَّروا التجارة والصناعة، ثم أسَّسوا قرطاجة فمدينة الجزائر «إيكوسيم» في القرن ٦ق.م. عُرف السكان الأمازيغ بالنوميديين. كان نظام الحكم

لديهم ملكيًّا بعدما كان قبليًّا، وما لبثوا أن أعلنوا الثورة ضد جَور القرطاجيين. برز ماسينيسا كأعظم ملك بربري، واستطاع بعد معركة زاما الشهيرة أن يوحِّد نوميديا وتزدهر في عهده الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

كانت روما تتحيَّن فرصة احتلال الجزائر منذ ٢١٣ق.م، وجمعت لذلك الجيوش، وألَّبت صدور المناوئين للإطاحة بها. أُجبر البربر على الدخول في عهدٍ استعماري روماني لازم حياتهم جورًا وقهرًا. تزعَّم يوغورطا حركةَ التمرُّد على روما وأسَّس لنظام سياسي مستقل عنها.

أشهر مَن جاء من بعده يوبا الأول الذي أعلن الحرب على قيصر، ثم يوبا الثاني العالِم والفيلسوف، واتخذ من شرشال عاصمةً للمملكة النوميدية. خرجت المقاومة من القصر الملكي ليتزعَّمها رجال المقاومة، مثل: تاكفاريناس وفيرموس وأعلنوا الحرب ضد الاستعمار الروماني.

حلَّ الوندال بِعُدَّتهم وعتادهم وهمجيتهم مستعمرين للأراضي الجزائرية منذ سنة ٤٢٨م، وفي حربهم الشرسة ضد القائد بونيفاس، احتلوا عنابة سنة ٤٣١م، واتخذوها عاصمة لملكتهم، وقُتل القسيس أغستنس في معركة فك الحصار وهو يدافع عن الجزائر. بوفاة جنسريق، اشتد عضد المقاومة الأمازيغية في المنطقة الشرقية للجزائر، فكان النصر حليفها سنة ٤٨٣م.

خلَفت بيزنطة الوندال وأعلنت سطوة القهر والاستعباد على رقاب الأمازيغ، لكن ما فتئت أن انتظمت المقاومة الأمازيغية مرة أخرى بعد مرور ١١٣ سنة من الاحتلال البيزنطي.

قُتل جرجير، ودبَّ الخور في البيزنطيين، وأفل ليل الاستعمار، وأشرقت شمس الإسلام على العالم مبشرةً بعهد جديد لا عبودية فيه إلا لرب العالمين.

قَدِم العرب الفاتحون إلى شمال إفريقية لأول مرة سنة ٢٢ للهجرة، وعُيِّن عقبة بن نافع الفهري — رضي الله عنهما — واليًا على إفريقية في خلافة يزيد بن معاوية، سنة ٦٢هـ/٦٨٢م، وأعلن الحرب على كسيلة بن لزم القائد البربري. قُتل عقبة في معركة تهودة رفقة أبي مهاجر. بعدما عيَّن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٩هـ/٦٨٨م زهير بن قيس البلوي واليًا على إفريقية، جهز جيشه في طلب كسيلة وجنوده فوقعت معركةٌ قُتل فيها كسيلة. تولَّت دهيا بنت تابتت بن تيفان الشهيرة باسم

الكاهنة أمرَ الأمازيغ فأعلنت الحرب على حسان بن النعمان، ثم تُوفيت سنة ٨٢هـ/٧٠١م بعدما أوصت أبناءها وقبيلتها الأمازيغية باعتناق الإسلام.

عمل حسان على ترقية التعايش العربي الأمازيغي، فعرَّب الدواوين وجنَّد الأمازيغ تجنيدًا طوعيًّا، ونظَّم الخراج والأسواق فتوسَّعت رقعة الإسلام في بلاد الجزائر وفهموا تعاليمه، وفتحوا تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد أفريقيا والأندلس.

ما إن استتب الأمن في بلاد المغرب حتى بدأ التصدُّع ينخر جسم الأمَّة فعادت ثورات البربر في الجزائر من جديد رافعةً راية الخروج عن الإمارة الإسلامية، واتخذ التيار الخارجي بداعي النقمة مذهب الصفرية، وانتقل الصراع في بلاد المغرب من حراك مذهبي إلى حرب جارفة بين المسلمين، ظهرت على إثرها دويلات مستقلة؛ الدولة الرستمية بمنطقة الزاب وقسنطينة وتلمسان، والدولة الإدريسية بمنطقة وهران وشلف ومعسكر، والدولة الأغلبية سكيكدة وسطيف وميلة. تولَّى عبد الرحمن بن رستم حكم الدولة الرستمية بتيهرت؛ فكانت إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها، وفارسية في إدارتها، وإباضية في مذهبها.

وهي أول دولة إسلامية بقيادةٍ بربرية نشأت في الجزائر. أسَّس عبد الرحمن بن رستم لنظام الشورى في الجزائر، وعرفت في عهده ازدهارًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا وأدبيًّا وحضاريًّا. نبغ في منطقة الزاب عدد من الأدباء والشعراء أمثال بن تميم الطبني ومحمد بن هانئ بن سعدون الأزدي.

تأسَّست الدولة الفاطمية في الجزائر على أنقاضِ صراعٍ بين الأغالبة والرستميين. أسَّس بلكين أشير، ثم مدينة الجزائر على أسسِ مدينة إيكوسيوم سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م، وسُميت «جزائر بني مزغنة».

تأسَّست الدولة الحمادية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م معلنةً ولاءها للعباسيين في بغداد بعد سقوط الدولة الزيرية، أسَّسها حماد بن بلكين ونبغ فيها الناصر بن علناس. اشتهرت بجاية بالعلم والفنون وتطوُّر الصناعة الحربية وأواني النحاس والفضة، كذا صناعة الشمع وازدهار تجارتها الخارجية.

عرفت الفترة الحمادية هجرة الهلاليين الشهيرة إلى المغرب العربي، وخاصة إلى الجزائر، وعرَف المذهب المالكي أوج انتشاره في عهد الحماديين من قِبَل أبي حفص عمر بن الحسين الصابوني رئيس السادة المالكية في الجزائر في نشر المذهب المالكي.

انتهى حكم الدولة الحمادية من بجاية على يد المرابطين، وأقام يوسف بن تاشفين دولة المرابطين التي دعا لها المهدي بن تومرت.

تولَّى عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي رئاسة الدولة الموحدية، واعتمد المذهب المالكي، وحمل السكان الأمازيغ للعمل بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه. اشتُهر في العهد المؤمني أبو مدين شعيب الأندلسي دفين تلمسان.

قامت على أنقاض الدولة الموحدية ثلاث دول: الحفصية، والمرينية، والزيانية، وظهر هذا الانقسام في فترة تأهب العالم المسيحي لاحتلال العالم الإسلامي.

في عهد الدولة الزيانية، ظهر أبو يحيى يغمراسن بن زيان الوادي، فشهدت تلمسان في عهده نموًّا كبيرًا.

ما لبثت الإمارات الإسلامية أن تبسط نفوذها حتى بدأت جحافل الإسبان الصليبية تحوم حول حمى الجزائر. دخل الغزاة الإسبان مرسى وهران سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م بتواطؤ يهودٍ بغيض، كل ذلك في ظل هوان للدولة الزيانية.

في سنة ١٥١٦م لبَّى الأخوان «عروج» و«خير الدين» لنداء الجزائريين، فكان لهما دور كبير في رد الهجمات الإسبانية عن الجزائر. حكم الجزائرَ العثمانيون، ولم يكن حكمًا مزيلًا لثوابت الشعب الجزائري؛ بل كان معزِّزًا له. كانت علاقة فرنسا بالجزائر ودية مبنية على مصالح مشتركة، حصلت فرنسا على امتيازات تجارية واقتصادية ودبلوماسية.

تقوَّت فرنسا من دعم الجزائر إلا أنَّ مشروعها «الحضاري» في استعمار الجزائر كان دائم الحضور في اجتماعاتها وتحالفاتها، وكُلِّف «بوتان» لإعداد خطة هجوم على الجزائر من سيدي فرج في يوليو ١٨٠٨م. لجأت فرنسا إلى اعتماد وساطة اليهوديَّيْن ابن زاهوت ونافتالي بوشناق في تخليص ديون فرنسا نحو الجزائر، وهما اللذان يئول لهما حصار الجزائر والحملة عليها ثم احتلالها، وكانت حادثة المروحة من سنة ١٨٢٧م سببًا واهيًا لقرار غزو الجزائر.

تحطَّم الأسطول الجزائري في معركة نافارين من نفس السنة، ووقع أول إنزال بحري للقوات الفرنسية سنة ١٨٣٠م، ولم يقم الجيش التركي بأي محاولة للدفاع؛ بل يُحسب على الحكم العثماني في الجزائر أنَّ الباشا حسين وقَّع معاهدة الاستسلام في ٥ يوليو ١٨٣٠م مع شارل العاشر دون أية مقاومة.

منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر بدأ التفكير والإعداد لصد عدوانها عن طريق الثورات الشعبية المنطلقة من المساجد بزعامة الطرق الدينية التي هزَّت أركان فرنسا؛ فقد كان السبق العظيم للأمير عبد القادر في تأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة. واتسع أفق الثورات الشعبية الجزائر كلها، وكان أبرزها: ثورة الحاج أحمد باي، وثورة أولاد سيدي الشيخ، وثورة محمد بن تومي شوشة وبن شهرة، وثورة الزعاطشة، وثورة محمد الأمجد بن عبد الملك المعرف بالشريف «بوبغلة»، وثورة الصبايحية، وانتفاضة أولاد عيدون بالمليلية، وثورة لالة فاطمة نسومر، وثورة المقراني والشيخ محمد أمزيان الحداد وبومرزاق، وثورة الحسين بن أحمد الملقَّب بمولاي الشقفة، ويحيى بن محمد، وأولاد بن عاشور، وثورة الشيخ بوعمامة، وثورة الشيخ آمود ... إلخ.

برزت الحركة الوطنية الجزائرية بداية من نشاط محمد البدوي، ثم تشكَّلت حركة «الشبان الجزائريين» المطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا، وأضاف الأمير خالد دفعًا للحركة الوطنية، وتعزَّزت بنشاط جمعية العلماء المسلمين.

مباشرة بعد إعلان انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، خرج الشعب الجزائري فرِحًا به معتقدًا وفاء فرنسا بوعدها لنَيل الاستقلال، فكان رد «الجميل» بمجزرة مروعة استُشهد فيها ٤٥ ألفًا من الجزائريين، حلت على إثرها كل الأحزاب السياسية، وألقت القبض على الزعماء السياسيين والإصلاحيين. تقرَّر سنة ١٩٤٧م تكوين منظمة شبه عسكرية بقيادة محمد بلوزداد، ثم تأسَّست «اللجنة الثورية للحرية والعمل» في شهر مارس ١٩٥٤م. وفي ٢٥ يونيو ١٩٥٤م اجتمع الأعضاء الـ ٢٢ من المناضلين الذين آمنوا بالعمل المسلح.

قامت ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م المباركة ودوَّى صداها في الداخل والخارج، وكان رد فعل فرنسا على الثورة الجزائرية متوقَّعًا: القتل الجماعي، والاغتيالات، والتشريد والتعذيب، والمحاكمات الجائرة ...

لكن على الرغم من ذلك لم يتخلَّف الشعب الجزائري عن موعد الثورة التحريرية.

كان لهجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م ومؤتمر الصومام ٢٠ أغسطس ١٩٥٦م الأثرُ الإيجابي في فك الحصار على الثورة ودفع قوَّتها، ولمظاهرات ١١ ديسمبر ١٩٦٠م ومظاهرات ١٧ أكتوبر ١٩٦١م دورٌ في إسماع صوت الجزائر في المحافل الدولية.

بعد رفض تام لأي تفاوض، ها هي فرنسا تقبل بالأمر الواقع، وتدخل في مفاوضات مع الثورة الجزائرية، انتهت بإجراء استفتاء لتقرير المصير في يوليو ١٩٦٢م، ثم الإعلان عن استقلال الجزائر في ٥ يوليو ١٩٦٢م بعد حربٍ قدَّم فيها الشعب الجزائري التضحية والفداء وشارك فيها حتى الحيوان.

عهد جديد بعد الاستقلال لاح في سماء الجزائر مبشرًا بالعيش الرغيد في كنف سياسة مستلهمة قواعدها وسياساتها من بيان أول نوفمبر الذي أسَّس مشروعها على قواعد عقدية وتحررية ودوافع للرقي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

إنَّ الجزائر التي تغنَّى بها مفدي زكريا في إلياذته هي جزائر المعجزات في بطولاتها ومبادئها وحبها لتحرُّر الأوطان المضطهدة وغبطتها في الوحدة العربية والمغاربية والإسلامية، إنها جزائر المعجزات في علمائها من صف أبي حمزة والأخضري وأبي مروان والشيخ طفيش محمد بن يوسف وابن الفكون ومحمد القسنطيني وعبد القادر البجاوي وحمدان بن الونيسي وابن باديس والشيخ عاشور، إنها جزائر المعجزات في تواصلها مع العالم العربي والإسلامي، وفي استلهام نخبتها الوطنية من مناهج النهضة الحضارية في المشرق العربي للشيخ رضا ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وتوري السموري وعمر المختار وشامل الداغستاني وسليمان الباروني وشكيب أرسلان.

إنَّها كذلك جزائر المعجزات في حفاظها على ثوابت الأمة وعنايتها بدور العبادة والمساجد، وإقامتها لملتقيات الفكر الإسلامي، وحفاظ نسائها ورجالها وشبابها على مبادئ الدين القويم وارتباطهم بوطنهم المجيد.

هذا رغم زيغ وانحراف بعض المحسوبين على الطبع الأصيل للشعب الجزائري والذين صدر عنهم بعض الانحراف الخلقي.

تلك خاتمة أو خلاصة «ملحمة الجزائر» حاولت أن أقف على أهم المحطات التاريخية التي ذكرها مفدي زكريا في الإلياذة بداية من:

جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات

إلى:

إليك صلاتي وأزكى سلامي بلادي بلادي، الأمان الأمان

إنها إلياذة الجزائر الزاخرة بالمواعظ التاريخية والمفاخر البطولية التي حُقَّ لكل جزائري أن يفخر بها ويحافظ على ما حقَّقه الرعيل السابق من أجل تطورها ونمائها بين الأمم، والبعيدة عن كل عامل من عوامل التفرقة بين الجزائريين.

فيا أيها النَّاس هذي بلادي     ومعبد حبي وحلم فؤادي
وإيمان قلبي وخالص ديني     ومبناه في ملتي واعتقادي

# الملحقات

## ملحق رقم ١

إحصائيات القيم في الإلياذة.

| المقاطع | القيم الجمالية | القيم التاريخية | القيم الوطنية | عدد الأبيات |
|---|---|---|---|---|
| ١ | ١٠ | | | ١٠ |
| ٢ | ٧ | ٢ | ١ | ١٠ |
| ٣ | ٨ | | ٢ | ١٠ |
| ٤ | ٧ | | ٣ | ١٠ |
| ٥ | ٧ | ٣ | | ١٠ |
| ٦ | ٦ | | ٤ | ١٠ |
| ٧ | ٨ | | ٢ | ١٠ |
| ٨ | ٩ | ١ | | ١٠ |
| ٩ | ٥ | ٥ | | ١٠ |
| ١٠ | | ١٠ | | ١٠ |
| ١١ | ٤ | | ٦ | ١٠ |
| ١٢ | ٧ | | ٣ | ١٠ |

| المقاطع | القيم الجمالية | القيم التاريخية | القيم الوطنية | عدد الأبيات |
|---|---|---|---|---|
| ١٣ | ٨ | | ٢ | ١٠ |
| ١٤ | ١٠ | | | ١٠ |
| ١٥ | ٦ | ٤ | | ١٠ |
| ١٦ | ٨ | ١ | ١ | ١٠ |
| ١٧ | ٦ | ١ | ٣ | ١٠ |
| ١٨ | ١٠ | | | ١٠ |
| ١٩ | ٨ | ٢ | | ١٠ |
| ٢٠ | ١ | ٩ | | ١٠ |
| ٢١ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٢٢ | | ٨ | ٢ | ١٠ |
| ٢٣ | ٢ | ٨ | | ١٠ |
| ٢٤ | ٣ | ٢ | ٥ | ١٠ |
| ٢٥ | | ٧ | ٣ | ١٠ |
| ٢٦ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٢٧ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٢٨ | | ٩ | ١ | ١٠ |
| ٢٩ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٣٠ | ٣ | ٧ | | ١٠ |
| ٣١ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٣٢ | ١ | ٩ | | ١٠ |
| ٣٣ | ١ | ٩ | | ١٠ |
| ٣٤ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٣٥ | | ١٠ | | ١٠ |

| المقاطع | القيم الجمالية | القيم التاريخية | القيم الوطنية | عدد الأبيات |
|---|---|---|---|---|
| ٣٦ | | ٧ | ٣ | ١٠ |
| ٣٧ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٣٨ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٣٩ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٤٠ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٤١ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٤٢ | ٥ | ٥ | | ١٠ |
| ٤٣ | ٢ | ٨ | | ١٠ |
| ٤٤ | ٤ | ٦ | | ١٠ |
| ٤٥ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٤٦ | ٣ | ٧ | | ١٠ |
| ٤٧ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٤٨ | ٢ | ٨ | | ١٠ |
| ٤٩ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٥٠ | ٢ | ٨ | | ١٠ |
| ٥١ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٥٢ | ٣ | ٢ | ٥ | ١٠ |
| ٥٣ | | ١ | ٩ | ١٠ |
| ٥٤ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٥٥ | | ٦ | ٤ | ١٠ |
| ٥٦ | ١٠ | | | ١٠ |
| ٥٧ | ٨ | ٢ | | ١٠ |
| ٥٨ | ٨ | ٢ | | ١٠ |

| المقاطع | القيم الجمالية | القيم التاريخية | القيم الوطنية | عدد الأبيات |
|---|---|---|---|---|
| ٥٩ | ٢ | ٨ | | ١٠ |
| ٦٠ | ٧ | ١ | ٢ | ١٠ |
| ٦١ | ٤ | ٤ | ٢ | ١٠ |
| ٦٢ | | ٨ | ٢ | ١٠ |
| ٦٣ | ١٠ | | | ١٠ |
| ٦٤ | | ٩ | ١ | ١٠ |
| ٦٥ | ٤ | ٢ | ٤ | ١٠ |
| ٦٦ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٦٧ | ١ | ١ | ٨ | ١٠ |
| ٦٨ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٦٩ | | ٤ | ٦ | ١٠ |
| ٧٠ | | ٥ | ٥ | ١٠ |
| ٧١ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٧٢ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٧٣ | | ٥ | ٥ | ١٠ |
| ٧٤ | ٢ | ٢ | ٦ | ١٠ |
| ٧٥ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٧٦ | ٢ | ٨ | | ١٠ |
| ٧٧ | | ١٠ | | ١٠ |
| ٧٨ | | ١ | ٩ | ١٠ |
| ٧٩ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٨٠ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٨١ | | | ١٠ | ١٠ |

| المقاطع | القيم الجمالية | القيم التاريخية | القيم الوطنية | عدد الأبيات |
|---|---|---|---|---|
| ٨٢ | | ٢ | ٨ | ١٠ |
| ٨٣ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٨٤ | | ٢ | ٨ | ١٠ |
| ٨٥ | | ١ | ٩ | ١٠ |
| ٨٦ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٨٧ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٨٨ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٨٩ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٩٠ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٩١ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٩٢ | ٨ | ٢ | | ١٠ |
| ٩٣ | ١٠ | ١ | | ١١ |
| ٩٤ | | | ١٠ | ١٠ |
| ٩٥ | | ٣ | ٧ | ١٠ |
| ٩٦ | ٨ | | ٢ | ١٠ |
| ٩٧ | ١٠ | | | ١٠ |
| ٩٨ | ١٠ | | | ١٠ |
| ٩٩ | ١٠ | | | ١٠ |
| ١٠٠ | ١٠ | | | ١٠ |
| الأبيات | ٢٩٠ | ٤٢٨ | ٢٨٣ | ١٠٠١ |
| النسبة | ٢٨,٩٧ | ٤٢,٧٦ | ٢٨,٢٧ | ١٠٠,٠٠ |

# ملحق رقم ٢



ضريح يوبا الثاني وزوجته كيليوباترا سيليني. سيدي راشد-تيبازة. مصنف ضمن التراث العالمي للإنسانية سنة ١٩٨٢م.



ضريح ماسينيسا بالخروب. ولاية قسنطينة. مصنف ضمن التراث الوطني.

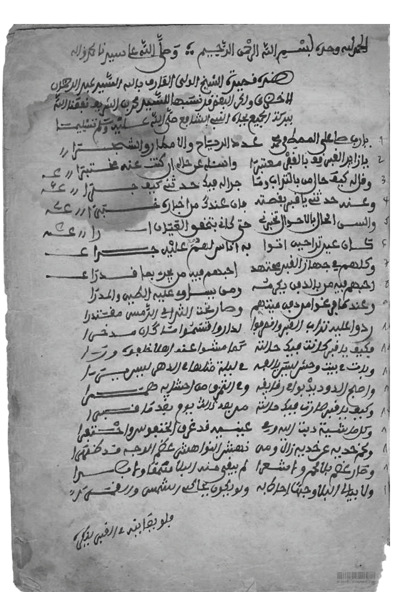


تيمقاد مدينة أثرية رومانية. ولاية باتنة. مصنفة ضمن التراث العالمي.



تيبازة مدينة أثرية رومانية. مصنفة ضمن التراث العالمي.

# ملحق رقم ٣





منظومة الشيخ عبد الرحمن الأخضري، مخطوط ١ و٧/٢.

منظومة الشيخ عبد الرحمن الأخضري، مخطوط ٣ و٤ /٧.

منظومة الشيخ عبد الرحمن الأخضري، مخطوط ٥ و٦/٧.

مخطوط منظومة الشيخ عبد الرحمن الأخضري (المرجع: مدونة سيدي بن عزوز البرجي عن خزانة المخطوطات بالمكتبة الموهوبية ببجاية).

## ملحق رقم ٤

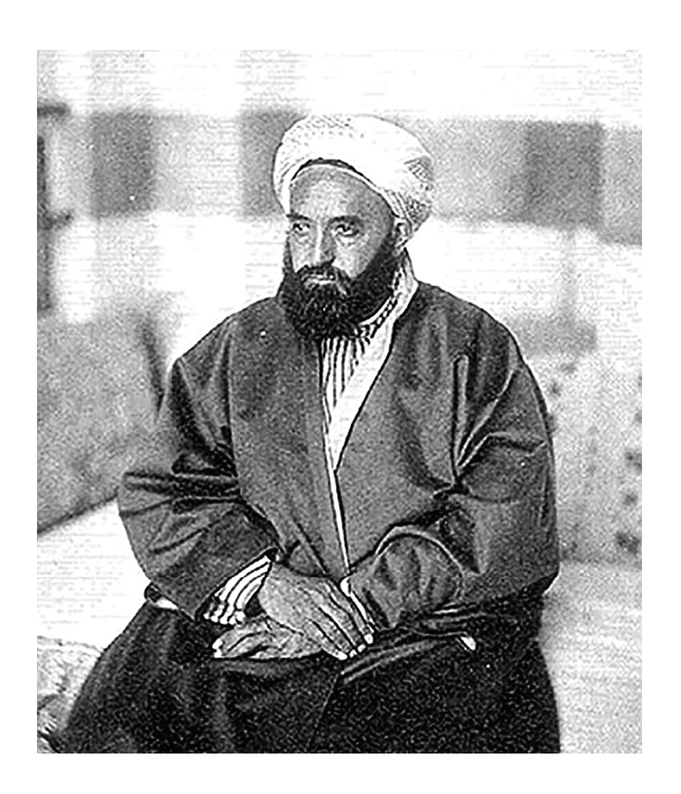


نعته مناداة من سار عسكر امير الجيوش الفرانساوية

الى سكان الجزائر واهالي القبائل

بسم الله المبدي المعيد وبه نستعين

# ملحق رقم ٥



صورة الأمير عبد القادر بن محيي الدين.





مراسيم نقل رفاة الأمير عبد القادر ٥/٧/١٩٦٦م.

# ملحق رقم ٦

Le Maréchal Comte Valée Gouverneur Général des possessions françaises dans le Nord de l'Afrique et l'Emir el-Hâdji Abd-el-qâder ben Mohhi ed-Din représenté par le Caïd Miloud ben Arrach voulant expliquer les termes qui sont restés obscurs et incomplets dans la Convention du 30 mai 1837 et assurer l'exécution de tous les articles de ce traité, sont convenus de ce qui suit :

Article 1er

relatif à l'article 2 de la convention

Dans la province d'Alger les limites du territoire que la France s'est réservé au delà de l'Oued Keddara sont fixées de la manière suivante : le cours de l'Oued Keddara jusqu'à sa source au Mont Thibiarin ; de ce point jusqu'à l'Isser au dessus du pont de Benhini la ligne actuelle de délimitation entre l'Outhân de Khachna et celui des Beni Djaad et au delà de l'Isser jusqu'aux Bibân la route d'Alger à Const-

Fac-similé de la convention additive du 4 juillet 1838 (reproduit par LEYNADIER et CLAUZEL, *Histoire de l'Algérie française.* t. II, 1846, p. 68).

territoire, de manière à ce que le fort de Hamza, la route Royale et tout le territoire au Nord et à l'Est des limites indiquées restent à la France et que la partie du territoire de Beni Djaad, de Hamza et de Ouannougah au Sud et à l'Ouest de ces mêmes limites soit administrée par l'Emir.

Dans la province d'Oran la France conserve le droit de passage sur la route qui conduit actuellement du territoire d'Arzew à celui de Mostaganem; elle pourra, si elle le juge convenable, réparer et entretenir la partie de cette route à l'Est de la Macta qui n'est pas sur le territoire de Mostaganem; mais les réparations seront faites à ses frais et sans préjudice des droits de l'Emir sur le pays.

Article 2.

relatif à l'article 6 de la convention.

L'Emir en remplacement des 30,000 fanègues de blé et des 30000 fanègues d'orge qu'il aurait dû donner à la France avant le 15 Janvier 1838, versera chaque année pendant dix ans 2,000 fanègues (d'Oran) de blé et 2000 fanègues (d'Oran) d'orge.

Les denrées seront livrées à Oran le 1er Janvier de chaque année à dater de 1839. Toutefois dans le cas où la récolte aurait été mauvaise, l'époque de la fourniture serait retardée.

Article 3.

Article 7 de la Convention.

Les armes, la poudre, le soufre et le plomb dont l'Emir aura besoin seront demandés par lui au Gouverneur Général qui les fera livrer

وفي وطن وهران فرانسة لها حق الجواز على
الطريق التي تودي من ارزيو الى مستغانم
واذا شاءت تعدل وتصلح طريق
هذا الطريق على جهة شرق المقطع الذي
ليس هو داخل في ارض مستغانم
ومصروف خدمة وتصليح طريق هذا
الطريق يكون على الفرنسيس بشرط
ان لا يكون لهم حق في شي ولا تحكم
في بلاد الامير الكاين على طريق
هذا الطريق بين ارزيو ومستغانم

الشرط الثاني

الذي يتعلق في الشرط السادس من
الاتفاق المذكور باوله

عوض الثلاثين الف كيل قمح والف كيل
شعير الذي كان على الامير لازم ان
يدفعها قبل اليوم الخامس عشر من
شهر يناير عام ١٨٣٨ فيدفع العين
الفين قمح والعين الفين شعير
في كل عام على ستة عشر اعوام في كيل وهران
ومبدا هذا الدفع يكون في اول يوم من شهر
يناير عام ١٨٣٩ وهكذا في الاعوام الاتية
اللهم اذا ما امكنه دفع كل القدر المذكور باحدى
الاعوام بسبب عدم الصابة فيدفعه
في ما بعد

الشرط الثالث

المتعلق بالشرط السابع من الاتفاق
المذكور باوله

السلاح والرصاص والبارود والكبريت
الذي يحتاج الامير فيطلبهم من كبير خلفا
الجزاير ويعطيها ويحسبوا على الامير قيمتها
على موجب سعرها من الكرا ولا يحسبوا
عليه كراء الحمولة من طولون الى فرنسة

الشرط الرابع

كل ما هو موجود في الاتفاق متاع ٣٠
ثلاثين شهر مايو عام ١٨٣٧
فيلزم محفوظا وباقيا على حاله كما
هو بالشرق فهكذا يكون بالغرب

à Alger au prix de fabrication et sans aucune augmentation pour le transport par mer de Toulon en Afrique.

Article 4.

Toutes les dispositions du traité du 30 mai 1837 qui ne sont pas modifiées par la présente convention continueront à recevoir leur pleine et entière exécution tant dans l'Est que dans l'Ouest.

Alger, le 4 Juillet 1839.

Le Maréchal Gouverneur Général des possessions françaises au Nord de l'Afrique.

Valée

ثم وكتب يوم الاربعاء الذي هو رابع يوم من
شهر جوليو الذي هو من [illegible]
بدار الامارة بالجزائر

قد وافقت
على هذه الشروط
ان قبلها سيدي
السيد الحاج
عبد القادر [illegible]

Le gros cachet rond est celui du maréchal valée, le plus petit est celui de l'envoyé d'Abd el-Kader Mouloud ben Arrach.

# ملحق رقم ٧

## EN ALGÉRIE DE 1830 A 1857

Ses avis, en particulier sur le choix de Sidi-Ferruch comme point de débarquement et l'attaque de Fort-l'Empereur furent suivis à la lettre. Malgré cela on est obligé de constater que le commandement et la troupe ignoraient tout du pays, du climat, des indigènes et de leur façon de combattre. L'infanterie manœuvrait comme elle l'aurait fait sur un champ de bataille européen ; elle subit des pertes, des peines et des fatigues qu'elle aurait pu éviter ; l'artillerie et le génie montrant plus de souplesse et d'imagination jouèrent dans les opérations d'Alger un rôle de premier plan. L'équipement de la troupe avait été négligé, aucune étude n'avait été faite à cet égard. Habillés et équipés comme pour une campagne en Europe, les soldats trop lourdement chargés supportèrent avec peine les chaleurs de l'été algérien.

Si les pertes au combat furent légères, au cours du débarquement et dans les deux mois qui le suivirent (403 tués), la maladie dans le même temps fit mourir 800 hommes.

Après la prise d'Alger, en raison de l'insuffisance de l'intendance et du service de santé, du manque d'autorité des cadres et du relâchement de la discipline, une grave crise du moral sévit dans l'armée. Nombreux furent les officiers et soldats qui demandèrent à rentrer en France.

Et cependant la nouvelle de l'expédition d'Alger avait suscité un grand enthousiasme dans l'Armée, qui avait gardé une certaine nostalgie de l'époque napoléonienne : des chefs de corps intriguaient pour faire intégrer leurs régiments dans les forces du général de Bourmont, des officiers rendaient leurs galons pour partir comme sous-officiers ou simples soldats, le lieutenant de Mac-Mahon renonçait à la cavalerie pour débarquer en Algérie dans une unité d'infanterie.

La prise d'Alger eut un grand retentissement international. En 1551, la formidable expédition de Charles Quint contre Alger aux mains d'Aroudj Barberousse avait échoué. « La défaite de Charles Quint, souligne Florian Pharaon, dans son ouvrage : Voyage en Algérie de Sa Majesté Napoléon III, fut la constatation de la puissance d'Alger. Pendant près de trois cents ans, l'Espagne, l'Angleterre, la Hollande, le Danemark, les Etats-Unis, les puissantes républiques de Gênes et de Venise envoient leurs flottes pour détruire l'audacieuse cité. » « Il était réservé à la France, dit Henri Noguères, dans son livre, L'expédition d'Alger - 1830, de faire cesser ce scandale séculaire... en envoyant sur la côte africaine ses soldats à vêtements rouges. »

L'ordre du jour du général de Bourmont en date du 8 juillet 1830 affirmait la fierté de l'Armée d'avoir renversé une situation humiliante et préjudiciable aux intérêts européens en battant les Turcs du dey d'Alger et s'emparant de sa capitale en quelques jours :

« Vingt jours ont suffi pour la destruction de cet Etat, dont l'existence fatiguait l'Europe depuis tant de siècles. La reconnaissance de toutes nations civilisées sera pour l'armée d'expédition le fruit le plus précieux de ses victoires. »

Au quartier général de la Casbah, le 8 juillet 1830.
Comte de Bourmont.

Source: Relation de la guerre d'Afrique: pendant les années 1830–1831, Claude Antoine Rozet, volume 1, Fimin Didot frêres, Paris, 1831, page 268 (وثيقة رقمية).

# ملحق رقم ٨



ASSOCIATION
DES "OULAMA" D'ALGÉRIE

Bureau de la Présidence
13, Rue Alexis-Lambert, 13
CONSTANTINE

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

مكتب الرئاسة
نهج الأربعين شريف عدد ١٣ قسنطينة

قسنطينة في { ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ / ٥ يوليو سنة ١٩٣٧ }

إلى جناب صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الأستاذ الإمام مصطفى المراغي أدامه الله للمسلمين ركنا ولتراث الإسلام حافظا أمينا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فإن الخلافة الإسلامية العلمية عرشها اليوم وقبل اليوم هو الأزهر، وبفضيلتكم تحتلون ذروة هذا العرش الرباني - خليفة المسلمين العلمي ولواء المسلمين - وهم كلهم يعترفون بهذا. أبرزوا إلى حيز العمل والتنفيذ لاستردوا لهم ما هم بأشد الحاجة إليه من معاني الخلافة. وأحسب أن من أحسن الوسائل لإبراز هذا المعنى، وتحقيقه اتصال الأزهر بالأمم الإسلامية من أقطار الأرض بالمتفقهين يرسلهم إليها وبالبعثات العلمية ترسلها إليه. ومن فضل الله أن هذا قد شرع فيه فعلا في بعض الأقطار كالهند ونرجو أن يتم في بقيتها.

ولما كانت جمعيتنا قد أخذت على نفسها خدمة المسلمين الجزائريين في دائرة العلم والدين رأت أن من واجبها أن تسعى في إيفاد بعثة لكرع العلم من مناهل الأزهر الشريف.

ومما يسهل عليها ذلك أن تعرف أن الأزهر يأوي تلك البعثة مثل البعثات الإسلامية الأخرى فلهذا أتقدم باسم الجمعية لفضيلتكم ملتمسا إبداء رأيكم السديد ونصحكم الأبوي وإنني في انتظار التشرف بجوابكم الكريم. أدامكم الله للإسلام والمسلمين

والسلام عليكم ورحمة الله من عبد الحميد بن باديس
رئيس الجمعية

عن موقع أحمد توفيق المدني www.elmadani.org.

# ملحق رقم ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض في ٢٣ شعبان ١٣٧٥

الأخ المحترم الشيخ عمر دردور حفظه الله وعافاه

سلام عليكم وتحيات مباركات

وصلتني رسالتكم وحمدت الله على صحتكم وسلامتكم أما أنا فإنني مازلت متعبا من أعصابي والانشغال الذي طال بي من سنتين، وكذلك الحمى التي أصابتني بمكة هي التي هيجت علي مرض الأعصاب من جديد.

أنا أعمل للجزائر ولوجه الله والعمل والله تعالى يتولانا بعونه ونصره، فلا أمل إلا فيه ولا اعتماد إلا عليه، ورجاؤنا في الانتصار على العجوز قوي جدا.

أحوال الطلبة هنا في غاية فقد برزت لهم جميع النفقات الملائمة وقد نجحوا كلهم في الامتحان مع أن لهم ستة أشهر فقط ومشايخهم يشكرونهم ويشهدون لهم بالاجتهاد وقد دبرت لهم سيارة حكومية مخصوصة ذات ١٠ مقاعد تحملهم إلى مكة ليعتمروا ثم إلى جدة ليجددوا جوازاتهم ثم إلى المدينة ليقضوا بها أربعة أشهر مدة العطلة وكل واحد منهم يحمل ما لا يقل عن مائة وخمسين جنيها.

ولكن الأستاذ التارزي يشوش عليهم يكتب إلى أخيه يطلب منه الرجوع العاجل لتمضية [illegible] ويقضي له الصيف بالمدينة، وكل كلامه غير مقبول ولا معقول بل هو [illegible] وقد كتبت له رسالة ليترك الطلبة يدرسون ولا يدبر عليهم هذه التدبيرات التي لا فائدة فيها لهم وليشتغل بدراسته الخصوصية، فأرجو أن تخاطبه في هذا ليكف عن تشويش الطلبة خصوصا والفلوس التي يعيش بها أخوه هنا تكفيه شهرا في مصر [illegible] في البلدين، وهؤلاء طلبة فليتعودوا على كل شيء. إنني زعلان من عمل الأستاذ التارزي لأنه لا يشوش على أخيه فقط بل يشوش على عقول الطلبة الضعفاء، وإذا كان لا بد من سفر أخيه إلى مصر فليكن بعد سنة أخرى لا سيما وقد استقام تعليمه وهو مسرور بالنتيجة الأدبية والعلمية.

أما طلبة مصر فكلكم عملتم بكل [illegible]، ولتعلمهم أن باب [illegible] مسدود وإني لا أستطيع أن أقترض بعد الآن فلسا واحدا لأعينهم به ولا أستطيع أن أتولى لهم [illegible] وقد تبت إلى الله من هذه التجربة. سلامي إلى الأستاذ عبد الرحمن [illegible] والصادق والتارزي وجميع الطلبة الجزائريين وعليكم السلام من أخيكم محمد البشير الإبراهيمي

عن موقع أحمد توفيق المدني www.elmadani.org.

# ملحق رقم ١٠

المطبعة الجزائرية الاسلامية بقسنطينة

أسستها نخبة من الشبيبة لخدمة اللغة والنهضة الجزائرية عام ١٣٤٣ هـ

IMPRIMERIE ALGÉRIENNE MUSULMANE
FONDÉE EN 1925
13, Rue Alexis-Lambert — CONSTANTINE (Algérie)

IMPRIMÉS
Arabes et Français
Travaux de Luxe
Administratifs Commerciaux
TÊTES DE LETTRES
ENVELOPPES
FACTURES
MÉMORANDUMS
CARTES DE VISITE
Carnets de Bon et de Reçus
AFFICHES
ET
PROGRAMMES
EN
COULEURS

جميع انواع المطبوعات
للمحاكم والادارات
عربية وفرنسوية
من رؤوس اجوبة
وغلافات وفتورات
وميموراندوم
وبطاقات العرضة
والزيارة
ووصيل الكرانوالالات
وغيرها بجميع الالوان

قسنطينة في ........ ١٩٢

TÉLÉPHONE 5-15 — Constantine le ١٧ سبتمبر 1928 — R.C.C.N° 2505

صديقنا الأديب الفاضل السيد أحمد توفيق المدني أحييكم تحية مباركة طيبة وأرجو من فضلكم أن تفرغوا لي وقتا للاجابة عن سؤالين:

الأول ماذا صنعتم بالنسخ العشرين التي وجهتها الى فضلكم منذ أمد؟ وإن بقيت تحت يدكم فإعادتها الى ادارة الشهاب أولى من اشغالكم بترويجها

الثاني هل في استطاعتكم أن تعربوا لي فصولا من كتاب كاريت الموضوع في بيان مراكز قبائل الجزائر وأصولها؟ قد ذكر لي ولدنا المبروك عند مازاركم بالجزائر أنكم في استعداد لذلك. فبفضل جهركم [illegible] الكتاب. وأتاني به فعرب لي. وهذه الفصول التي أرجو منكم إن أمكنكم تعريبها:

الكتاب الثالث الفصل السادس: «ولاية البرابر على المغرب وهجوم البطون العربية»

الفصل السابع : «تقدم العرب في الوطن تحت الولاية البربرية»

الفصل التاسع : «توزيع البطون بين الممالك البربرية عند هجوم العرب في القرن الحادي عشر»

وهذا اسم كتاب كاريت على ما عرب لي:

«ترحلات بطون البرابر الجزائري وأصولها»

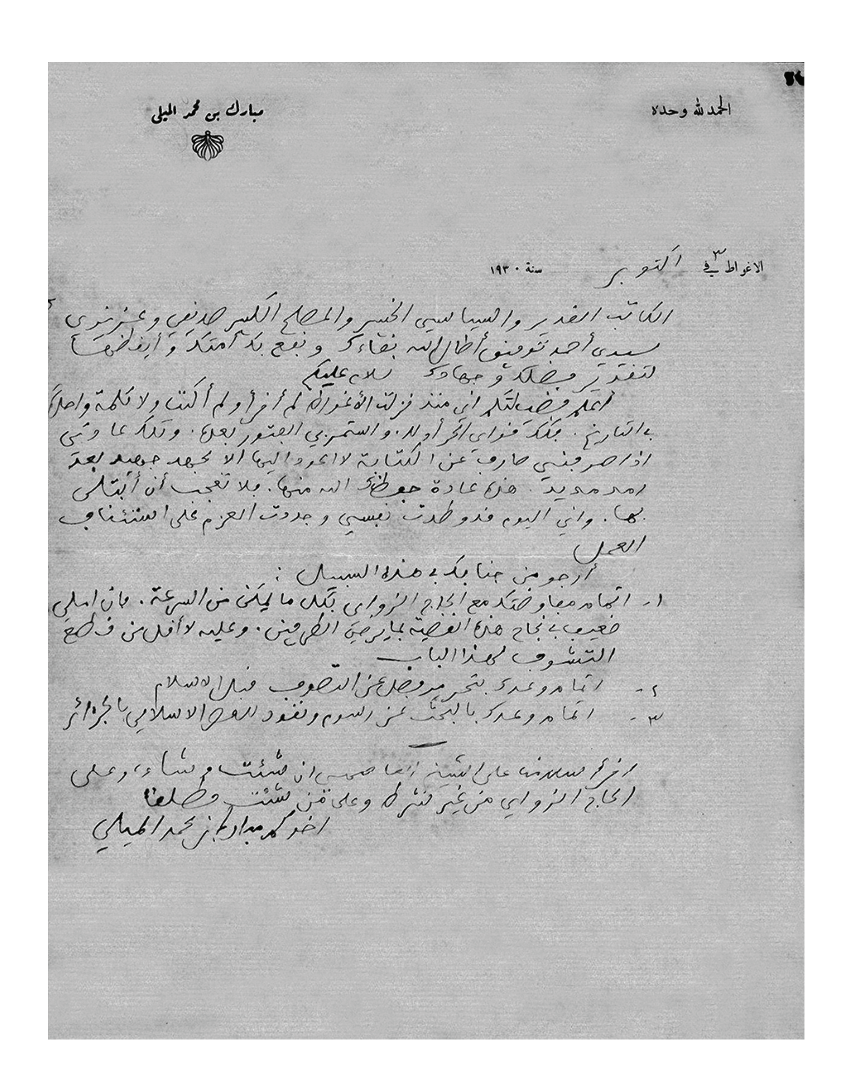
إني معتمد على صداقتكم الشخصية وإخلاصكم للمشاريع الوطنية في القيام بهذا العمل الشاق. وأرجو أن تسرعوا بإجابتي على كل حال. والجواب يعنون باسمي الى ميلة

اقرأوا سلامنا على الشيخ العاصمي الذي يجب أن يلوم ولا أدري أيجب أن يلام؟

ودمتم في الخير ساعين وعليه معينين وللوطن ناصرين

أخوكم مبارك بن محمد الميلي

عن موقع أحمد توفيق المدني www.elmadani.org.



الحمد لله وحده

مبارك بن محمد الميلي

الاغواط في ٣ اكتوبر سنة ١٩٣٠

الكاتب القدير والسياسي الخبير والمصلح الكبير صديقي وعزيزي سيدي أحمد توفيق أطال الله بقاءكم ونفع بكم أمتكم وأيقظها لتقدير فضلكم وجهادكم. سلام عليكم

أعلم فضيلتكم أني منذ نزلت الأغواط لم أقرأ ولم أكتب ولا كلمة واحدة بالتاريخ. [illegible] والستمر [illegible] بعد. وتلك عادتي إذا صرفني صارف عن الكتابة لا أعود إليها إلا بجهد جهيد بعد أمد مديد. هذه عادة حفظك الله منها. فلا تعجب أن أبتلى بها. وإني اليوم قد وطدت نفسي وجددت العزم على استئناف العمل

أرجو من جنابكم في هذه السبيل:

١- إتمام مفاوضتكم مع الحاج الزواوي بكل ما يمكن من السرعة. فإن أملي ضعيف في نجاح هذه القضية بإرضاء الطرفين. وعليه لا أقل من قطع التشوف لهذا الباب.

٢- إتمام وعدكم بتحرير فصل عن التصوف قبل الإسلام

٣- إتمام وعدكم بالبحث عن السوم ونفوذ العرق الإسلامي بالجزائر

أبلغوا سلامنا على الشيخ [illegible] إن شئت ومن شاء، وعلى الحاج الزواوي من غير [illegible] وعلى من شئت مطلقا.

أخوكم مبارك بن محمد الميلي

عن موقع أحمد توفيق المدني www.elmadani.org.

الحمد لله — والصلاة والسلام على رسوله الأمين

ميلة ١٩-١١-١٩٣٨

الوطني الصادق والكاتب المجيد الأخ الكبير سيدي أحمد توفيق
المدني سلام كشمائلكم لطفا
أما بعد فقد تناولت منذ أمد رسالتكم المؤرخة بثالث أكتوبر. ولم أكاتبكم
هذه المدة لوعدكم بالإسراع بكتاب آخر ولاشتغال فكري - علاوة على
ضرورياتي - بما هو خارج عن برنامج حياتي واضطرتني إليه الأقدار
تضمنت تلك الرسالة إعلامي باتصالكم بالنسخ والوعد بتعريب
الفصول المطلوبة من كتاب كاريت. فإذا كاتبتني عن هذين فكاتبني إلى
الأغواط فإني عائد إليها عما قريب. وإني أسأل الله لي ولك ما سألت
لي في تلك الرسالة من قليل الإعانة وكثير الصبر. فإنه - والله - سؤال من
عرف الأمة وخبر آمالها وأعمالها. غير أن صبري يتضعضع لديك ولدي أيضا
إذا كان جنابكم من القليلين المعينين لي

ولقد شجعتني بوعودك التي أتحقق أنك تفي بها على أن أحملك
كلفة أخرى لا أرى غيركم يحسن القيام بها ولو كان ممن يوجهون لجهودهم.
هذه الكلفة هي البحث عن كتاب للعدواني أظنه رحلة له. وقد بلغني
أنه يهم عملي كثيرا. وتسهيلا عليك في البحث أوقفك على نتيجة بحثي
عنه. ذلك أني رأيت بعض النقل عنه في كتاب فرنسي تعريب التسمية:
«عصور المغرب المظلمة»، مؤلفه غوتيه أحد أساتذة الكلية بالجزائر.
ثم ذكره في مآخذه العربية. وكان صديقي السيد [illegible] الترجمان بميلة يعرف
هذا المؤلف. فكاتبه مسترشدا عن كتاب العدواني. فأجابه بأنه لا يعرف
أصله العربي، وإنما نقل عنه بواسطة فيرو المتوفى. ثم هو لا يدري
هل فيرو ذكر المكتبة التي بها النص العربي؟ قال: ولعل زميلي الأستاذ
ابن شنب له علم بمظان هذا الكتاب. فهلا تخاطبه أو تكاتب السيد مصطفى عبد
اللطيف حافظ المكتبة البلدية بالجزائر

وحيث بلغت هذه النقطة من البحث رأيت أن أكاتب أحدا ممن ذكر غوتيه
ولكن لجهلي بعنوانيهما كاتبت جنابكم معتمدا على عنايتكم في استرشادهما
عن هذا الكتاب النفيس لفائدته وغرابته أو لغرابته فقط، فالاطلاع عليه مفيد
كيفما كان. وإني أرجو أن تخبرني بنتيجة بحثك إلى الأغواط

ودمتم للعلم والوطن ولأخيكم: مبارك بن محمد الميلي

عن موقع أحمد توفيق المدني www.elmadani.org.

## ملحق رقم ١١



بسم الله الرحمن الرحيم

نداء إلى الشعب الجزائري

هذا هو نص أول نداء وجهته الكتابة العامة لجبهة التحرير الوطني إلى الشعب الجزائري في أول نوفمبر 1954

أيها الشعب الجزائري،
أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية،

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا -نعني الشعب بصفة عامة، والمناضلين بصفة خاصة- نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي، ورغبتنا أيضا هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الإمبريالية وعملاؤها الإداريون وبعض محترفي السياسة الانتهازية.

فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية -بعد مراحل من الكفاح- قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. فإذا كان هدف أي حركة ثورية -في الواقع- هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحدا حول قضية الاستقلال والعمل، أما في الأوضاع الخارجية فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين. إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال إفريقيا. ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل. هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاثة.

إن كل واحد منها اندفع اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث، وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة، نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين، توجيهها سيء، محرومة من سند الرأي العام الضروري، قد تجاوزتها الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحا ظنا منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة.

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح علاجها مستحيلا، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة، أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات، لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين.

وبهذا الصدد، فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية.

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم: جبهة التحرير الوطني.

وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر.

ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي.

الهدف: الاستقلال الوطني بواسطة:

1- إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية.
2- احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية:

1- التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي كانت عاملا هاما في تخلفنا الحالي.
2- تجميع وتنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري.

الأهداف الخارجية:

1- تدويل القضية الجزائرية.
2- تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي والإسلامي.
3- في إطار ميثاق الأمم المتحدة نؤكد عطفنا الفعال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية.

وسائل الكفاح: انسجاما مع المبادئ الثورية، واعتبارا للأوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا.

إن جبهة التحرير الوطني، لكي تحقق هدفها يجب عليها أن تنجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد وهما: العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض، والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله، وذلك بمساندة كل حلفائنا الطبيعيين.

إن هذه مهمة شاقة ثقيلة العبء، وتتطلب كل القوى وتعبئة كل الموارد الوطنية، وحقيقة إن الكفاح سيكون طويلا ولكن النصر محقق.

وفي الأخير، وتحاشيا للتأويلات الخاطئة وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، وتحديدا للخسائر البشرية وإراقة الدماء، فقد أعددنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة، إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة، وتعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها.

1- الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.
2- فتح مفاوضات مع الممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.
3- خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع كل الإجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.

وفي المقابل:

1- فإن المصالح الفرنسية، ثقافية كانت أو اقتصادية، والمحصل عليها بنزاهة، ستحترم وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات.
2- جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية ويعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات.
3- تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

أيها الجزائري، إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة، وواجبك هو أن تنضم لإنقاذ بلدنا والعمل على أن نسترجع له حريته، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك، وانتصارها هو انتصارك.

أما نحن، العازمون على مواصلة الكفاح، الواثقون من مشاعرك المناهضة للإمبريالية، فإننا نقدم للوطن أنفس ما نملك.

فاتح نوفمبر 1954

## ملحق رقم ١٢



# النشيد الوطني الجزائري

قسماً بالنازلات الماحقات — والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات — في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات — وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا..

نحن جند في سبيل الحق ثرنا — وإلى استقلالنا بالحرب قمنا

لم يكن يصغى لنا لما نطقنا — فاتخذنا رنة البارود وزنا

وعزفنا نغمة الرشاش لحنا — وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا..

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب — وطويناه كما يطوى الكتاب

يا فرنسا إن ذا يوم الحساب — فاستعدي وخذي منا الجواب

إن في ثورتنا فصل الخطاب — وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا..

نحن من أبطالنا ندفع جندا — وعلى أشلائنا نصنع مجدا

وعلى أرواحنا نصعد خلدا — وعلى هاماتنا نرفع بندا

جبهة التحرير أعطيناك عهدا — وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا..

صرخة الأوطان من ساح الفدا — اسمعوها واستجيبوا للندا

واكتبوها بدماء الشهداء — واقرأوها لبني الجيل غدا

قد مددنا لك يا مجد يدا — وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا..

شعر: مفدي زكرياء — تلحين: محمد فوزي

## ملحق رقم ١٣



Pages 6 et 7 : DEUX ANS DE NÉGOCIATIONS AVEC LE F.L.N., par Serge BROMBERGER

BAGNOLES-DE-L'ORNE
TESSÉ-LA-MADELEINE
PHLÉBITES - VARICES
5 MAI — 25 SEPTEMBRE

# LE FIGARO

ÉDITION DE 5 HEURES

LUNDI 19 MARS 1962

DIRECTEUR : Pierre BRISSON

78e JOUR DE L'ANNÉE

# MIDI : CESSEZ-LE-FEU EN ALGÉRIE

## DEMAIN

## LE GÉNÉRAL DE GAULLE :

"Qui sait si la lutte et le sacrifice des morts n'auront pas aidé les deux peuples à mieux comprendre qu'ils sont faits pour marcher fraternellement ?"

• CET APRÈS-MIDI : Conseil des ministres à l'Élysée

• DEMAIN MATIN : Session extraordinaire du Parlement (message du président de la République, communication du gouvernement, débat)

• DIMANCHE 8 AVRIL :

RÉFÉRENDUM

(date probable)

PREMIÈRES RÉACTIONS :

ALGER : Atmosphère brusquement alourdie hier soir

## Accord conclu hier à 17 h. 40 à Évian

• DÉCLARATION GÉNÉRALE :

"La coopération de la France et de l'Algérie répond aux intérêts des deux pays"

• BEN KHEDDA A TUNIS :

"J'ordonne à toutes les troupes de l'A. L. N. d'arrêter les combats"

BEN BELLA ET SES COMPAGNONS REGAGNENT RABAT VIA GENÈVE

PAGES 4 à 10 :

Les dépêches de Serge BROMBERGER J.-F. CHAUVEL

ORDRE DU JOUR DU GÉNÉRAL AILLERET AUX TROUPES :

« CESSEZ LE FEU »

INSTANTS ET VISAGES

EN SONGEANT

## ملحق رقم ١٤

**RÉFÉRENDUM D'AUTODÉTERMINATION**

**DU 1er JUILLET 1962**

Voulez-vous que l'Algérie devienne un État indépendant coopérant avec la France dans les conditions définies par les déclarations du 19 mars 1962?

هَلْ تُرِيدُ أَنْ تُصْبِحَ الْجَزَائِر دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً مُتَعَاوِنَةً مَعَ فِرَنْسَا حَسَبَ الشُرُوطِ الْمُقَرَّرَةِ فِي تَصْرِيحَاتِ ١٩ مَارس ١٩٦٢؟

| نعم | OUI |
|---|---|

# ملحق رقم ١٥



صورة عن مجازر ٨ مايو ١٩٤٥م.



مشهد من مشاهد إذلال واحتقار وتعذيب الشعب الجزائري في أبشع صوره.

## ملحق رقم ١٦



﴿وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ولْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ ورَائِكُمْ ولْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ولْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأَسْلِحَتَهُمْ ودَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً ولَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (سورة النساء: ١٠٢).

# المراجع


- ابن الأحمر، «تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان» — تحقيق هاني سلامة — مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠١م.
- أبو القاسم سعد الله، «أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر»، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م.
- أبو القاسم سعد الله، «محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، الجزائر، ١٩٨٢م.
- أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، «طوق الحمامة في الألفة والألاف»، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٣١م.
- أحمد توفيق المدني، «قرطاجنة في أربعة عصور، من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م.
- أحمد توفيق المدني، «كتاب الجزائر»، المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٣١م.
- آغا بن عودة المزاري، «طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر»، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٩٠م.
- بوزياني الدراجي، «عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوَّق في عصره»، الطبعة الثانية، البلاد، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص١٤.
- جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، «تفسير الجلالين»، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.
- شاوش حبَّاسي، «من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر ١٨٣٠–١٩٦٢م»، دار هومة، الجزائر، ١٩٩٨م.

- صالح بن قربة، سامية بوعمران وخالف محمد نجيب، «تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر»، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، الجزائر، ٢٠٠٧م.
- عبد الحليم عويس، «دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري»، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م.
- عبد الرحمن بن خلدون، «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، «تاريخ الجزائر العام»، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٥م.
- عبد الرحمن الثعالبي، «غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد»، تحقيق محمد شايب شريف، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥م.
- عبد الكريم الفكون، «منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية»، تقديم وتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧م.
- علاوة عمارة، «دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨م.
- عمار بوحوش، «التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢»، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م.
- عمورة عمار، «موجز في تاريخ الجزائر»، دار ريحانه للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- غنيمي هلال، «الأدب المقارن»، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- فتيحة فرحاتي، «نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني، الحياة السياسية والحضارية (٢١٣–٤٦ق.م)» منشورات أبيك، الجزائر، ٢٠٠٧م.
- مبارك بن محمد الميلي، «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م.
- محمد الهادي جارش، «التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي»، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٩٢م.

- محمد بن عبد الله التنسي، «تاريخ بني زيان ملوك تلمسان»، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١١م.
- محمد بن لخضر فورار، «أبحاث في اللغة والأدب الجزائري»، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر ببسكرة، العدد الثامن، ٢٠١٢م.
- محمد حسن العيدروس، «المغرب العربي في العصر الإسلامي»، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- محمد رجب البيومي، «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، ١٩٩٥م.
- محمد كمال سليمان حمادة، «الخطاب الشعري عند ابن حمديس الصقلي»، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٢م.
- محمود آغا بوعياد، «تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان»، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١١م.
- محمود شاكر، «التاريخ الإسلامي: التاريخ المعاصر، بلاد المغرب»، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م.
- مفدي زكريا، «إلياذة الجزائر»، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧م.
- مفدي زكريا، «أمجادنا تتكلم»، جمع وتحقيق مصطفى بن الحاج بكير حمودة، مؤسسة مفدي زكرياء والوكالة الوطنية للإشهار، الجزائر، ٢٠٠٣م.
- مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠»، دار الأمة، الجزء الثاني، الجزائر، ٢٠٠٧م.
- نبيل أحمد بلاسي، «الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي، «معجم البلدان».

# إلياذة الجزائر

# مقدمة الطبعة الأولى

# إلياذة الجزائر

في آخر الملتقى الخامس للتعرُّف على الفكر الإسلامي في وهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م أعلنا أن الملتقى السادس سينعقد بعاصمة الجزائر بمناسبة العيد العاشر لاسترجاع استقلالنا والذكرى الألفية لتأسيسها مع المدية ومليانة على يدي بلكين بن زيري.

ووفاء بوعدنا، ركَّزنا جدول أعمال هذا الملتقى على التاريخ، لمراجعته، وكتابته من جديد، وتصفيته من جميع ما علق به عن روية وسبق إصرار من شوائب وتزييفات، لمعرفة ماضينا، والاستفادة من تجاربه في بناء حاضرنا ومستقبلنا، في الجزائر والمغرب الكبير، والعالم الإسلامي الأوسع.

ولهذا طلبنا من المناضل الكبير، الشاعر الملهم، شاعر الكفاح الثوري السياسي، وشاعر الكفاح الثوري المسلح، الأستاذ مفدي زكريا، صاحب الأناشيد الوطنية «من جبالنا طلع صوت الأحرار» سنة ١٩٣٢م، و«فداء الجزائر روحي ومالي» سنة ١٩٣٦م، و«قسمًا» سنة ١٩٥٥م، و«اعصفي يا رياح»، ونشيد جيش التحرير الوطني، ونشيد العمال، ونشيد الطلبة، واللهب المقدَّس — وبعضها وضعها في سجن السركاجي — أقول طلبنا منه أن يضع لنا نشيدًا جديدًا يجمع هذه الأناشيد كلها، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم، مُركِزًا على مقاومتنا لمختلف الاحتلالات الأجنبية، وعلى العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة، وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتنا، ومقومات شخصيتنا وحصانتنا، وبناء مجد جديد لأمتنا.

وهذا ما فعله مفدي، وسمينا نشيد الأناشيد هذا: إلياذة الجزائر! وقد تمت الإلياذة الآن، وننشرها كاملة في هذه الطبعة، كما ننوي نشرها فيما بعد منفردة، مرفقة بصور رمزية وواقعية تُجسم بعض معانيها.

الجزائر ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م
مولود قاسم نايت بلقاسم

# مقدمة الطبعة الثانية

هذه المقدمة القصيرة وضعتها لطبع الإلياذة في صيف ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، بطلب من شاعرنا مفدي زكريا، وموافقته على كل سطر؛ بل على كل كلمة منها، والتفاصيل عن الأناشيد زودني بها هو نفسه — رحمه الله — وصدرت هذه المقدمة مع الإلياذة كاملة سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م في حياة شاعرنا الذي تُوفي — خمس سنين بعد ذلك — يوم الأربعاء الثاني من رمضان المعظم ١٣٩٧هـ/١٧ أغسطس ١٩٧٧م.

وقد تحمَّس مفدي لفكرة نظم هذه الإلياذة بمجرَّد أن تلقَّى رسالتي، في بدء ١٣٩٢هـ/بدء ١٩٧٢م، وعبَّر عن استعداده المطلق لتنفيذها، وتعاونَّا نحن الثلاثة: المرحومين مفدي زكريا وعثمان الكعاك، وكاتب هذه السطور، في وضع المقاطع التاريخية، فكنَّا نتهاتف ليلًا، خاصة، وكانت البادرة في هذا الهتاف الليلي تعود غالبًا إلى مفدي، الذي كان ينظم الإلياذة ليلًا، وعندما يتوقَّف عند نقطةٍ تاريخيةٍ ما، ويود التأكد والاطمئنان، يهتف من الرباط؛ حيث كان مديرًا لجامعةٍ شعبية، إليَّ في الجزائر، وإلى الأستاذ عثمان الكعاك في تونس ... وهكذا كان ذلك الحوار الثلاثي الليلي عن تاريخ الجزائر، بالذات، وبصفة أخص، وعن التاريخ المغربي عمومًا، وعن التاريخ الإسلامي بصفة أعم، بين هذه العواصم المغربية الثلاث، لتستقر النتيجة، وتتركز، وتُسجل، وتُخلد في عاصمة الجزائر، مقر الملتقى، وصاحبة البادرة في الإلياذة، كنقطة الارتكاز والمنطلق، تشع منها الإلياذة على مجموع المغرب، والأمة الإسلامية كلها، لتخلد ذات يوم في التراث البشري العام، تخلد خلود الإنسان.

هذا فضلًا عن المراسلة المستمرة، التي كنت أقترح فيها عليه بعض النقاط وأعرضها عليه لإدراجها في الإلياذة، والتي كان يرسل إليَّ في ثناياها بالمقاطع أولًا بأول، لأدفع بها

إلى الخطاط الأستاذ عبد المجيد غالب الذي ينقلها بخطه الجميل الرائع؛ لأن خط مفدي، وإن كان أحسن من خطي بكثير، وبلا مقارنة، إلا أنه لم يكن في مستوى الإلياذة.

هكذا نشأت إلياذة الجزائر، إذن، ونَمَت، وترعرعت، ووصلت في ظرفِ بضعة أشهر إلى ستمائة وعشرة أبيات أنشدها مفدي، بصوته، ونبراته، وصرخاته، وإشاراته، وصيحاته، وسخرياته، وتهللاته، وغضباته، وتعجُّباته، في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي في قاعة المؤتمرات من قصر الأمم «نادي الصنوبر» يوم ١٣ جمادى الثانية ١٣٩٢هـ/ ٢٤ يوليو ١٩٧٢م أمام أكثر من ألف طالب وأستاذ جامعي من القارات الخمس، وبحضور مسئولين كثيرين، منهم الإخوة محمد الشريف مساعدية، والدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، والمرحوم محمد بن يحيى، والعربي الطيبي، كما حضر جزءًا من إنشادها المرحوم الرئيس هواري بومدين، الذي استقبل مفديًّا في مكتبه بالرئاسة بعد اختتام الملتقى، وعبَّر له عن كل إعجابه بالأثر الخالد الباقي، وكنت وسيط الخير في ذلك اللقاء.

وبعد ذلك واصلت الإلياذة مسيرتها؛ أي واصل مفدي نظْمها، إلى أن بلغت الواحد بعد الألف؛ أي الألف بيت وبيتًا (١٠٠١) أو: الألف يوم ويومًا، من الأيام الخالدة، في تاريخ هذه الأمة الخالدة، وتمجيد الخلود، والخلود لله، والعرب كانت تسمي التاريخ «الأيام»!

ولئن لم ينشد مفدي زكريا بصوته الخالد إلا الستمائة والعشرة أبيات منها، سجلتها التلفزة والإذاعة حين إنشادها في القاعة المذكورة، أمام جميع الملتقين؛ فقد طُبعت الإلياذة بعد ذلك كاملة، بعد أن أتمَّها مفدي، بالألف بيت والبيت، في الجزء الأول من كتاب الملتقى السادس للفكر الإسلامي، وطُبعت ترجمتها أيضًا إلى الفرنسية في الطبعة باللغة الفرنسية التي لا تكاد تَقِلُّ في روعتها وجمالها عن الأصل (من ترجمة الأستاذ الطاهر بوشوشي، نشر وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، طبع دار البعث بقسنطينة)، وكلٌّ من الطبعتين في خمس وعشرين ألف نسخة.

وسميناها: إلياذة الجزائر، وإن كانت تمتاز عن إلياذة هوميروس بالفارق العملاق: فبينما هذه الأخيرة؛ أي الإلياذة اليونانية، لا تروي إلا أساطير، نجد الإلياذة الجزائرية قد خلَّدت أمجادًا حقيقية، وسطَّرت تاريخ وقائع وأحداث هي من روائع الدهر، لا من خلق الجن، ولا من اصطناع شاعر، ولكن من صنع الإنسان الجزائري في الميدان!

وقد قسَّمها مفدي إلى جزأين: قسم الجمال؛ أي الجمال الطبيعي للبلاد، وقسم الجلال؛ أي المجد التاريخي، وإن تداخل القسمان أحيانًا.

والإلياذة أحسن سجل لتاريخ الجزائر حتى اليوم؛ أي أحسن كتاب فيه، وعنه، وله، وحتى إذا ما كُتب هذا التاريخ يومًا ما بصفة كاملة، شاملة، فستبقى إلياذة الجزائر

أروع تاريخ للجزائر، وأكثره وقعًا في النفوس، وأسهله على الحفظ، والتذكُّر، والاستشهاد في معرض الاستشهاد والاحتجاج!

ولنكتفِ هنا بالإشارة إلى بضع مقطوعات فحسب، كالأولى التي بدأها مفدي هكذا:

جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات

ثم إلى البيتين الأولين من الثانية:

جزائر يا بدعة الفاطر ويا روعة الصانع القادر
ويا بابل السحر، من وحْيها تلقَّب هاروت بالساحر

ثم إلى هذه، التي هي روعة الروائع، ومنها:

وأوقفت ركب الزمان طويلًا أُسائله: عن ثمود ... وعاد
وعن قصة المجد ... من عهد نوح وهل إرم ... هي ذات العماد؟
فأقسم هذا الزمان يمينًا وقال: الجزائر ... دون عناد!

هل هناك مَن قال مثل هذا؟ ابحثوا في تاريخ الأدب العالمي!

ثم إلى هذه عن أولئك المغاوير، الطلائع، الذين مهَّدوا لفاتح نوفمبر، منذ العشرينيات واستُشهد الكثير منهم قبل فاتح نوفمبر قائلًا:

وطالت خُرافات حرب الكلام وما بلغ الشعب فيه المرام
فآمن بالنار مَن عرفوها ومَن كاشفتهم بسر النظام[١]

وإلى هذا عن دور أول نوفمبر، وأبعاده، ونتائجه، وما يوحي به من دروس:

نوفمبر جلَّ جلالك فينا ألستَ الذي بث فينا اليقينا؟

[١] إشارة إلى المنظَّمة السرية L,OS المُنشأة عام ١٩٤٧م.

إلى أن يقول:

جمعنا لحرب الخلاص شتاتًا سلكنا به المنهج المستبينا
ولولا التحام الصفوف وقانا لكنَّا سماسرة مجرمينا[2]
فليت فلسطين ... تقفو خطانا وتطوي — كما قد طوينا — السنينا
وبالقدس تهتم ... لا بالكراسي تميل يسارًا بها ويمينا

ثم إلى هذا، بمناسبة ذكرى الملتقى السادس للفكر الإسلامي:

ويا ملتقى فكر إسلامنا ومجْلى قداسة إيماننا[3]

ولئن اضطرته ظروفٌ — تسبَّب فيها مَن تسبَّب من الزعانف — سامحها الله — إلى عدم الاستقرار في بلاده، كما كان يود، وإلى التنقُّل بينه وبين البلدين الشقيقين المجاورين، فها هو يرد عليها بهذه المقطوعة التي بدأها بالبيتين:

بلادي وقفت لذكراك شعري فخلَّد مجدك في الكون ذكري
وألهمتني فصدعت الدُّنا بإلياذتي في اعتزازٍ وفخر

ويضيف:

وقالوا: هجرْت ربوع البلاد وهِمْت مع الشعر في كل وادي
أجل ... لقد بعدت لأزداد قربًا ويُلهب حب بلادي فؤادي
أرى في كِيان الجزائر ذاتي بكل اعتزازٍ وكل اعتداد
وإنِّي بتخليدِ مجْد بلادي مقيم على العهد رغم البعاد!

[2] إشارة إلى جبهة التحرير الوطني التي ضمَّت جميع الحركات الوطنية بمختلف آرائها في طرق الكفاح في حركة واحدة مسلحة قادت الجهاد حتى استرجاع الاستقلال، ونصيحة للإخوان الفلسطينيين بتحقيق مثل هذا الانصهار.

[3] هذا المقطع يضم ١١ بيتًا عوض عشرة أبيات، والبيت الزائد بمثابة سجدة السهو للحفاظ على قداسة الملتقى.

وأخيرًا، وكأنه أحسَّ بقرب الميعاد مع خالقه — سبحانه وتعالى — إذ تُوفي بعد ذلك بقليل، فها هو يمجِّد بلاده للمرة الأخيرة، وهو يودِّعها الوداع الأخير … قبل أن يعود إليها جثمانه الهامد، وروحه تحوم عليه، وترفرف خفاقة فوق طائرة جزائرية تقله من تونس بأمر الرئيس الراحل هواري بومدين، ليُوارى في تربة بلاده، وفي وادي ميزاب بالذات، قائلًا:

بلادي، بلادي، الأمانَ الأمانَ — أُغَنِّي عُلاك، بأي لسان؟
جلالك تقصر عنه اللغى — ويعجزني فيك سحر البيان
إليكِ صلاتي، وأزكى سلامي — بلادي، بلادي، الأمانَ الأمانَ!
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وهذه البلاد، التي قضى مفدي عمره في التعبير عن كفاحها، والتغنِّي بأمجادها، وتخليد ذكراها، وكافح هو أيضًا وعانى من أجلها، ها هي تعيد إليه اعتباره كاملًا، الذي أرادت بعض تلك الزعانف — ومنها الأفاقة — أن تُفقده إياه، ظلمًا وعدوانًا، وتزييفًا للتاريخ.

فها هو المجلس الشعبي الوطني، بتوجيهٍ من الرئيس المجاهد الشاذلي بن حديد، يرسِّم نهائيًّا نشيد الثورة: «قسمًا بالنازلات الماحقات» … الذي صاغه مفدي وصبغه بصبغة كل ما سبق، صبغة الله — ومَن أحسن من الله صبغة؟ — ونفخ فيه من روحه، روح الأمة الجزائرية، وهو في زنزانة مظلمة باردة بسجن السركاجي: سجن «بربروس»، الذي كان يعرفه مفدي منذ الثلاثينيات، وعرفه قبله وبعده، كم من جزائري وجزائرية، وأُعدم فيه أكثر من بطل من أبناء هذه البلاد رمز البطولة.

وها هي الإذاعة الوطنية تبث الستمائة والعشرة أبيات التي سجلتها هي والتلفزة من الإلياذة حين إلقائها بصوته الجهوري، وكأنه واقف أمامنا الآن في منصة قصر الأمم، ذلك الصوت النابض بالحياة، صوت من جبالنا، وفداء الجزائر، واعصفي يا رياح، وقسمًا، وصوت الإِلياذة، التي هي جوف الفرا، وجمع الجوامع، ونشيد الأناشيد!

وها هي هذه الإلياذة الجزائرية العربية الإسلامية العالمية يُعاد نشرها مرارًا وبصور مختلفة: فتصدرها وزارة الثقافة والسياحة في ثلاث أسطوانات كبيرة، ويصدرها حزب

جبهة التحرير الوطني — وريث وامتداد ومكمل جبهة التحرير الوطني، التي مجَّدها وخلَّدها مفدي في اللهب المقدس والإلياذة — بواسطة ودادية الجزائريين في أوروبا في ست لوحات (كاسيطات) بالعربية، وفي ستٍّ أخرى بالفرنسية، وها هي وزارة التربية تعيد طبعها وتوزيعها على المدارس وتلزم تدريسها، وها هي وزارة الشئون الدينية تعيد طبعها، وهي التي طلبت من مفدي نظمها، ثم طبعتها، ونشرتها، وتستمر في ذلك، خدمة للأدب الجزائري، العربي، العالمي، والروح الوطنية، وتاريخ الجزائر، وتاريخ الأمة الإسلامية عمومًا!

ثم ها هي المؤسسة الوطنية للكتاب تصدرها بدورها في هذه الطبعة الأنيقة، الجميلة في شكلها، لموافقة مضمونها، مع رسومٍ رمزيةٍ تبرز مغزى بعض المقطوعات المتصلة وثيق الاتصال ببعض الأحداث الرئيسية من تاريخنا.

والمؤسسة الوطنية للكتاب، بصفتها المؤسسة الأولى من نوعها في البلاد، ستضمن، لا شك، أجمل طبعة للإلياذة، وأكبر توزيع لها، حتى في الخارج؛ أي ستوصلها إلى كل مكان! نداء مدويًّا له صَداه — باسم الجزائر — عبْر الزمان والمكان!

والإلياذة تستحق كل هذا وأكثر. فهي إلياذة الجزائر؛ أي أجمل وأكمل صياغة لتاريخها، بآلامها وآمالها، بانتكاساتها وانتصاراتها، كما هي وظيفة التاريخ لأية أمة من الأمم؛ إذ هو عقلها، كما كان يقول الفيلسوف الألماني شوبنهاور: «التاريخ للأمم هو كالعقل للأفراد»؛[٤] إذ إنه هو مرشدها ودليلها، وخلاصة تجاربها، وسجل مجدها ووجودها، كأمةٍ بين الأمم، بتأكيده عناصر الشخصية ومكونات الذاتية والأصالة لديها، وإعطائها وجهًا بارز السِّمات، واضح المعالم والتقاسيم، ووجودًا متميزًا هو عنوانها، وبه تُعرف وتُنادى في المحافل.

فالتاريخ هو الأهم، والبداية والنهاية، وبيت القصيد، والزبدة من كل ثقافة، ليس فقط للتعريف بالأنجاد والأمجاد،[٥] وليس فقط لاستخلاص التجارب، ولكن أيضًا لغرس الاعتداد بالنفس، وتعميق الوعي بالذات، وتوطيد الاعتزاز بالوطن.

---

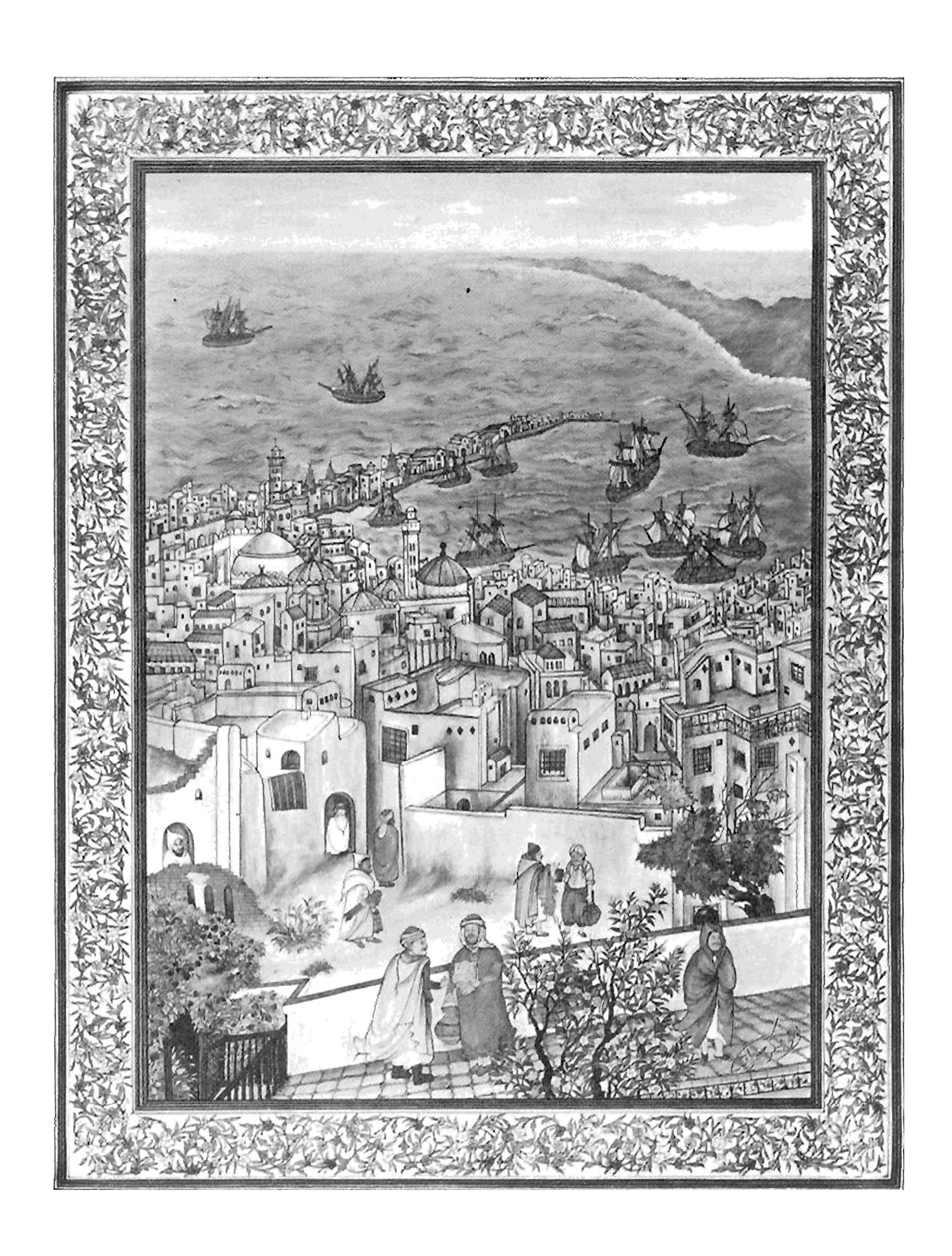
[٤] Arthur Schopenhauer: Aphorismen: “Was die Vernunft dem individum, das ist die Geschichte dem menschlichen Geschlechte”.

[٥] الأنجاد: هي جانب الجمال (الطبيعي) من الإلياذة، والأمجاد هو قسم الحلال؛ أي التاريخ والديمومة — والدوام لله.

وليس هذا من باب التغنِّي بالماضي والاكتفاء بِمَا تركه لنا الأجداد، بقدْر ما هي عملية إبراز الأسس الأصيلة للبناء عليها في انطلاقتنا الجديدة، مع الاستفادة من تجارب الأمم في جميع الأزمنة، وبأخذ ضرورات عصرنا بالاعتبار.

هذا هو مغزى إلياذة الجزائر، وهذه هي الإلياذة الخالدة، وشهادة ميلادها، ورحم الله زكريا، مفدي الفدائي، شاعر الفداء، ورحم الله جميع شهدائنا وأبطالنا عبْر العصور، وفي مختلف الأصقاع والربوع.

الجزائر في السابع من رمضان المكرم
١٤٠٧هـ/٥ مايو ١٩٨٧م
مولود قاسم نايت بلقاسم




ويا تربة تاه فيها الجلال
فتاهت بها القمم الشامخات
وألقى النهاية فيها الجمال
فهمنا بأسرارها الفاتنات
وأهوى على قدميها الزمان
فأهوى على قدميها الطغاة

# إلياذة الجزائر

جَزائر، يا مَطلعَ المعجزات ويَا حجَّة الله في الكائنات
ويَا بسمَةَ الرَّب في أرضهِ ويَا وجهَه الضاحكَ القسمات
ويَا لوحةً في سجلِّ الخلودِ تموج بهَا الصُّور الحالمات
ويَا قصَّةً بثَّ فيهَا الوجود مَعاني السُّموِّ بروعِ الحيَاة
ويَا صَفحةً خط فيهَا البقا بنارٍ ونورٍ جهَادَ الأبَاة
ويَا للبطولاتِ تغزو الدُّنا وتلهمُها القيمَ الخالدات
وأسطورةً ردَّدتها القرون فهاجتْ بأعماقنا الذكرَيات
ويا تُربَةً تاهَ فيهَا الجَلال فتاهَت بهَا القمَم الشامخات
وألقى النهاية فيهَا الجَمال فهِمنا بأسرَارهَا الفاتنات
وأهوى على قدَمَيها الزمَان فأهوى على قدمَيهَا الطغاة

اللازمَة

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشعرٍ نرتِّله كالصَّلاة
تسابيحُه من حَنايا الجزائر

جَزائرُ، يا بدعةَ الفاطرِ ويا روعَة الصَّانع القادرِ
ويا بابلَ السِّحرِ، من وحيهَا تلقَّبَ هَاروتُ بالسَّاحرِ
ويا جنَّةً غارَ منهَا الجَنانِ وأشغله الغيبُ بالحَاضرِ

ويـا لـجـةً يَـسـتـجِـمُّ الـجـمَـال ويَـسـبَـح فـي مَـوجـهَـا الـكـافـرِ[1]
ويَـا ومـضـةَ الـحـبِّ فـي خـاطـري وإشـراقـةَ الـوحـي لـلـشَّـاعـرِ
ويَـا ثـورةً حـارَ فـيـهَـا الـزمـان وفـي شـعـبـهَـا الـهـادئ الـثـائـرِ
ويـا وحـدةً صَـهـرتـهـا الـخـطـوب فـقـامـت عـلـى دَمـهـا الـفـائـرِ
ويـا هـمـةً سَـاد فـيـهـا الـحـجَـى فـلـم تـكُ تـقـنـعُ بـالـظـاهِـر
ويـا مـثَـلًا لـصَـفـاءِ الـضـمـيـر يَـجِـلُّ عـن الـمـثـلِ الـسَّـائـرِ
سَـلامٌ عـلـى مـهـرَجـانِ الـخـلـود سَـلامٌ عـلـى عـيـدكِ الـعـاشـرِ

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

جَـزائـرُ، يـا لـحـكـايـةَ حـبِّـي ويـا مَـن حـمـلـتِ الـسَّـلامَ لـقـلـبـي
ويـا مَـن سَـكـبـتِ الـجَـمَـال بـروحـي ويـا مَـن أشـعـتِ الـضـيـاءَ بـدربـي
فـلـولا جَـمـالُـك مَـا صَـحَّ ديـنـي ومـا إن عَـرفـتُ الـطـريـقُ لـربـي!
ولـولا الـعـقـيـدَةُ تـغـمـرُ قـلـبـي لـمـا كـنـتُ أُومـن إلا بـشـعـبـي!
وإذا ذكـرتُـك شَـعَّ كِـيـانـي وإمَـا سَـمـعـتُ نـداك أُلـبِّـي
ومَـهـمَـا بـعـدتُ، ومـهـمَـا قـربـت غـرامـك فـوق ظـنـونـي ولـبـي
فـفـي كـل دَرب لـنـا لُـحـمَـة مـقـدَّسَـة مـن وشـاجٍ وصـلـب
وفـي كـل حـيٍّ لـنـا صَـبْـوة مـرَنـحـةٍ مـن غُـوايـات صـب
وفـي كـل شـبـرٍ لـنـا قـصَّـةٌ مـجـنـحَـةٌ مـن سَـلامٍ وحـرب
تـنـبَّـأتُ فـيـهَـا بـإلـيَـاذتِـي فـآمـنَ بـي، وبـهَـا، الـمـتـنـبـي!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

---

[1] الكافر هنا بمعنى الساتر، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وقول إمام العاشقين عمر ابن الفارض يخاطب الحبيب والليل:

لي فيك أجر مجاهد إن صحَّ أن الليل كافر

جَـزائـرُ أنـتِ عَـروسُ الـدُّنـا ومـنـكِ استـمَدَّ الـصَّـباحُ الـسـنَـآ
وأنـتِ الـجِـنـان الـذي وعَـدوا وإن شـغـلـونـا بـطـيـب الـمـنـى!
وأنتِ الـحـنـان، وأنـتِ الـسَّـمـاحُ وأنـتِ الـطِّـمـاح، وأنـت الـهـنـآ
وأنتِ السُّمو، وأنت الضمير الصَّـ ـريحُ الـذي لـم يـخُـنْ عـهـدنـا
ومـنـك اسـتـمـد الـبُـنـاةُ الـبـقـاءَ فـكـان الـخـلـود أسـاسَ الـبـنـآ
وألـهـمـتِ إنـسـانَ هَـذا الـزَّمـانِ فـكـان بـأخـلاقـنـا مـومـنـا
وعـلـمـتِ آدمَ حـبَّ أخـيـهِ عـسـاه يـسـيـر عـلـى هَـديـنـا!
صَنعتِ البطولاتِ من صُلب شَعبٍ سـخـي الـدِّمـاءِ فـرُعـتِ الـدُّنـا
وعـبَّـدتِ دربَ الـنـجـاح لـشـعـبٍ[٢] ذبـيـحٍ فـلـم يَـنـصَـهِـرْ مـثـلـنـا!
ومـن لـم يـوحِّـدْ شـتـاتَ الـصُّـفـو فِ، يـعـجـلْ بـهِ حـمـقـهُ لـلـفـنـا!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ من حَـنـايا الـجـزائـر

أفـي رُؤيـة الـلـهِ فـكـرُك حَـائـر وتذهـل عَـن وجـهـه فـي الـجـزائـر؟
سَـل الـبـحْـرَ والـزورَقَ الـمـسـتـهَـامَ كـأنَّ مـجَـاذيـفَـهُ قـلـب شـاعـر!
وسَـل قـبَّـةَ الـحُـور نـمَّ بـهَـا مَـنَـارٌ عَـلـى حُـورهَـا يـتَـآمَـر
سَـل الـوردَ، يَـحـمـل أنـفـاسـهَـا لـحـيدرَ مـثـل الـحـظـوظ الـبَـواكـر
وأبـيَـارَ تـزهُـو بـقـدِّيـسـهَـا رَفَـائـيل يـخـفـي انـسـلال الـجـآذر
تـبَـاركـهُ أمُّ إفـريـقـيَـا[٣] عـلـى صَـلوات الـعـذارى الـسَّـواحـر
ويَـحـتـار بُـلـكـورُ فـي أمـرهَـا فـتـضـحَـكُ مـنـه الـعـيُـونُ الـفَـواتـر
وفـي الـقـصْـبـةِ امتـدَّ لـيـلُ الـسـهَـارى ونـهـرُ الـمـجَـرة نـشـوان سَـاهـر
وفـي سَـاحـةِ الـشـهـداء تَـعـالـى[٤] مَـآذن تـجـلـو عـيُـونَ الـبـصَـائـر
وفـي كـل حـيٍّ، غـوالـي الـمـنـى وفـي كـلِّ بـيـتٍ نـشـيـدُ الـجـزائـر

---

[٢] الشعب الذبيح هو فلسطين.

[٣] أم أفريقيا: كنيسة في الجزائر، وهي رمز بوابة الكاثوليك نحو أفريقيا.

[٤] بحذف إحدى التاءين (أصله: تتعالى).

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ من حَـنـايا الـجـزائـر

سَـل الأطـلـسَ الـفـردَ عَـن جُـرجُـرا   تـعَـالـى يَـشـدُّ الـسَّـمَـا بـالـثـرى!
فـيَـخـتـالُ كِـبـرًا، تُـنـافـسـه   تـقـجـدا فـلا يَـرجـعُ الـقـهـقـرى
تـلـوَّن وجـهُ الـسَّـمَـاءِ بِـهِ   فـأصْـبـح أزرقُـهَـا أخـضـرَا
وتـجـثـو الـثُّـلـوجُ عَـلـى قَـدَمـيـه   خُـشوعًـا، فـتـسـخـرُ مـنـهَـا الـذرى
هـو الأطـلـسُ الأزلـيُّ الـذي   قـضـى الـعـمر يَـصـنـعُ أسـد الـشـرى!
وتـسـمُـو بـأورَاس أمـجَـاده   فـتـصـدعُ فـي الـكـون هَـذا الـورى
فـيَـا مَـن تـردَّد فـي وحـدة   بـمـغـربـنـا وادَّعـى، وامـتـرى
أمَـا وحَّـد الأطـلـسُ الـمـغـربـي   مـعَـاقـلـنـا، بـوثـيـقِ الـعُـرى؟
أمَـا طـوَّقـتْـنـا سَـلاسِـلُـهُ   فـطـوَّق تـاريـخُـنـا الأعـصُـرا؟
وكـم فـوقَـهُ انـتـظـمـت قـمَـم   فـهَـل كـان يـعـقـدُ مُـؤتـمـرا؟

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ من حَـنـايا الـجـزائـر

وفـي بـاب واديـكِ أعـمـق ذكـرى   أعـيـشُ بـأحـلامـهـا الـزُّرقِ دَهـرا
بـهَـا ذابَ قلـبـي، كـذوب الـرصـاص   فـأوقـد قَـلـبـي، وشـعـبـيَ جـمـرا
وثـورة قـلـبـي، كـثـورة شَـعـبـي   هـمـا ألـهـمَـانـي، فـأبـدعـتُ شـعـرا
إذا الـقـلـبُ لـم يـنـتـفـض لـلـجـمـال   ولـم يـبـلَ فـي الـحـبِّ حُـلـوًا ومُـرا
فـلا تَـثِـقَـنَّ بـه فـي الـنـضـال   ولا تـعـتـمدْ فـي الـمـهـماتِ صـخـرا!
ولَا يَـكـتـمُ الـسـرَّ إلا الـمـشـوقُ   ومـن لـم يَـهِـم لـيـس يـكـتـم سِـرا!
وحَـربُ الـقـلـوب كـحـرب الـشـعـوب   ومَـن صـدق الـعـهـد، أحـرز نـصـرا
وعـلَّـمـنِـي الـحـبُّ، حـبَّ الـفـدا   فـكـنـتُ بـحـبـي وشـعـبـيَ بَـرا
ويَـشـهـد لـي فـيـه وادي قُـريـشٍ   سَـلـوا قـلـبَـه، فـهـو مـنـي أدرى

ودَيْري[٥] الذي كنت أتلو بهِ صَلاتي – مَع الليل – سرًّا وجهرا
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
عَرجْنَا، نُنافحُ بايْنَامَ[٦] ضحًا كأنَّا اغتَصَبْنا لِهَامانَ صَرحا
نسائلُ أشجاره الفارعات حديثَ النجوم، فتُبدعُ شرحا
ويلتفُّ ساقٌ بسَاقٍ، فنصبُو فيغمُرُنا ملتقى الفكر نصحا!
كأن عمَالقَ باينَامَ جَمعٌ ببَاريسَ، يبني لِفِيتنَامَ صُلْحَا!
كَأن الإله الجَميل تَجلَّى فأغرقَ باينَامَ حسنًا وأوْحَى!
يتيه به النجْمُ[٧] بين النجوم دلالًا، فيُطلعُ في الليل صُبحا
تموج مَع الشمس أسرارُهُ وسر الهوى ماثِلٌ ليس يُمحى!
فكم بات يبكي به موجَعٌ ويَسفَح دمعًا، فيغمر سَفحَا
وكم من جريح الفؤاد اشتكى فأثخن باينَامَ في الصَّب جُرحا
وكم من صَريع الغواني، تداوى بأنسامِ باينامَ فازدادَ لفحا
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
سَجَا الليل في القَصَبَةِ الرابضَة فأيقظَ أسرَارهَا الغَامِضَه
وبَين الدرُوبِ، وبَين الثَّنايَا عفاريتُ، مَائجةٌ رَاكِضَه
وملءَ سَرَاديبها الكافراتِ تُصَاغُ قراراتُنا الرافِضَه
فَيحتَار بيجارُ[٨] في أمرهَا ويَحسبهَا موجةً عَارِضَه

[٥] كنت أسكن في قمة جبلٍ يطل على وادي قريش وبوزريعة في آنٍ واحد، والفيلا يُصعد إليها بمائةٍ واثنتي عشرة درجة. وكان منتدًى لأصدقائي من الأدباء والشعراء، وقد أطلقوا عليه «دير زكرياء» سنة ١٩٤٢م.
[٦] غابة باينام أجملُ مناخٍ جبليٍّ في صدر عاصمة الجزائر يوحي بالعظمة والشموخ.
[٧] جناس بين النجم وهو النبات الذي لا ساق له، وبين نجوم السماء.
[٨] بيجار أحد الضباط الفرنسيين الجلادين، كان يقود عمليات القمع ضد الفدائيين بعاصمة الجزائر.

فَيفجؤ بيجَارَ إصرارُ شَعبٍ   وتدمغه الحجةُ الناهضَه
ويَأبى عليٌّ[9] رضوخَ الجَنَانِ   فتسمُو بِهِ روحُه الفائضَه
كأنَّ اشتباك السُّطوح جسورٌ   بها امتدت الثورة الفارضَه
كأنَّ المضَائقَ فيهَا خليجٌ   تمورُ به السُّفُن الخائضه
ويلتف جَارٌ بحَارٍ، كمَا   تعَانفتِ المهجُ النابضة
فكانت على حظ حَربِ الخلاصِ   وأعمَارِ أَعدائنا قابضَه

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وبلكور للمجد شقَّ طريقَه   وخطَّ مَعالمها في السُّويقه[10]
وعجَّل أقدارَ يوم الخلاص   وكان يحاسبها بالدقيقه
فأيقنَ ماسُو[11] وكان تَغَابى   وما عاد يجهل ماسو الحقيقه
وعاجلَ سالانَ[12] صحوُ السكارى   فبدَّدَ أحلامَ مايو الصَّفيقَه
وسوستال[13] بالرعب طار شعاعًا   فغَصَّ، وما اسطاع يبلع ريقه
ورجَّتْ حواجزهُم[14] بالغلاةِ   غريقٌ يشد بذيل غريقه
تشيعهم أدمعُ العاشقاتِ[15]   وهَيهات تجدي دموعُ العشيقه

---

[9] الشهيد علي لابوانت الذي حاصره بيجار مع جمعٍ من الفدائيين في معقلٍ من معاقل القصبة، ووجَّه إليه نداء من وراء جدار للاستسلام تلقاء تعهدات وإغراءات فرفض وظلَّ يقاوم إلى آخر رمق هو وأعضاده فاستُشهد تحت أنقاض البيت الذي اعتصم به بعد أن نسفه الجند الفرنسي بأمر الجلاد بيجار.

[10] سويقة العقيبة منحدر الفدائيين أبطال حي بلكور.

[11] ماسو الجلاد المشهور.

[12] سالان من الجلادين المتمردين ومن أكبر الغلاة الحاقدين.

[13] «سوستال» والي فرنسا على الجزائر، اشترى ضمير الغلاة فأصبح رائدهم الأحمق.

[14] لما أحس غلاة الاستعمار بمحاولات التفاوض مع حكومة الجنرال ديغول؛ تمردوا على حكومتهم، وحاولوا الانفصال، وأقاموا الحواجز في أكبر شوارع العاصمة ضد القوات الموالية لديغول.

[15] كان المتمردون يحيطون حواجزهم بالنساء للاحتماء بهن، وفي ذلك أقول من قصيد في الموضوع منشور بديواني اللهب المقدس (تحت عنوان: إلى الذين تمردوا) أقول:

ويضحك فوروم[16] من حيَوانٍ    غَواهُ السرابُ، فضَلَّ طريقَه
ومن خائرين كأعجاز نخلٍ    ضمَائرهم في المزاد، رقيقَه
وحسبُ الجزائر، أبطال بلكو    رَ والقصبة الحاملينَ الوثيقه

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وحمَّامُ مَلوانَ[17] ملَّ المُجُونا    وأنهى غِوايتَهُ والفتونا
وفضَّل خوضَ الحِمَامِ، بديلًا    عَنِ المُستَحِمَّات، والعائمينا
وقد عاش دَربًا لحلو الأماني    فأصبحَ دِربًا يلاقي المنونا
وكان كَمِينَ الظِّبَا والذئاب    فصار لصَيْدِ الذئاب كمينا
وغاضت به، ثَوراتُ الهوى    ففجَّرتِ العَزمَ في الثائرينا
وأعلن توبتَه في الجبَالِ    فكانَ الرَّصاصُ القِصَاصَ الضمينا
ومدَّ اليمين لداعي الفدا    فأقسَم أن لا يخونَ اليمينا
وشمَّر، يرفض دنيَا الملاهي    وينفض عنه غبَار السنينَا
وأضفى الجمال عليه جلالًا    وكان الجلال عليه ضنينا
هي الأرضُ ... أرضُ الجزائر ... مَهمَا    غوت، وصَبَت ... أبدًا ... لن تخونا

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

---

جيش الجزائر لا يهاب عصابة    تحمي النساء على السدود رجالها
لا خير يُرجى من عواقب أمة    أولت زمام أمورها أنذالها

[16] الفوروم: ساحة أمام قصر الحكومة كان المتمردون عقدوا فيها تجمعًا إثر أحداث ١٣ مايو، وأيَّدهم فيها بعض الأبقار المعمَّمة والمُطربَشة من البيادق المأجورة الفاقدي الإيمان والأخلاق والضمير.

[17] حمَّام ملوان مياه معدنية متفجرة بين الجبال الممتدة إلى جبل الشريعة، وكان — ولا يزال — محطةً للتداوي. وكان — ولم يَعُد — مرتعًا للذين يعيشون بأملٍ غير محدود، ويكرعون كأس المتعة حتى الثمالة.

وحـمَّـامُ ريـغـةَ[١٨] بَـيـن الـروابـي ترنَّحَ طوع الهوى والتَّصَابي
يُـصـعِّـد فـي الـجـو أنـفـاسَـه عبيرًا ... وأحشاؤه في التهابِ
وتَـغـلـي الـمـواجـدُ فـي صَـدره تُطارِحُها نزوات الشباب
يـحـاولُ كِـتـمـانَ أسـراره فتفضَحُه خائنات الحُبَابِ
أَيُـخـفِـي هَـواه وفـي راحـتـيـه تموجُ المحَاسن ملءَ الرحَابِ؟
وتـخـتـال بَـيـن يـديـه اخـضـرارًا شواهقُ تُزجي ركابَ السحاب
مَـدامـعُـه يُـتـداوى بـهـا كما يُتداوى بحلو الرُّضابِ
وأنـفـاسُـه تـغـمـر الـصَّـبَّ دَفـئـا فينسى حَرارَة يومِ الحسَاب!
ومـنـهـا اسـتـمدَّ الـمـجـاهـد عـزمًـا فراع الدُّنا، بالعَجيبِ العُجابِ
وفـجَّـرَ ثـورتَـه مـن لَـظـاهـا وسَار على هديها في الغِلابِ

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

شَـريـعـتـنـا، كـجَـلال الـشـريـعَـه[١٩] كمَالاتُها، رَاسخاتٌ ضليعَه
كـأنَّ الـذي شـرع الـصَّـالـحَـاتِ أقام الدليل فأعلى الشريعَه
وعـمَّـرَ فـيـهَـا بـنـي[٢٠] صـالـح فزكَّى الصَّلاحُ جمالَ الطبيعَه
تُـطِـل جَـواسـقـهَـا الـضـارعَـات شواخصَ تحمد ربَّ الصنيعَه
كـذوب الـنـجُـوم عـلـى قـدمـيـهـا فيبدع منها الزمَانُ ربيعَه
وتـاه الـصـنـوبـر، كِـبـرًا وعـجـبًـا على القمَمِ الشامخات الرفيعَه
ومَـن تَـكُ فـيـه الأصَـالـة طـبـعًـا تُجبه الجذوع[٢١] الطوالُ مُطيعَه!
وفـاخـرَ بـالأرز لـبـنَـان، وهـمَّـا وخلَّد فيه الأغاني البديعَه!

---

[١٨] حمَّام ريغة حمَّامٌ معدني في سفح جبال زكار بين المليانة والبليدة، يمتاز بروعة مناظره.

[١٩] جبل يبعُد خمسين ميلًا عن عاصمة الجزائر، تنجلي فيه عظمة الخالق فيما أبدع من صنعٍ. ويزري بجبال سويسرة وغيرها حسنًا وروعة وافتتانًا.

[٢٠] بنو صالح، سكان جبال الشريعة، وقد اشتهروا بالصدق والكرم والبطولة وحسن السلوك.

[٢١] الجذوع الطوال كنايةٌ عن «أجسام البغال وأحلام العصافير».

ولــولا تــواضــعُ أطــلــســنــا لَـكَـانت جَـزائرنـا فـي الـطـلـيعَـه!
إلا أنَّ حــرمَــةَ مــا بَــيــنَــنَــا ومَـا بَـين لـبنـان كـانت شَـفِـيعَـه
شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بــشــعــرٍ نُــرتِّــلــه كـالـصَّـلاة
تـسـابيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائر
تـسلَّـقْ إيعـكورن واغـز الـسُّـهَا وطـاوِل بـهِ سِـدرةَ الـمـنـتـهـى!
فـيـخـجـلُ هَـامـانُ مِـن صَـرْحـه ويـعـجِـزُ أن يَـبلـغَ الـمـشـتـهـى[22]
وعـانِـقْ بِـجَـايـةَ فـي نـخـوةٍ يـعَـانـقْ حَـنـايـاك سـرَّ الـبَـهَـا
ونـاجِ بـزغـواط سـربَ الـظـبَـا تُـنـاغِـك مـن حـلـق يـتـشـي الـمـهـا
عـجَـائـبـهَـا الـسَّـبـع[23] لا تـأتـلـي[24] تـتـيـه، فـيـحـتـارُ فـيـهـا الـنُّـهـى
ووادي الـهـوى والـهـواءُ بـسـرتـا يـزكـي مـسـيـد[25] الـهـوى خـلـفـهَـا
تــهَــدْهــدهُ الــنَّــسَــمَــاتُ كــأمٍّ تهَدهِدُ – طوعَ الكرى – طِفلَهـا!
وفـي جَـبـل الـوحْـشِ تـاهَـت بـلادي شـمُـوخًـا، فـأحـنـى الـزمَـان لـهَـا
فَـلـو شَـاء ربُّـك وصـفَ الـجـنـان لـيـغـري الأنـامَ ... بَـهـا شـبَّـهـا!
أَضـاعَ بـهَـا ذو الـحـجـى رشـدهُ ولـو لـم يـخِـف رَبَّـه ... أَلَّـهـا ...[26]
شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بــشِــعــرٍ نُــرتِّــلــه كـالـصَّـلاة
تـسـابيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائر
أمَـانًـا، رُبَـوعَ الـنَّـدَى والـحَـسَـب أمَـانًـا تِـلِـمْـسَـانُ، مَـغـنَـى الأدب
تـمـاوج وهـرانُ فـي أصـغـريـكِ[27] وفـاسُ، فـأبـدَعَ فـيـكِ الـنَّـسَـب

---

[22] المشتهى: إشارة إلى الآية: ﴿وقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾.
[23] عجائبها السبع: في الطريق الساحلية الرابطة بين بجاية وجيجل.
[24] لا تأتلي: أي لا تنفك، ومنه قول ابن دريد في مقصورته: «لا تأتلي تسفع أثناء الحشى.»
[25] المراد به حوض سيدي مسيد بقسنطينة.
[26] هذا تصوُّف وليس كفرًا. وهو على مسئوليتي الخاصة لأني أعتبره إيمانًا كقولي في بعض ملاحمي الثورية: وتكلَّم الرشَّاش جلَّ جلاله ...
[27] المرءُ بأصغريه قلبه ولسانه.

وتـــاه الـــوريـــطُ بـــشَـــلَّالِـــهِ يـلـقِّـنُ زريَـابَ مَـعـنـى الـطـرب
وأغـرى الـمـلـوكَ بـحَـبِّ الـمـلـوكِ فـأخـلـصَ فـي حُـبِّـهَـا كـلُّ صَـب
ولـــولا عَـنـــاصـــرُ مـــلْـيَـــانـــةٍ وعَـيـنُ الـنـسُـور لـكـنـتِ الـعـجَـب
تِـلِـمْـسَـانُ، أنـت عـروسُ الـدُّنـا وحُـلـم الـليَـالـي، وسَـلـوى الـمـحـب
بـحُـسـنـك، هَـامَ أبـو مـدْيَـنٍ وفـي مَـعـبـدِ الـحـبِّ شـادَ الـقِـبـب
وأجـرى بـكِ الـرومُ سَـاقـيـةً[28] بـهَـا أسـكـرَ الـحـسـنُ بـنـتَ الـعـنـب
وفي مشْوَرِ المجد[29] أذَّنَ موسى[30] وخـلَّـد زيَّـانُ[31] مَـجـدَ الـعَـرب
ونـافـحَ فِـرْدوسَـك ابـنُ خـمـيـسٍ[32] ويحيى ابن خلدون[33] فيك التهَب

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وسَـبَّـح لِـلـه مَـا فـي الـسَّـمَـاوا تِ والأرض، ملءَ شـفـائـفَ شـفـا[34]
كـأنـك تُـصـغـي بـهَـا لـلـخَـلـيـلِ وموسى الكليمِ، يرتِّلُ صحفا[35]
كـأنَّ مـشـارفَـهـا الـحَـالـماتِ الضَّـ ـــواحـكَ، إلـفٌ يُـغـازل إلـفًـا!
كـأنَّ الـبُـلـيـدة لـلـورود تـفـشـي حَـديـث الـغـرامِ، فـيـزداد لـهـفـا
وتـهْـفـو الـمـديـة شـوقًـا إلـيـهِ[36] تـطـارحـهُ صـفـوةَ الـكـأسِ صـرفـا

---

[28] ساقية الرومي.

[29] المِشْوَار.

[30] أبو حمو موسى الثاني.

[31] مؤسس دولة بني زيان.

[32] الشاعر المشهور، ونافح إشارة إلى قوله:

نَسِيتُ ومَا أَنْسَى الْوَرِيطَ ووَقْفَةً أُنَافِحُ فِيهَا رَوْضَهُ وأُفَاوِحُ

[33] المؤرخ التلمساني المشهور، أخو عبد الرحمن.

[34] جبال «شفا» المعروفة، «الشفائف» جمع شفه، وهو مستعمل مثل «شفاء».

[35] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

[36] الضمير في «إليه» يعود على الورد.

ويَـهـتـزُّ قـصـر الـبـخـاري هـيـامًـا ويـصـبُـو الـبـخـاري فـتـحـجـلُ جَـلـفـا
أبـالـغـوطـتـيـن يُـبَـاهـي الـشَّـآم[٣٧] وأغـواطـنـا بـالـشـآم اسـتـخـفَّـا؟
كـأنَّ حَـدَائِـقَـه الـعَـابـقَـات نـوافـج[٣٨] مـسـكٍ تـضـوعـن عَـرْفـا
وفـي رَحـب تـيـلـغـمـت تـاه الـغـزال على الشمسِ يختالُ لطفًا وظرفا
ويَـحـفـظ مـيـزابُ لـوحَ الـجَـلالِ فيصبحُ ميزابُ في اللوحِ[٣٩] حرفا

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

تـقَـدَّسَ واديـكِ، مَـنـبَـع عـزِّي ومـسـقـطَ رأسـي، وإلـهَـامَ حـسِّـي
وربْـضَ أبـي ... ومَـرَابِـعَ أمِّـي ومَـغْـنـى صِـبَـاي، وأحـلامَ عُـرسـي
وفـخْـرَ الـجَـزائـرِ، فـيـكِ تـنـاهـت مَـكـارمُ عُـرْبٍ، وأمـجَـادُ فـرسِ
وأحـــفَـــادَ أوَّل مَـــن رَكـــزوا سـيـادةَ أرضِ الـجَـزائـرِ أمـس
دمَـاءُ ابـن رُسـتـم مـلءَ الـحـنـايـا صَـوارخُ يُـلـهـبْـنَ عِـزةَ نـفـسـي
وعـرقُ الأصـالـةِ طـهَّـر طـبـعـي ونـورُ الـهـدايـةِ أذهَـب رجـسـي[٤٠]
وكـرَّمـتُ، بـاسـم الـمـفـاخـرِ، قـومـي وشـرَّفـتُ، بـاسـم الـجَـزائـر جـنـسـي
إذا لـلـكـريـهَـةِ نـادى الـمـنـادي بَـذلْـتُ حـيَـاتـي، وودَّعـتُ أنـسـي
وإن لـلـسَّـخـاء اسـتـجـابَ كـريـمٌ فـفـي الـجـودِ لـقَّـنـتُ أروعَ دَرس
وإن شـيَّـدوا لـلـبـقـاء والـخـلـود جَـعـلـتُ وفـاتـي دعـامـةَ أس

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

ألا ... مَا لهذا الحسَابِ ... وما لي؟ وصَـحـراؤنـا ... نَـبـعُ هَـذا الـجـمَـال

---

[٣٧] الشآم بالهمزة بعد الشين «الشام».

[٣٨] نوافج: مباخر.

[٣٩] اللوح المحفوظ.

[٤٠] ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

هُنَا مَهْبِطُ الوحي للكائناتِ ... جِيال النخيل ... وبينَ الرمَال
ومَهد الرسَالات للعَالمين ... ونورُ الهُدى، ومَصَبُّ الكمال
هُنَا العبقريَّاتُ والمعجزاتُ ... وصرحُ الشموخ، وعرشُ الجَلال
تُبَادلُنا الشمسُ إشعَاعها ... ويُلهمنا الصَّفْو نورُ الهلالِ
ونعدُو فنسبقُ أحلامَنا ... ونهْزَأُ من وثباتِ الغزال
وجنَّبنا الغدرَ ... مَاءُ الغدير ... وحَذَّرنا الظلُ نهجَ الضلالِ[41]
وعوَّدنا الصِّدقَ ... رَاعي المواشي ... وعلَّمنا الصَّبرَ ... صَبْرُ الجِمَالِ
وأخرجتِ الأرضُ أثقالها[42] ... فَطارَ بهَا العلمُ ... فوقَ الخيَال ...!
توفِّرُ للشعبِ أقدارَهُ ... وتكفِي الجَزائرَ ... ذُلَّ السؤال!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

فيَا أيهَا الناسُ ... هذي بلادي ... ومَعْبدُ حبِّي، وحُلمُ فؤادي
وإيمانُ قلبي، وخالصُ ديني ... ومَبناهُ ... في ملَّتي واعتقادي
بلادي، أحبُّك، فوق الظنونِ ... وأشدُو بحبِّك، في كل نادي
عَشِقت لأجلك كلَّ جَميلٍ ... وهِمْتُ لأجلك، في كل وادي ...
ومَن هَام فيك، أحبَّ الجَمَالَ ... وإن لَامَهُ الغُشْمُ، قال: بلادي!
لأجل بلادي، عصرتُ النجومَ ... وأترعتُ كأسي، وصُغتُ الشوادي
وأرسَلتُ شِعري ... يَسُوقُ الخطى ... بسَاحِ الفدا ... يَومَ نادى المنادي
وأوقفتُ ركبَ الزمَانِ طويلًا ... أسَائلهُ: عن ثمودٍ ... وعاد ...
وعن قصَّةِ المجدِ ... من عَهدِ نوحٍ ... وهَل إرمُ ... هي ذاتُ العِمَاد؟
فأقسَمَ هَذا الزمَانُ يَمينًا ... وقال: الجَزائرُ ... دُونَ عنَاد!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة

---

[41] «حذَّر» يتعدَّى بنفسه. وفي القرآن الكريم: ﴿ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾.
[42] النفط والغاز.

تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وقفنا نحيِّي بها ألفَ عَام ... ونُقرِئ زِيري العظيمَ السَّلام

فقامَ بولوغينُ[٤٣] في عيدنا ... يَهزُّ الدُّنا، ويروعُ الأنام

وسيبُوس[٤٤] فاضَ فتاهَ دلالًا ... يعَانق زيري المليك الهمام

بُولوغين إن صَانها[٤٥] فيرموس ... وحازت أكوسيوم[٤٦] أقصى المرام

وهبَّ الأمَازيغُ من دوناطوس[٤٦] ... تصول وتزجي الخميس اللهام[٤٧]

فأبناءُ مَازيغ قادوا الفدا ... وخاضوا المعَامعَ يَوم الصِّدام[٤٨]

وسَاقوا المقاديرَ، طوعَ خطاهم ... وشادوا البِنا ... وأقروا النظام

رَعَى اللهُ عَشرًا تنافِسُ عشرًا[٤٩] ... وصَانَ ذمَامًا تراعي الذمَام

وبُورك يوليوزُ في حَالتيه ... فما الفجرُ إلا وليدُ الظلام!

وجلَّت بطولاتُ أرضِ الجَزائـ ... ـرِ مَهدِ الأسودِ وربْعِ الكِرَام

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا

بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة

تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

---

[٤٣] بولوغين بن زيري بن مناد، بنى عاصمة الجزائر سنة ٣٩٢ هجري.

[٤٤] سيبوس: اسم قديم لعنابة، بناها زيري بن مناد. وواد سيبوس يدل على التسمية القديمة.

[٤٥] الضمير في صانها يعود على الجزائر.

[٤٦] فيرموس بن نابال الملك المازيغي مقاوم كبير أثار جبال جرجرة وأوراش وأفريقيا بأكملها، وهبَّ لنصرته أهل البوادي من سبعة دوناطوس وحتى الضباط الرومان، وبُويع ملكًا على الديار المغربية الكوسيوم التي ستصبح فيما بعدُ عاصمة الجزائر، فاتخذها فيرموس عاصمةً له آنذاك واستولى على شرشال، وقاوم جحافل الكونت دوسونس، وما غُلب إلا عند ما غدر به أخوه جلدون، فسلَّمه للرومان من فراش نومه غنيمة باردة، ثم إن أخاه جلدون هذا ثار بدوره على الرومان وجعلهم على قاب قوسين أو أدنى من هلاكهم الأخير.

[٤٧] الخميس اللهام: الجيش الجرار.

[٤٨] تنظير ببولوغين مؤسس الجزائر وأبناء الأمازيغ محرري الجزائر.

[٤٩] الإشارة إلى عشرة قرون، وعشر سنوات.

دَعوا ماسينيسَا[٥٠] يردِّد صدانا ذرُوه يخلِّد زكيَّ دمانا
وخلُّوا سفاكس يحكي لرومَا مَدى الدهر كيف كسَبنا الرهَانا
وكيف غدا ظافرًا ماسينيسا بزامة لم يَرض فيهَا الهوانا
وكم سَاوموه، فَثار إبَاءً وأقسم أن لا يعيش جَبانا
وألهمَه الحبُّ نيلَ المعَالي وقد كان — مثلي — يَهوى الحِسَانا ...
ومَن صَنعتْ رُوحَه سُوفونيزبا جَديرٌ بأن يتحدَّى الزمَانا
تغذيه حبًّا وفنًّا وعلمًا وتُنبيه مَا قد يكون وكَانا
فَجَاء يغورْطا[٥١] على هَديهِ بحكمِ الجماهير يُفشي الأمَانا!
وقال: «مَدينةُ رُوما تُبَاعُ لمن يشتريها!» فهزَّ الكِيانا!
ووحَّدَ سِيرتا بأعطافِ كافٍ وأولى الأمَازيغَ عِزًّا وشأنا

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

صُمُودُ الأمازيغِ عبْر القرُونِ غزا النيِّرات، وراعَ النجومَا
فكم أزعجُوا نائبَاتِ الليَالي! وكم دَوَّخوا المستبدَ الظلومَا

---

[٥٠] ماسينيسا ابن غادا الملك المازيغي، وُلد سنة ٢٣٨ قبل المسيح حينما كانت الحروب البونيقية على قدم وساق، وكان الملك المازيغي سفاكس (صفاقص) مواليًا للرومانيين، فنهض ماسينيسا يحارب الرومانيين وسفاكس معًا، وكان مصدر إلهام ماسينيسا تزوُّجه بالعالمة الموسيقارة والفيلسوفة المؤرِّخة القرطاجنية القسيسة سواونيزيا، فأعانه ذلك على إقامة إمبراطورية في نوميديا وجزء كبير من التراب التونسي، وأجلى الرومان عن مملكته، ثم إن الرومان تغلَّبوا على قرطاجنة البونيقية في واقعة زامة وراودوا ماسينيسا على أن يكون حليفًا لهم، ولكنه استمر في الدفاع عن وطنه وكوَّن إمبراطورية قوية، وطوَّر الزراعة، مما جعل الرومان يكيدون له، إلى أن تُوفِّيَ وقد قرب من التسعين، بعد أن انتصر في زامة.

[٥١] يوغورطا أحد الملوك الأمازيغ وحفيد ماسينيسا، وُلد سنة ١٤٥ قبل المسيح، واغتنم فرصة الحرب بين روما وقرطاجنة البونيقية فثار على الاثنين وأسَّس الإمبراطورية الأمازيغية، أقامها على أصولٍ أمازيغية بحتة في نظام الحكم الجمهوري، وبعث الثقافة والقيم الأمازيغية الأصيلة، وجعل عاصمتها مدينة قرطا (سيرتا) — قسنطينة اليوم — وامتد حكمه إلى الغرب التونسي فكانت له عاصمتان «الكاف» ويُسمَّى «شقب النارية» ومدينة تالة، وانضم إليه الأمازيغ فوحَّد صفوفهم وقادهم من نصرٍ إلى نصر، وكان يقول: مدينة رومة مبتاعة لمن يريد شراءها. وكان يستهوي القوادَ بهذه الوسيلة.

سَـلـوا طـبَـريَّـةَ يـذكـرُ تـبـيـريـوس ‌ ‌ ‌ ‌ تـيـكـفـرنـاس يـوالـي الـهـجـومـا[٥٢]
ثـمـانِ سـنـيـن يـصَـارعُ رُومـا ‌ ‌ ‌ ‌ فدقَّ المسَـامير في نعـشِ روما!
وأوحـى لـه الأطـلـسُ الـوحـدويُّ ‌ ‌ ‌ ‌ فـوحَّـدَنـا فـانـطـلـقـنـا رُجـومـا
سَـلُوا بَـربَـرُوسَ يُـجِـبْـكـم فـراكســ ‌ ‌ ‌ ‌ ـنُ مِن جرجرا كيف أجلى الغيوما[٥٣]
وقـالـوا: أراد يـون بـالـكـاف أودى! ‌ ‌ ‌ ‌ هَلِ الموت عيسى؟ يداوي الكلوما[٥٤]
وهَـذا أغـوسـتـنـسُ بـالاعـتـرافـا ‌ ‌ ‌ ‌ تِ حَيَّر — عبْر الزمَانَ — الفهومَا[٥٥]
وأسـقـف بـونـة أصـبـح قـدِّيــ ‌ ‌ ‌ ‌ ـسَ قرْطاج مذ بثَّ فيها العلوما
وكـان أغـسـتـنـسُ فـخـرَ الـبـلادِ ‌ ‌ ‌ ‌ وكـان بـهَـا الـفـيـلـسـوفَ الـعـظـيـمـا

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

أشِـرشَـالُ! ... هَـلا تـذكـرتِ يُـوبـا؟ ‌ ‌ ‌ ‌ ومـن لـقـبـوا عَـرشكِ الـقـيـصـريـه؟[٥٦]

---

[٥٢] تكفرناس، ثائر أمازيغي جزائري على عهد الإمبراطور الروماني تيبريوس باني طبريَّة. انتصر تيكفرناس على عديدٍ من جيوشه، فعزل من أجله عدة ولاة من الرومانيين. ودامت الحرب التي أدارها في كامل القطر الجزائري وتونس والمغرب ومن التل إلى الصحراء ٨ سنوات احتاجت إلى عدة جيوش أُرسلت كمَددٍ من روما، كلها ذابت أمام صمود الأحرار الوطنيين من جبل الأطلس الرهيب.

[٥٣] فراكسن دارَ بجبال جرجرة والبابور، فصادمه الإمبراطور الروماني بربروس قادمًا من روما، ودامت الحرب أعوامًا، كلما قضى فراكسن على جيشٍ جيء بجيش غيره حتى ضاقت روما بذلك، وقُتل أراديون العضد الأيمن لفراكسن في مدينة الكاف.

[٥٤] الكلوم: الجراح.

[٥٥] أغوستنس وُلد بنافست (سوق أهراس الحالية) وتعلَّم بها، ثم انتقل إلى قرطاجنة فحذق اللاتينية واليونانية. ثم أقبل على دراسة النصرانية حتى صار رئيس الأساقفة لمدينة قرطاجنة بعد أن كان أسقف بونة. وهو إلى جانب ذلك فيلسوفٌ مفكرٌ أخلاقي ومربٍ عالمي. ونعتبره مؤرخًا في كتابه الاعترافات — الفهوم جمع فهْم.

[٥٦] يوبا الثاني ولي عرش الأمازيغ بشرشال التي كانت تُسمَّى يومئذٍ قيصرية، واستقل بولاية موريتانيا القيصرية الواقعة بين سرتا وموريتانيا الطنجية، وكان عالمًا كبيرًا، علاوة على أنه كان سياسيًّا ماهرًا، وعسكريًّا مظفرًا، وممصرًا ممتازًا، اتخذ من شرشال ضرة لروما وزيَّنها بالمعالم الفاخرة والقصور والمعابد والمسارح، وأسَّس بها جامعة كبرى للعلوم والآداب والفنون من فن وتمثيل وموسيقى ونحت وتصوير؛

ومَن مصَّروكِ فنافستِ رُومَا؟ وشرَّفتِ أقطارنا المغربيَّه
لماذا يُلقَّب يوبَا بثانٍ؟ أما حقَّق السَّبقَ في المدنيه؟
وباهي بشِرشَال جنَّة عدنٍ؟ وزان حَدائقَها السندسيَّة؟
أما كان أوَّلَ مَنْ خطَّ رَسمًا لوجْهِ جَزيرتنا العربيه؟
أما شادَ يوبَا بشِرشَال للعلم أوَّلَ جَامعَةٍ أثريَّه؟
وهذا أبولوسُ كان طبيبًا يَدِين لهُ العلمُ بالعبقريَّه[٥٧]
وأبدَعَ في قَصَص الحيَوانِ فأثَّر في القِصص الأمويه
وكان الأفارقُ في منتداهم برُومَا يخصُّونَه بالتحيه
وكان أبولوسُ قاضيَ رُومَا ليُمْناه تُرفعُ كلُّ قضيه

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

أولئك آباؤنا، منذُ عيسى وكان محمَّدٌ صهرًا[٥٨] لعيسى
ولاحَ الصَّباحُ، فهزَّ السكارى وأجْلى الندامى، ورض الكئوسا
وأيقظَ حُلمَ الليَالي الحبَالى وأسْرجَ في الكائناتِ الشموسا
وأهوى على البغي يذرو الجذوع ويغرسُ في الجبروت الفئوسا
وحذَّر آدمَ ظلمَ أخيه وسَوَّى الحظوظَ، وأعلى الرءوسا

فكانت أوَّل جامعة من نوعها في الغرب، وجلب لها كبار الأساتذة من اليونان. وألَّف دائرة معارف شاملة في كافة العلوم. وهو أوَّل مَن وضع جغرافيةً لجزيرة العرب.

[٥٧] أبولوس ولد بمداوروش، وأجاد اللاتينية واليونانية، ثم انتقل إلى جامعة قرطاجنة فتخرَّج في الحقوق والآداب، والطب، ودرس الحقوق، وامتاز بمخبر للتجارب والتركيب والتشريح. تقدَّم به علم الطب لتحضير الأدوية ومعرفة العلل، وأسرار النباتات الغذائية والاستشفائية. كان شاعرًا باللاتينية وخطيبًا مصقعًا وراوية ممتازًا وعالمًا بالسحر وفنونه، ألَّف كتاب «التحولات» أو المسخ، وهو قصة طريفة، وكتاب «الزهريات» وكتاب «تقلبات الحمار» ونقل عنه الأمويون بعضَ قصصه على ألسنة الحيوانات. كان يُدعى إلى روما للمرافعات في القضايا الكبرى ثم أصبح بها قاضيًا، ويُدعى كذلك لعلاج المرضى، وكان من أبرز أعضاء النادي الأفريقي بروما الذي كان يجتمع فيه القياصرة الأفارقة وكبار الكتاب والأطباء والمحامين والمشرِّعين.

[٥٨] وكان نسبًا وصهرًا.

وأخــرج حــواء مــن رمــســهــا    فـألـهـمـت الـروح هـذي الـرمـوسـا
لـئِـن حـارب الـديـنُ خـبـثَ الـنـفـوسِ    فـلـم يـغـمـطِ الـديـنُ هـذي الـنـفـوسـا
ولــم نــكُ نــنــكــرُ آبــاءنَــا    أكـانـوا نـصـارى! أكـانـوا مـجـوسـا![59]
وهـل كـان بـربـر إلا شـقـيـقًـا    لـجُـرْهـم؟ هـلا نـسـيـنـا الـدروسـا؟
إذا عــرَّب[60] الــدِّيــن أصــلابــنــا    فـمـا زال أحـمَـد صـهـرًا لـعـيـسـى!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وُهِـبـنـا الـعُـروبـةَ جـنـسًـا وديـنًـا    وإنـا بـمـا قـد وُهِـبْـنـا رَضـيـنـا
إذا كـان هَـذا يـوحِّـدُ صـفًّـا    ويـجـمَـعُ شـمـلًا رفـعـنـا جـبـيـنـا
وإن كـان يَـعْـرُب يـرضـى الـهـوانَ    ويـلـبـس عـارًا ... أسـأنـا الـظـنـونـا
وقـلـنـا: كُـسـيـلـةُ كـان مـصـيـبًـا    وكـاهـنـةُ الـحـيِّ أعـلـم مـنَّـا!
فـأهـلًا وسـهـلًا بـأبـنـاء عـمٍّ    نَـزلـتُـم جـزائـرنـا فـاتـحـيـنـا
ومـرحَـى لـعـقـبـةَ فـي أرضـنـا    يـنـيـر الـحِـجـى، ويـشـيـعُ الـيـقـيـنـا
ويُـعـلـي الـصـوامـعَ فـي الـقـيـروانِ    ويـرفـعـهـا لـلـدفـاعِ حُـصـونـا[61]
يَـبـثُّ الـمـراحـلَ[61] فـي كـل فـجٍّ    فـراعـت أسـالـيـبـه الـعَـالـمـيـنـا
وبـادلـه الـسُّـمـرُ تِـبـرًا بـمـلـحٍ    ومـا كـان فـزَّانُ عـنـه ضـنـيـنـا[61]
ومـا كـان جَـوهـرُ إلا مـديـنًـا    لـعـقـبـةَ ... يَـوم اسـتـقـلَّ الـسَّـفـيـنـا[61]

---

[59] سواء كانوا ...

[60] عرَّب؛ أي صيَّرها عربية، من التعريب.

[61] وضع عقبة خطةً جديدة في زحف الجيش الفاتح في طريقه من مصر إلى المغرب. تعلَّم هذه الخطة الألمان، وانتفع بها الإنجليز في الحرب العالمية الثانية. وصورته: أن الطريق من مصر إلى القيروان، إما بحرية وهي مخيفة لوجود الأسطول البيزنطي وعدم وجود أسطول عربي، وإما جبلية والأمازيغ في الجبال ومغاورها كبيرة وغاباتها كثيفة، فلا يأمن الكمائن الصحراوية لكونها مجدبة وعديمة الزاد، فأسَّس عقبة مراحل على طول الطريق مزودةً بالماء والزاد والمخيمات، فإذا وصلها الجيش استراح واغتسل وأكل وشرب، ونام وتزوَّد وانتقل إلى التي بعدها على أتم وأوفر عُدة. ألَّف عن هذا ملر الألماني وقال: إن أساليب عقبة مبتكرة تدرَّس في أكاديمية ألمانيا، وقد درَّسها مونتقمري وانتفع بها وطبَّقها في إجبار ليبيا في الحرب العالمية الثانية، ثم إن عقبة يعلم أن المال هو عصب الحرب، وأن الذهب يوجد في أفريقيا السوداء. فأخذ

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بِشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وهَالَ ابنَ رُستمَ أن لا تسود ونَبني كِيانًا لنا مُستقلَّا
فقام بتاهرتَ يعلي اللواءَ ويُرسي نظامًا، وينشر فَضلا[62]
يُوجِّه حُكمَ البلادِ الشراةُ بوحي الشريعة حقًّا وعَدلا
ويجعَلُ أمرَ الجماعة شورى وحَقَّ انتخاب الإمامةِ فصلا
فلم يَكُ للتبعيات ذيلًا ولم يَكُ بالعصَبياتِ يُبْلى
فدوَّخَ بَغدادَ في أوْجهَا فكانت لتاهرتَ بغدادُ ... ظلًّا!
وفاض بها العلمُ يجلو العقولَ ويغمرُ أرضَ الجَزائر نُبلا
وتاه الرَّبيعُ بجَنَّاتها يهَادي تِلمسَان، وردًا وفُلَّا
فكان ابنُ حَماد من وحيهَا كأوصَافها، عَبقريًّا، وفحلا
وأفلحُ خلَّد أمجادهَا فأفلحَ أفلحَ قولًا وفعلا

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بِشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وإن تسألوا عَن بَني الأغلبِ سَلُوا الزابَ عَن جارهِ الأقرب[63]

---

الملح من فزان وذهب به وأبدله بمثله ذهبًا توفَّر له به تموين الحملة، فكانت هذه الطريقة التي اتبعها الفاطميون في إعداد الرحلة إلى مصر، فذهب جوهر إلى أفريقيا السوداء وبادل الأفارقة بملح المكنين ذهبًا، ثم إن عقبة بنى جامع عقبة في شكل حصون وأبراج وقلاع ومدخرات للماء عند الحاجة.

[62] نقل الرسميون إلى تاهرت نظام الدستور الإيراني الجامع كأساس لنظام الحكم، ويُسمَّى هذا الدستور باللغة الإيرانية «آمين بامه»، وهو جامع يشمل إلى جانب نظام الحكم آداب السلوك، وآداب المجالس وآداب الأكل والشرب والكلام. وشروط القضاء والشورى، وانتخاب الإمام، والنظام العسكري، وهيكل الجندرمة (جندار بالإيرانية)، وعسكر السبايس (بالإيرانية سباهي).

ثم إن الدولة مراقبة من طرف منظمة شعبية حرة تُسمَّى الشراه، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ﴾ إلخ الآية، ومهمتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتولية الحكام وعزلهم إذا حادوا عن الجادة، ويتألَّف الشراة من العلماء والفدائيين.

[63] جاره الأقرب: المهدية بتونس.

وطبنة[٦٤] ... هل تذكر ابن الحسين التَّـ ـميمي وتاريخه القرطبي؟
وعند مسيلة[٦٥] علم اليقين بمن حقَّقوا وِحْدة المغرب
برى الفَاطميون شعرَ ابن هَاني كما يُخلَق اللحنُ للمطرب
وأبدع، حتى تنبَّأ مثلي ... ولم يتقوَّل ... ولم أكذب!
علامَ يُلقَّب أندلسيًّا فتًى مغربيٌّ، أصيلُ الأب؟
فكم حَسدونا[٦٦] على مَجدنا وجَاروا على البلد الطيب!
وكم بالجَزائر من معجزات وإن جحدُوهَا، ولم تُكتَب!
وقالوا: الرسَالاتُ من مشرق الشَّمـ ـسِ، لكن يخالفهُم مَذهبي
ولو أرسَل اللهُ من مغرب نبيًّا ... إذن كذَّبوا بالنبي!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وفي قدسِ جَناتنا الناضره وُجوهٌ، إلى ربِّها ناظره ...
تمُدُّ المعزَّ لدين الإلهِ فيصنع[٦٧] جوهر والقاهره!
ويستلهم النيلُ من أرضنا صفانا، وأخلاقنا الطاهره ...
ويجري رُخاءً على هَدينا يواكب أفضالنا الزاخره

---

[٦٤] طبنة، من مفاخر الأغالبة، ومحمد بن الحسين الطبني من أعلام الفكر الذين أنبتتهم طبنة، كاتب بليغ ومترسل بديع الإنشاء، ومؤرِّخ واسع الاطلاع. وُلد بطبنة وانتقل إلى الأندلس في أيام المنصور الأموي. وكان شاعر البلاط ومؤرِّخه، واستوطن قرطبة إلى أن تُوفِّي بها سنة ١٩٤هـ/١٠٠٤ مسيحي. أورد المؤرِّخ ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة، وأورد ابن الأبار في الحلة الكثير من شعره. وكان يُلقب بمؤرخ قرطبة، وهو ممن تفخر به الجزائر في ميدان التصدير.

[٦٥] مسيلة، عاصمة المعز بن باديس الفاطمي، وفي أحضانها نبغ ابن هانئ الجزائري الملقَّب بالأندلسي تجنيًا على التاريخ، وكان يُلقَّب بمتنبي المغرب.

[٦٦] إشارة إلى أن المشارقة حين يؤرِّخون للأدب العربي لا يذكرون مفاخر الجزائر وتونس والمغرب؛ بل يقفزون من الشرق إلى الأندلس مباشرة كأنما المغرب الكبير لا وجود له في الخريطة، وذلك بدافع الكبرياء والغرور ومركب الاستعلاء، والمغرب الكبير يباهي المشرق في الإشعاع الفكري عبْر القرون.

[٦٧] يصنع جوهر والقاهرة — المقارنة في الصنع عميقة المفهوم.

وتُفهِم رَمسيسَ مَعنى انعتاقِ الشُّــ ـــعُـوب،[68] جَـزائـرُنـا الـثـائـره!
هـو الـنـيـلُ، خـلَّـد عـشـر قـرون وبـاركـنـا الـسَّـنـة الـعَـاشـره؟
وكـم شـابـهَ الـنـيـلُ[69] نـهـر دِمَـانـا تـمـور بـه الـمـهـج الـفـاتـره؟
وكـم ضـارعتْ فـي الـفدا كـليوبـترا جـمـيـلاتِ ثـورتـنـا الـهـادره!
ونـحـن الأمـازيـغُ نـرعـى الـذمـامَ ولا نـجـحـدُ الـفـضـلَ والآصـره!
ونُــكــبِــرُ مــصــرَ وأحــرارهَــا ومَـن آزروا حـربَـنـا الـظـافـره!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ مـن حَـنـايا الـجـزائـر

بُـولـوغـيـنُ يـا مَـن صَـنـعـتَ الـبـقـا سَـنَـحـفـظُ عَـهـدَك والـمـوثـقـا
فـيـريـمـوس[70] أم أنـت مَـن شـادَهـا؟ فـحـيَّـرت الـغـربَ والـمـشـرقـا؟
بـنـيـتَ الـجَـزائـر فـوق الـسـمَـاكِ فـكـانـت لـمِـعـرَاجـنـا الـمـرتـقـى
غـرسـتَ بـهَـا ذوبَ أكـبـادنـا ومِـن دَمـنـا غُـصـنُـهـا الـمـورقـا
عـلا بـالـمـديَّـةِ تـاجُ الـجَـلالِ فَـأعـلـى بـمـلـيَـانـةَ الـمـفـرقـا
ومَـن هَـدهـدَ الـصـدرَ بـالـتـوأمـيـنِ قـضـى لـلـجَـزائـر أن تـعـشـقـا
دَلالُ الـمـديَّـة أعـيـا الـمـلـوكَ وكـم خـاطِـبٍ ودَّهـا أخـفـقـا!
تـنـازعـهَـا الـرومُ، والـمـسـلـمـون وحـاول زيـانُ أن يَـسـبـقـا
وكـاد ابـنُ تـوجـيـن وابـن مـريـن بـنـار الـمَـديَّـة أن يُـحـرقـا[71]
مَـلائـكـةُ الـلـهِ[72] ... هـل نـقـلـوهـا؟ أجـلْ ... مَـن رأى حـسـنـهـا صـدَّقـا

[68] إشارة إلى العبودية التي فرضها الفراعنة على الشعوب. وببناء القاهرة نهضت مصر تنفض عنها غبار القرون.

[69] الحقبة القاهرة التي يعود فضلها مباشرة للجزائر.

[70] القول الصحيح أن بولوغين هو مؤسِّس الجزائر.

[71] أن يُحرقا: الألف للتثنية؛ أي أن يُحرق ابن توجين وابن مرين.

[72] زعم بعضهم أن المدية أو المهدية معناه أن البلدة قديمة عتيقة، وأنها إنما بُنيت في مكان آخر ثم نقلتها الملائكة إلى مكانها هذا.

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

أيا ومضةً مِن جَلال الشريعه ويا هِبةً مِن هبَات الطبيعَه
أشاع ابنُ يُوسفَ فيك الصَّلاحَ ووشَّى الجمالُ رُباك البديعَه[73]
أزكارُ أم أنتِ عُش العقا بِ؟[74] أمِ الصَّقرُ منك استمدَّ ضلوعه؟
أمِ العَاشق، المستهام، المعنى بنَبْع العناصر أجرى دموعه؟[75]
أم الحبُّ رقَّ لمجنون ليلى فرشَّ بعينِ النسورِ صَريعَه؟
أشادَكِ بُومبي مقوقسُ رُومَا؟ أم أن بولوغين رب الصَّنيعه؟[76]
فَأغرى بمليَانة الطامِعين وما كنت للطَّامِعين وديعه![77]
فَمَا ارتاح فيك بنو هندلٍ[78] وولَّى ابن عائشة بالفجيعه[79]
جَرى، مثل واديك، ناديك عِلمًا فبوَّأ أحمَد فيك الطليعه[80]
وأقطع يَعقوبُ أحمدَ أغما ت والنُّبلُ في ابن مَرين طبيعه[80]

[73] وكما الصالح سيدي أحمد بن يوسف.

[74] تُسمَّى مليانة عشَّ العُقَاب كما ذكر السيد م تلحمي في مجلة الأصالة، وزكار جبلٌ يطل على مليانة.

[75] يقول العبدري في رحلته عن مليانة: «لو رُشَّ بمائها المصروعُ لأفاق، كأن حصباءها جُمان، والماء من رقه دموع.»

[76] أجمع معظم المؤرِّخين على أن المدية دولة رومة ويضيفون أنها شُيدت على أنقاض المدينة الرومية المعروفة بزوكابار وأن القائد العظيم بومبي Pompey وحفيده مدفونان في مليانة، وشُوهدت على بعض أسوارها الحديثة لوحة تذكارية عليها كتابات ترجِّح مدفن بومبي وحفيده فيها، فهل شاركا في بنائها؟

[77] كانت هدفًا للطامعين من الملوك، وميدانًا للصراع بين الموحدين وبني غانية والزيانيين والصنهاجيين وبني مرين، وبني هلال، والمرابطين والحفصيين.

[78] يُقال إن بلدة مليانة من بني هندل، وهؤلاء من صنهاجة استوطنوا واد كنيس.

[79] بدر بن عائشة كان واليًا بمليانة من لدن علي بن إسحاق صاحب أبي يوسف يعقوب، لكن أهل مليانة طاردوا ابن عائشة وألقوا عليه القبض وقتلوه بعد فراره.

[80] أبو العباس أحمد بن علي من مفاخر مليانة، عالِم وفقيه وشاعر عملاق، أقطعه السلطان يعقوب المريني أغمات إكرامًا له.

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

| | |
|---|---|
| سَل ابن علناس[٨١] عَن ذكرنا | وقلْعَةَ حَماد عن مَجدنا |
| يُجِبْك ابنُ حمديس في الخالدين | ويَصنعْ قوافيه مِن وحْينا[٨٢] |
| وتُنبِئْك عائشةُ كيف كانت | ترقُّ وتقسو على بعضنا[٨٣] |
| وتذكُرْ بجَايةُ أحلافنا | وأسطولنا الضخمُ يغزو الدُّنا[٨٤] |
| وفي القصر تختال بَلَّارة | تشيع الضياء، وتفشي السَّنا[٨٥] |
| تَصَاهر فيها الدها والجمَال | فضمَّ انصهَارُهما شملَنا |
| وأعلتْ بجَايةُ هَامَ الجزائـ | ـر، عِلْمًا وشادت صُروح الهنا |
| وبَارى ابنُ سَبعين فيها النَّصارى | فأفحم مَن لاحقوا ظلَّنا[٨٦] |

---

[٨١] كان الملك الناصر بن علناس أعظم ملوك عصره شأنًا، وأوفرهم قوة وأكثرهم رعاية وتنشيطًا للعلم والعلماء.

[٨٢] عبد الجبار بن حمديس شاعر بجاية الجبار عطر الأجواء، أشاد بعظمة بني حماد، وخلَّد الناصر بن علناس بغرر من بدائع الشعر.

[٨٣] عائشة العمارية من أشهر الشاعرات النساء في دولة بني حماد، لها شِعر رقيق إلى جانب أهاجيها اللاذعة كقولها في رجل أصلع تقدَّم لخطبتها:

| | |
|---|---|
| عذيري من عاشقٍ أصلع | قبيح الإشارة والمنزع |
| برأس حويج إلى صفعة | ووجه حويج إلى برقع |

إلى آخر القصيدة ...

[٨٤] في أيام بني حماد امتدت علاقات الجزائر بأوروبا وتعاقدت بمعاهدات تجارية مع أغلب دول البحر المتوسط، وكان أسطول الدولة الجزائرية في أيامهم ضخمًا يضرب بسهم وافر في التجارة العالمية.

[٨٥] بلارة: بنت الشاعر تميم ابن المعز بن باديس، وإليها يُنسب قصر بلارة بالقلعة، وقد أبدع في وصفه عبد الجبار بن حمديس الصقلي، وكانت بلارة سببًا لمصاهرةٍ سياسيةٍ ناجحةٍ لما توفَّر فيها من دهاء سياسي وجمال؛ فجمعت بين الصنهاجيين بالمهدية وبين بني حماد ببجاية وكوَّنوا نوع فيدرالية.

[٨٦] جادلَ عبد الحق بن سبعين النصارى فغلبهم.

وأرقــامُــنــا الــعــربــيَّــة مــالــت أوروبــا الــعــجــوزُ لــهــا طــوعــنــا[87]
وكــان أبــو مَــديــنٍ والــثــعَــا لــبــيٌّ هــنــا، يَــرفــعــانِ الــبــنــا[88]
شَــغَــلْــنــا الــورى، ومَــلَأْنــا الــدُّنــا
بــشِــعــرٍ نُــرتِّــلــه كــالــصَّــلاة
تــسـابــيـحــهُ من حَــنـايـا الـجـزائـر
وتــنــجــبُ نَــدرُومَــةُ الــخَــالــديــن فــتُــعــلــي الــجــزائــرُ مــنَّــا الــجَــبــيــن
ويَــصــنــعُ وحــدَتــنــا ابــنُ عــلــي[89] فــيــرفــعُ رايــتــهَــا بــالــيَــمــيــن
وتــحــدُو مَــراكــشُ أقــدارَهــا فــتــنــفــضُ عــنــهــا غــبــارَ الــسِّــنــيــن
ويــنــبــض قــلــبٌ بــأرض الــجَــزَائــ ــرِ، تُــمْــسِــك تــونــسُ مــنــه الــوتــيــن
وتــنــصَــبُّ أنــدلــسٌ عــنــدنــا وتــرتــاحُ لــلــعــرب الــنــازحــيــن[90]
ويمضي ابنُ تُومرتَ يغزو الضلال فــيــخــلــصُ لــلــه عــقــلٌ وديــن
وتــصــفــو أعــزُّ الــمــطــالــب[91] فــيــه فــتــصــفــو الــمــنــاهــجُ لــلــسَّــالــكــيــن
وتــزخــرُ بــالــعــلــم أرجَــاؤنــا فــتــسْــمــو الــمــداركُ بــالــنــابــهــيــن
ويَــهــزجُ بــالــصَّــادحــات الــشــريــفُ[92] ويــلْــمــعُ يُــوســفُ فــي الــلامــعــيــن
مــتــى سَــيــتــوبُ الألــى لــم يَــزالــوا بــوحَــدةِ مــغــربــنــا كــافــريــن؟
شَــغَــلْــنــا الــورى، ومَــلَأْنــا الــدُّنــا
بــشِــعــرٍ نُــرتِّــلــه كــالــصَّــلاة

---

[87] انطلقت الأرقام العربية من بجاية إلى أوروبا.

[88] الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين دفين تلمسان من مواليد بجاية، وكذلك الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر العاصمة.

[89] سنة ٥٢٤ هجرية أسَّس عبد المؤمن بن علي الندرومي دولة الموحدين بعد أن قضى على دولة المرابطين بالمغرب الأقصى، وتقدَّم إلى المشرق فتسلَّم زمام المغربين: الأوسط والأدنى، ووحَّد بين المغرب والجزائر وتونس تحت إمرة المهدي بن تومرت، وركز الهلاليين الذين لم تهضمهم الدول السابقة.

[90] زخرت الجزائر وتونس والمغرب بجموع الأندلسيين المهاجرين اطمئنانًا للأوضاع السائدة آنذاك.

[91] «أعزُّ ما يُطلب» اسمٌ للمدوَّنة التي جمعها المهدي بن تومرت في القانون وتشريع الأحكام.

[92] الشريف بن عمارة الذي برز في فن الموشحات يوسف بن إبراهيم الوارجلاني المحقِّق الضليع والمؤرِّخ الواسع الاطلاع.

تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

تِلِمْسَانُ، مَهمَا أطلنا الطَّوافا | إليكِ تِلِمْسَانُ نُنهي المطافا
يغمراسنُ الشهمُ ضَاق اصطبارًا | وغالب خمسين عامًا عجافا[٩٣]
وأصلى بني حفصٍ حربًا عوانًا | وما اسطاع بابنِ مرين اعترافا[٩٤]
فكانت تلمسَانُ دار سَلَامٍ | وأمر الجَزائر فيها ائتلافا
فَأكرم بمشْوَرِها الوطني | وزيَّانُ يحسم فيه الخلافا[٩٥]
ويَدفعُ خطو بني عبد واد | فتغزو الحيَاة، ثقالًا خفافا
ويُسكِر هذا الوريطُ الدُّنا | فتعصرُ فيه النجُومُ سُلافا
ويكتبُ يحيى بن خلدون سفرًا | فيَهْتكُ في النيِّرات السجافا[٩٦]
وتنشقُّ مِنجَانةُ بالعذارى | فيلْتاعُ مُوسى ويأبى انصرافا[٩٧]
أفي رفرفِ الخُلد قد وجدوا | تِلِمسَانَ ... فاختطفوها اختطافا؟

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وأوغر قلبَ الصَّليبِ الحقود | عُلانا، وأمعن فينا الحسُود[٩٨]
وطافت بوهران جيطان غدرًا | وزيَّانُ مَا اسطاع حشْدَ الجنود[٩٩]

---

[٩٣] يغمراسن: أعلن استقلال المملكة الزيانية سنة ٧٣٣هـ وانفصالها عن دولة الموحدين التي أفل نجمها في مراكش تحت عوامل الهرم، أخذ يغمراسن طيلة خمسين عامًا من ملكه يضع أسس الدولة الحديثة.

[٩٤] بعد فترة طويلة من حروب ضد بني حفص شرقًا، وبني مرين غربًا تمكَّن رجال دولة بني زيان من تدعيم الاستقلال المطلق وتأسيس دولة قوية.

[٩٥] المَشْوَر — دار الشورى — أو البرلمان، ولا تزال معالمه بمدينة تلمسان لحد الآن.

[٩٦] كتاب يحيى بن خلدون بغية الرواد في تاريخ بني عبد الواد.

[٩٧] أقام ابن اللحام ساعةً ناطقةً (المنجانة) في قصر أبي حمو موسى الثاني، فكلما تقدَّمت ساعة من الوقت انفتح باب المنجانة وبرز من خلالها فاتناتٌ حسانٌ يعلِنَّ الوقتَ بمقاطع شعرية بديعة.

[٩٨] كانت الحملات على المرسى الكبير ووهران حملاتٍ صليبيةً قذرة؛ فقد تواطأ على الجزائر كلٌّ من الإسبان والبرتغال والفرنسيين، يقود هذه الحملة راهب أهوج هو خمنيس ximenès.

[٩٩] جيطان (أو خطاموس) كناية عن رعاع الإسبان.

ولـعْـلـعَ فـي بَـربَـروسَ نِـداهَـا فـثـارَ ... وأقـسَـم أن لا يـعـود[١٠٠]
ولـلـدِّيـنِ خـيـرٌ يَـصُـون حـمَـاه وأسـطولُـنـا فـي الـبحَـارِ يسُـود[١٠١]
قَـراصِـنَـةُ الـبـحـر، عَـاثـوا فـسـادًا فـأدَّبَ لـيـثُ الـبـحَـار الـقـرود
وخـاضَ الأمـازيـغُ سَـاح الـفـدا تُـبـارِكُـهـم صَـلـواتُ الـجـدُود
وآزرَنـا الـتُّـركُ حـتـى انـتـصـرنـا ولـم يـخفـرِ التُّرك مَاضي العـهُود
وقـمـنـا نـسـوسُ الـبـلادَ بـعـدلٍ ونـسدي الـجـميلَ، ونرعى الـحدود
ولـم نَـكُ لـلـتُّـركِ بـالـتـابـعِـيـن وإن عَـزَّزوا سَـعـيـنـا بـالـجـهـود
ونـحـن أنـاسٌ نَـعُـدُّ الـجَـمـيـل ونـرعـى ذمَـامَ الـصَّـديـقِ الـودود

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وجَـاءت فـرنـسا ... فـكنَّـا كـرَامًـا وكـنَّـا الألـى يُـطـعِـمـونَ الـطـعـامـا!
فـأتْـخَـمـهـا قـمـحُـنـا الـذهَـبـيُّ[١٠٢] وكـم تُـبطـرُ الـصَّدقـات الـلـئـامـا
وبَـاعـت فـرنـسَـا ضَـمـيـرَ الـيـهُـودِ فـبـاعَ ضَـمـيـرُ الـيـهـودِ الـذمـامـا
ومَـا كـان بـوشـنـاقُ إلا ابـن آوى ومـا كـان بـوخـريـصُ إلا طـغـامـا[١٠٣]
وخـرَّب شـارلُ الـمـريـضُ فـرنـسـا فـثـارَ بـهـا الـشـعـبُ يـغـلـي انـتـقـامـا

---

[١٠٠] كانت اللصوصية أو القرصنة البحرية على أشدها آنذاك؛ فالإسبان والبرتغاليون أنشئوا مع غيرهم من لصوص أوروبا سفن القراصنة، وانهالوا على مهاجري الأندلس والبلدان الجزائرية المتاخمة للبحر نهبًا وسلبًا.

[١٠١] جاء الإنقاذ والمعجزة على يد بطلَيْن خالدَيْن تركيَّيْن: بابا عرُّوج، وشقيقه خير الدين، كانا على رأس عمارة بحرية رهيبة من القرصان يعملان متطوعَيْن في سبيل الله لإنقاذ مهاجري الأندلس والاجتياز بهم إلى أرض العرب، اندلع لهيب الحماس في قلوب الجزائريين فدافعوا وانتصروا بإعانة الأتراك، واحتفظوا بديانتهم واستقلالهم، ولم يكن بيد الأتراك سوى الإشراف الروحي والباشوية التي تُسند إليهم بانتخابٍ من الديوان الذي يتكوَّن من أعيان الجزائريين.

[١٠٢] قصة الديون المترتبة على فرنسا من أجل تسديد ثمن القمح معروفة؛ فضلًا عن ديونٍ أخرى نقدًا.

[١٠٣] اشتركت خزينةُ الدولة مع بعض التجار كاليهوديَّيْن بوشناق وبوخريص في تموين تلك العملية الإنقاذية، وكان اليهوديان عميلَيْن لفرنسا.

وضاق الـفـرنـسـيـسُ بـالـعـاطِـلـيـن ... وما ذاقَ شـارلُ الـمـريـضُ الـمـنـامـا
وأوحَــى لــه قـمـحـنُـا غـزوَنـا ... فـأطـلـق هـذي الـقـمـوحَ سـهـامـا
وصَـبَّ الـنـفـايـات فـي أرضـنـا ... وخانَ المسيحَ، وأغرى السَّواما[١٠٤]
ومــروحــةُ الـداي لـم تـكُ إلَّا ... كما يستبيحُ اللصُوصُ الحراما[١٠٥]
أبـوتـانُ[١٠٦] ... هـل سـيـدي فـرجٌ ... وإن طـال لـيـلٌ ... أقـرَّ الـنـظـامـا؟

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

بَلى ... يَا فرنسيسُ، هَذا الحِمَى ... صَـنـعْـنـا سـيـادتـه بـالـدمَـا
بَلَـونـا الـسِّـنـينَ الطِّوال جـهَـادًا ... تـبـاركـنـا مـعـجـزاتُ الـسَّـمَـا
مَـضـت مـائـة وثـلاثـون عـامًـا ... نـذودُ، ونـأنـفُ أن نُـهـزمـا
صَـعَـدنـا، نـقـاوم، شـرقًـا وغـربًـا ... ونـجـعَـل أرواحَـنـا سُـلَّـمـا
غـزا لامـوريـسـيـيـر أحـمَـد بـاشـا ... فقمنا بسيرتا نصُون الحِمى[١٠٧]
وثُـرنـا نـقـاوم: بـيـتًـا فـبـيـتًـا ... وشـبـرًا فـشـبـرًا، ونُـسْـبـي الـدُّمـى
ولـولا تـخـاذلُ بـعـضِ الـكـسالـى الرَّ ... عـاديـد، لـم نُـفـلـت الـمـجـرمـا
مـعـسـكـرُ فـجَّـر عـزمَ الـشـبَـاب ... فـطـاولَ عـمـلاقُـهـا الأنـجـمـا

---

[١٠٤] وقف شارل العاشر ملك فرنسا يقول في خطاب العرش يوم ٢ مارس ١٨٣٠م ما نصُّه: «إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإعانة الله القدير لفائدة المسيحية جمعاء.»

[١٠٥] حديث المروحة معروف.

[١٠٦] بوتان الجاسوس الفرنسي الذي رسم خطة الهجوم من سيدي فرج بأمرٍ من نابليون بونابارت في يوليو ١٨٠٨م، وقد انتفع الجيش الفرنسي بتلك الرسوم عند حملته على الجزائر سنة ١٨٣٠م.

[١٠٧] اتخذت المقاومة الجزائرية بعد الاحتلال شكلين: سياسي رسمي، وشعبي. فأما السياسي فقد تولَّى زمام أمره الحاج أحمد، باي قسنطينة (وكان من عائلة المقراني الذي سيثور سنة ١٨٧١م) فالتفَّت حوله الأمة من جزائريين ومن بقايا أتراك، وكان احتلال لاموريسيير لمدينة قسنطينة سنة ١٨٣٨م إنذارًا بنهاية المقاومة الحكومية المنظَّمة فانتهى ظاهرًا، وبقيت النار تحت الرماد، وقد سجَّلت مدينة قسنطينة بدفاعها المجيد صفحة خالدة من صفحات البطولة؛ إذ اضطُرَّ الفرنسيون لاحتلال المدينة حارة فحارة ودارًا فدارًا، ودام حصارها سبع سنين كاملة.

وبُويع، شَاعِرهَا الهاشمي فكان بها القائدَ الملهما[١٠٨]
يَصوغ النظامَ، ويبري الحسَام فيقطرُ ذاك، وهذا ... دَما
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
أيا عَبدَ قادرٍ ... كنتَ القديرا وكان النضالُ طَويلًا عَسيرا
شرعْتَ الجهَاد، فلبَّاك شعبٌ وناجاك رَبٌّ، فكُنت النصيرا
ونظَّمتَ جَيشًا، وسُستَ بلادًا فكنتَ الأميرَ الخبيرَ الخطيرا
وألهبتَ في القابعين الحنَايا وأيقظتَ في الخانعين الضميرا
وحمَّلْتَ مَاريانَ[١٠٩] ما لا تُطيق وجرَّعتَ بيجو[١١٠] العذابَ المريرا
ثمانٍ وعشرًا[١١١] ... تخوض المنايا وتجزي السرايا، وتبني المصيرا
وتدمغ بالعلم مَن جَادلوكَ فكنتَ الضَّليع، وكانوا الحميرا[١١٢]
وكم رَامَ إغراءك العَابثون فلم تكُ غِمرًا صبيًّا غريرا[١١٣]

---

[١٠٨] المقاومة الشعبية في سنة ١٨٣٢م جمع وجوه القوم ورؤساء القبائل أمرهم في مؤتمرٍ عقدوه بمسجد مدينة معسكر، وبايعوا بالإمارة بطلًا شابًّا في الرابعة والعشرين من عمره، عُرف بينهم بالشهامة وقوة الشكيمة والرأي الحصين، هو الأمير عبد القادر بن الشيخ محيي الدين الهاشمي، على أن يؤسِّس دولة جزائرية إسلامية تصون الأمن وتوطِّد العدل وتتصدى للمعتدي، والأمير عبد القادر إلى جانب بطولته الحربية شاعر ملهم تفيض معانيه بالمشاعر النبيلة والحماس، والتغنِّي بأم البنين التي كانت مصدرًا من مصادر إلهامه.

[١٠٩] ماريان هي فرنسا.

[١١٠] وقائع الأمير مع «بيجو» مشهورة (راجع تحفة الزائر).

[١١١] دامت مقاومة الأمير ١٨ سنة من ١٨٣٠م إلى ١٨٤٨م.

[١١٢] المجادلات العلمية التعجيزية بين الأمير وجنرالات فرنسا وخصوصًا بيجو معروفةٌ، ويوجد لها تفصيل ضافٍ في تحفة الزائر.

[١١٣] من جملة الأساليب المفضوحة الفرنسية محاولةُ شراء الضمائر، وكم حاول الفرنسيون ذلك مع الأمير فأبى واستعصم بإيمانه.

وكم عاهدوك[١١٤] ... وكم أخلفوا وكنتَ بما يُضْمرون بصيرا ...
وعَبَّدتَ للشعب، دَرب الفدا وما خِسْتَ، مذ خطفوك أسيرا
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
تلقَّف رايتَك ابنُ الجَزائر وعند ابن زيَّان تُبلى السرائر[١١٥]
وهبَّ الزعاطشةُ الثائرون فهبَّ لنصرتِهم كلُّ ثائر

---

[١١٤] تخللت مدة الحرب عدة معاهدات عقدتها فرنسا مع الأمير، واعترفت له فيها بالسيادة والاستقلال على البلاد، لكنها كانت معاهدات غش وخداع لا تعقدها إلا متى رأت الخطر، وأرادت أن تستعدَّ لضربةٍ قاسية، أما الأمير فكان يعقد تلك المعاهدات مع علمه بما تنطوي عليه من خداع؛ ليستريح قليلًا ويستعدَّ لتسديد الضربات وتلقيها.

[١١٥] قاد الثورة العارمة في واحة الزعاطشة قرب بسكرة الزعيم الشهيد عبد الرحمن بن زيَّان سنة ١٨١٦م، وقد ذكرت تفصيلاتها بإسهاب «مجلة العالمين» La revue des deux Mondes وصورة الواقعة هي الآتية: عقد الزعيم عبد الرحمن بن زيَّان معاهدةً مع قيادة الجيش الفرنسي على ألا يهاجموا الزعاطشة، ويتولَّى هو إمدادهم بما يحتاجونه، وكان ذلك منه حيلةً جريئةً لربح الوقت والاستعداد لحملة هجوم، إلا أن قبطانًا فرنسيًّا تفطَّن للحيلة ومال للاستفزاز والتحدي قائلًا: هل يوجد جزائري لا يسجد أمام قدمي؟ فقيل له: نعم، عبد الرحمن بن زيَّان، شيخ الزعاطشة، فأمر بجلبه فامتنع عن المجيء إليه وأرسل إليه جيشًا فأباده عبد الرحمن وجيشًا ثانيًا فأباده، وثالثًا فحطَّمه فدامت الحربُ سنوات، وكانت المقاومة في كل شبر من الأرض، نخلة نخلة حتى استصفت مليون نخلة ومليون شهيد، ثم وصل الفرنسيون السور فوقفوا أمامه شهرًا يموتون دونه بدون طائل إلى أن فتحوا فيه ثغرة فكانت موتاهم التي من أحجار السور. ثم دخلوا المدينة فكانت الحرب شارعًا بشارع وبيتًا ببيت إلى أن وصلوا بيت الزعيم عبد الرحمن فكان يدافع حتى خلعوا البابَ فجلس يصلي وأولاده وأهل بيته يقاومون غرفة بغرفة وسقيفة بسقيفة وهو يصلي بصحن البيت، فجاء القائد الفرنسي وسأل: هل يوجد جزائري لا يسجد أمام قدمي؟ فقال له عبد الرحمن: أنا عبد الرحمن بن زيَّان ... فقال القائد: «إن خضعت عاملتك معاملة حسنة.» فقال: كلا، إني مجاهد في سبيل الله، وأفضل أن موت مجاهدًا من أن أعيش خائنًا لوطني. فقطع رأسه فأخرجه إلى جنوده بلحيته البيضاء المضرجة بدم الاستشهاد وقال لجنوده: قد مضى عليكم زمن طويل لم تلعبوا كرة القدم، وقد أحضرت لكم أعظم كرة فالعبوا بها. ثم أدخل أجناده على الحريم وقام أهل البيت من الرجال والمقاومين يدافعون عن الشرف فاجتز رءوسهم وأخرجها للاعبين، فقال أحد المجاهدين قولته الخالدة وهو يموت: «سوف يأتي أحفادنا ونخرجكم من بلادنا.» وصدقت المعجزة فخرجوا بعد مائة وأربع سنوات!

تـحـدَّى ابـنُ زيَّـان سُـخـف الـلـئـامِ فـمـات الـشـهـيـد، فـداءَ الـجـزائـر
وهَـل يَـخـفِـضُ ابـنُ الـجـزائـر هَـامًـا ويـحـنـي جَـبـيـنًـا أمـام الـصَّـراصـر؟
لـتـشـهـد بِـسَـكـرة إصـرارنَـا وصـدْقَ نـدانـا أمـام الـمـجـازر ...
وتـروي الـنـخـيـلُ لـعـقـبـةَ عـنَّـا وتـحـكِ الـرمَـالُ صـمـودَ الـقـسَـاور
ويـذكـرُ أبـو مـعـزةٍ لـلـجـبـال[١١٦] صـراعَ أبـي بـغـلـةٍ فـي الـمـغـاور
وتـحـفـظ سـطـيـفُ لأبـطـالـهـا وأبـطـال سـرتـا جـلـيـلَ الـمـفـاخـر
ودامَ الـصِّـراعُ، ولـم تـخـبُ يـومًـا شـعـالـيـلُـه، فـي الـقـرى والـحـواضـر
وكـانـوا الـبـغـاةَ، فـكـنَّـا الـمـنـايَـا وكـانـوا الـبُـغـاثَ، فـكـنَّـا الـكـواسِـر[١١٧]

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحُـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وتـذكـرُ ثـورتُـنـا الـعَـارمـه بُـطـولات، سـيـدَتـي فـاطـمـه[١١٨]
يُـفـجِّـر بـركـانـهـا جـرجـرا فـتـرجـف بـاريـس والـعـاصـمَـه!
وخـلَّـد بـاسـم أمـهَـا ذِكْـره فـزكَّـى قـداسَـتَـه الـدائـمَـه[١١٨]
وفـاضـت دمَـاءُ بـنـي رَاتـنٍ تـفـدِّي قـراراتِـه الـحـاسـمَـه
نـسُـومـرُ مـذ نـسَـبـوك لـتـاكـلا رفـضـتِ الـتـواكـلَ يـا فـاطـمَـه!
وألـهـبـت نـارًا تـذيـب الـثـلـوج وتـعْـصـفُ بـالـفـئـة الـظـالـمَـه
وجـنـدٍ، يُـبَـاع ويُـشـتـرى كـمَـا تُـبَـاع، وتُـسـتـأجـر الـسَّـائـمـه[١١٨]

---

[١١٦] ثورة أبي معزة وأبي بغلة وما وقع فيها من معارك بطولية في كلٍّ من سطيف وقسنطينة.

[١١٧] بغاث الطير: الطيور المهيضة الجناح، والكواسر جمع كاسر: أي النسور الكاسرة.

[١١٨] للا فاطمة نسومر ابنة سيدي محمد بن عيسى شيخ الطريقة الرحمانية، والدتها للا خديجة التي تُسمَّى باسمها قمة جرجرة، وزوجها سيدي الحاج عمر من قرية تاكلا، آيت أيراثن، كانت تُسيِّر الثورة في جبال جرجرة أولًا مع زوجها ثم بمفردها، وهي التي صرعت الباشاغا سي الجودي عميل فرنسا، وصمدت في مقاومتها من ١٨٥٦م إلى ١٨٥٧م على رأس المجاهدين المسلمين ضد ستة جنرالات فرنسيين: قاستو Gastu، رينو Renault، يوسف Yussuf، ماكماهون Mac-Mahon، ميسيا Maissiat، ديلنيي Deligny، كلهم تحت القيادة المباشرة للماريشال راندون Randon الذي ترأس العمليات في نفس الحين الذي كان فيه واليًا على الجزائر. للا فاطمة كانت تُسيِّر جيشًا يضم سبعة آلاف مجاهد ضد جيش الماريشال راندون الذي كان يضم خمسة وأربعين ألف مقاتل متوفر على جميع المعدات الحربية الحديثة، وشملت ساحة

وأرعفتِ رَاندون في كبره ودست على أنفه الراغمَه
وصعَّرت للجنرالات خدًّا فخابت نواياهم الآثمَه
أتنسى الجزائرُ حواءها؟ وأمجَادُهَا لم تزل قائمَه؟
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
بنو سيِّدي الشيخ[119] قادوا النضالا فهزوا الثرى وأذابوا الجبَالا
سُليمانُ حمزةُ آلى يمينًا فبرَّ، وأصلى المغيرَ الوبالا
سَلوا بُوبريت[120] العقيد المسجَّى وحمْزةُ يغرس فيه النبَالا
ويستل من صَدره رُوحَه بيُمناه، يبكي عليْه الثكالى

---

العمليات كل جبال جرجرة إلى قمة للا خديجة، والموقعة الحاسمة كانت في معمعة أشريضن في ٢٤ يونيو ١٨٥٧م، اعتقلت للا فاطمة في قرية تاكلا يوم ١١ يوليو ١٩٥٧م مع أتباعها إخوان الرحمانية.

[119] أولاد سيد الشيخ بقيادة الباشاغا سليمان بن حمزة بن بوبكر سنة ١٨٦٤م، والتفَّت حوله قبائل أولاد سيدي الشيخ وهزموا الفرنسيين شر هزيمة، وأعادوا الكرَّة تحت قيادة الكولونيل بوبريتر، وكانت نهاية المعركة التي دامت طويلًا موتَ سائر رجال فِرَق العدو، بما فيها الكولونيل قائدها، وقد تمكَّن البطل سليمان بن حمزة من قتله بيده أثناء المعركة، ثم استُشهد بعد ذلك خلال المعركة، وكان من بين الفِرَق المعتدية القوم؛ أي الجند الجزائري المتطوع مع فرنسا، وما كادت المعركة تلتهب حتى أخذت الحمية الإسلامية جماعة القوم، فانقضوا على الفرنسيين وانضموا للمجاهدين، وقام بالصحراء، جنوب الأغواط، بوشوشة وفي نفس الصحراء ثار معه المجاهد ناصر بن شهرة، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه بومرزاق والمقراني ينظمان المقاومة في الشمال. والشيخ عزيز بن الشيخ الحداد يوجِّه النداءات الصارخة إلى كل مناطق الجزائر يستنفر الناس للقتال، ويقول: إن الوقت حان، وإن فرنسا فريسة الضعف فيجب انتهاز الفرصة، وذلك في آخر سنة ١٨٧٠م. وكان الاتصال وثيقًا آنذاك بين المقراني والشيخ الحداد؛ إذ زار المقراني الشيخ الحداد يوم ٨ يناير ١٨٧١م، سرًّا في صدوق، وتبادل معه النظر في ضرورة إعلان الجهاد، والتأمَت عائلة المقراني كلها في مجانة، وفي ليلة ١٤ مارس ١٨٧١م أعلن المقراني الجهاد رسميًّا بناء على سياسة الإسلام في عدم مباغتة العدو، وكذلك حسب مبادئ الأمم المتحدة الآن، وقد أرسل المقراني إلى الجنرال الفرنسي في العاصمة يقول له: «اعلموا أننا في هذا اليوم قد أعلنا الجهاد عليكم وضدكم، وغدًا نبتدئ الجهاد.» وبعث كذلك باستقالته من وظيفة باش أغا. ورد المحاولة التي بعثتها له فرنسا، يوم ١٥ هاجم برج بوغريرنج واحتلها، ومن هناك انطلقت الثورة عارمةً لا تُبقي ولا تذر.

[120] العقيد الفرنسي بوبريتر Beauprétre.

ووهـران تـصـرخ فـيـهـا الـدمـاء    بـسَـاحِ الـفـدا، تـسـتـفـزُّ الـرجَـالا
وصَـحـراؤنـا وابـنُ شُـهـرةَ فـيـهـا    يَـهـيـلُ عـلـى الـغـاصـبـيـن الـرمَـالا
وجـيـشُ أبـي شـوشـة الـمـسـتـميت    بـصـحـرائـنـا، يـنـسـفُ الاحـتـلالا
وصـوتُ ابـن حـدَّاد دوَّى دويًّـا    يـنـادي: الـبـدارَ، ويـدعـو: الـقـتـالا
ومـن آل مُـقْـران فـي الـشـاهـقـات    نـسـورٌ، بـواشـقُ، تـهـوي الـنـزالا
وقـال بـومَـزراق حَـان الـجِـهـاد    فـحـقَّـق بـالـمـعـجـزات، الـمـحَـالا

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

فـيـا آل مُـقـرَانَ أُسـدَ الـكـفـاح    ونـبْـعَ الـندى، والـهـدى والـصَّـلاح
نـهـدتـم، تـشـقُّـونَ دَربَ الـخـلـود    فـعـبَّـدتـمـوا نـهـجـه بـالـسَّـلاح
وحَـدَّادُ فـي الـسـوق ألـقـى عـصَـاه    وأعـلـنـهَـا فـي الـذرى والـبِـطـاح[١٢١]
كمثلِ عَصَاي ... سَأُلقي الفرنسيـ    ـسَ في البحر، أركُلُهم بالرِّمَاح
سَـلامٌ لـمـقـرَان يـمـضـي شـهـيـدًا    بسُـوفـلاتَ رَمـز الـفـدا والـكـفـاح[١٢٢]
ولابـن الـثـمـانـيـن يـغـدو أسـيـرًا    ومَـا كـبَّـل الـقـيـدُ فـيـه الـطـمـاح[١٢٣]
ومرحَى لمالك[١٢٤] يطغى بشرشا    لَ بـرْكـانُـه بـالأمـانـي الـفِـسـاح

---

[١٢١] يوم ٨ أبريل ١٨٢٧م أعلن الشيخ الحدَّاد الحربَ وهو يتجاوز الثمانين من عمره، وذلك في سوق صدوق، وألقى عصاه بعد صلاة الجمعة في السوق وسط الجمهور وقال: سنرمي الفرنسيين إلى البحر كما رميتُ أنا هذه العصا إلى الأرض.

[١٢٢] استُشهد محمد المقراني يوم ٥ مايو ١٨٧١م بسوفلات، قرب عين بسام.

[١٢٣] بعد معارك عنيفة طاحنة شاملة أُلقي القبض على الشيخ الحدَّاد قرب بجانة وقد تجاوز الثمانين، وكان مشلولًا ومحمولًا على نعش، وذلك يوم ١٣ من يوليو ١٨٧١م.

[١٢٤] مالك البركاني ابن أخي عيسى البركاني أحد خلفاء الأمير عبد القادر. أعلن الحرب يوم ١٣ يوليو ١٨٧١م في سوق الأحد بنواحي شرشال وجبال مناصر في ولاية الأصنام، بنفس الطريقة التي أعلنها بها قبله الشيخ الحدَّاد.

وعاشت مناصرُ رَاحت تناجي بِوذريس شيخًا وريف الجناح[١٢٥]
فردَّد رَجع صَداهُ أبُو عَمامَة يُدني حظوظَ النجاح[١٢٦]
وهقَّارُ تزهُو بآمودهَا يَذودُ عن الشرفِ المستباح[١٢٧]

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بِشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

جَزائر، أبدعَهَا ذو الجَلال وصَوَّر طينتها مِن نضَال
بلَادٌ تُمَازح عُشاقهَا وتمنعُ عنهم لذيذ الوصَال
فَما انكفأت ثورةٌ في السُّهُول ولا انطفأت ثورةٌ في الجبَال
ولم يَحن أوراسُ هامَتهُ ولا هدأت عاصفاتُ الرمال[١٢٨]
ولا استسلمت جُرجرا للمغير ولا أوهَن العزمَ طولُ النكال
سَلوا سَاحة الشهَدَاء أمَا بها قرَّر البدوي[١٢٩] المثال؟
ودَوَّى بشرشال صَوتُ النفير وإن كان يَبدو بَعيدَ المنَال!

---

[١٢٥] في الحين الذي كان يدير فيه الحرب مالك البركاني في جبال بني مناصر والظهرة، كانت هناك حروب يقودها في الشمال أمثال الشيخ الصدقاوي في جبال جرجره، وكان شيخًا في زاوية وذريس.

[١٢٦] كان أولاد سيدي الشيخ في الصحراء الوهرانية يواصلون الكفاح الذي بدءوه سنة ١٨٦٠م. وأسد وطبة عام ١٨٨١م تحت قيادة بوعمامة من أولاد سيدي الشيخ واصل الكفاح مدة طويلة، ووصلت جيوشه حتى المدية وضواحي العاصمة.

[١٢٧] لما خمدت ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة تواب وعين صالح سنة ١٩٠٠م واصل الطوارق الكفاح في الهقار وفي نواحٍ أخرى من الجزائر تحت قيادة الشيخ آمود حتى سنة ١٩١٢م، وكلمة آمود باللغة الأمازيغية معناها السارية أو العرصة.

[١٢٨] لم يخضع أوراس ولا جرجرة ولو مرة واحدة للعدو طوال أيام المقاومة.

[١٢٩] في مدينة الجزائر والجهات المتعددة غربها إلى مدينة شرسال قامت الثورة كذلك في تلك الآونة إلا أنها لم تكن عنيفة قاسية؛ إذ أعلن أحد رجال العاصمة الغيورين السيد محمد البدوي في «ساحة الحكومة» آنذاك استقلال البلاد، وأخذ ومَن معه محاولة تنظيم الإدارة المستقلة الجديدة، لكن الحركة أخفقت وأرسل الفرنسيون السيد البدوي للسجن الضيق يمضي به سبعة أعوام.

وراودَ صـــدقُ الــضَّـــمـيــرِ الـــ  أمير[١٣٠] فقامَ يلاحقُ طيفَ الخيَال
ويَـعـدُو بـفـرسَـاي خـلـفَ الـوعـود  يَـنـاشـدُ ولْـسـونَ فـرضَ الـمـحـال!
تـجـاريـبُ خَـالـد مَـهـمَـا تـكـن ...  فـلـم نـكُ نُـغْـمـط قـدْرَ الـرِّجـال!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحُـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

لئن بحَّ صَوتُ السيوفِ الصقال  وأغْـفـى صَـريـرُ الـرِّمَـاح الـعَـوالـي
فـحـربُ الـيـراع أعـادَ الـصِّـراع  يـقـود سَـراياه نـجـمُ الـشـمـال[١٣١]
بـأرض فـرنـسـا، يَـدُكُّ فـرنـسـا  ويـنْـذرُ سَـاسـتـهـا بـالـوبـال
مَـعـامـيـدُ تـزخـرُ فـيـهـم حَـنـايـا  بـرُوحِ الـفـدا، والأمـانـي الـغـوالـي
تُـبَـاركـهـم صَـرخَـاتُ الـضـمـيـر  وتُـلْـهِـمُـهـم ذكـريـاتُ الـنـضـال
وقـال الـرعـاديـد: قـومٌ رعـاعٌ  مـجـانـيـنُ، تـجـري وراء الـخـيـال
وقـال الـمـنـاجـيـدُ: قـومٌ كِـرامٌ  صَـنـاديـدُ، مـن عـظـمـاء الـرِّجـال
وقال الفرنسيسُ: بئسَ المصير  إذا الـقـومُ لـم يُـمـحَـقـوا بـالـنـكـال
وقـال الألـى نـاصـروا حـزبـنـا  سَـنَـقْـضِـي عـلـى لـعـنـةِ الاحـتـلال
وقـال الـذي خـلَّـدوا شِـعْـرهُ  فـدَاءُ الـجـزائـر، رُوحـي ومَـالـي[١٣٢]

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحُـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

---

[١٣٠] الأمير خالد ابن الأمير عبد القادر الجزائري، كان يطالب فرنسا بإنجاز عهودها الكاذبة للجزائريين أثناء الحرب العظمى، وكان يطالب بإلغاء القوانين الاستثنائية (الأندجينا) وبوجوب تطبيق الإصلاح الممثل في تسوية الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات. ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسي، وبمجرد أن وضعت الحرب أوزارها شكَّل وفدًا أمام ساحة فرساي؛ حيث إن الأمريكي «ولسون» يحاول عبثًا فرض بنوده التي نادى بها أيام الحرب، ومنها حرية سائر الشعوب في تقرير مصيرها.

[١٣١] حزب نجمة أفريقيا الشمالية.

[١٣٢] نشيد الانطلاقة الأولى لمفدي زكريا، وكان نشيد حزب الشعب الجزائري ويُسمَّى إذ ذاك النشيد الوطني، وبقي كذلك حتى خلفه في المجال الرسمي نشيد «قسمًا» لنفس المؤلِّف.

وفـي الـدَّار جَـمـعـيـةُ الـعُـلـمـاء     تُـغـذِّي الـعـقـولَ بـوحـي الـسَّـمـاء
وتَـهدِي الـنـفـوسَ الـصِّـراطَ الـسَّـوي     وتـغْـرسُ فـيـهـا مـعـانـي الإبـاء
تُـواكـبُ نـجـمَ الـشـمَـالِ انـدفـاعًـا     وتَـغـمـرُ أكـوانـهُ بـالـسَّـنـاء
ويَـعْـضُـدُ باديسَ فـيـهـا الـبـشـيـرُ     فـتـزخـرُ بـالـخُـلَّـصِ الأصـفـيَـاء
وتَـغـزو الـضـلالاتِ فـي الـتـائـهـين     مـع الـوهـمِ، فـي مـوكـبِ الأغـبـيـاء
وتُـرسـي جـذورَ الأصَـالـة فـي الـشَّـعْـ     ـبِ، تـمـحـو بـهَـا وصـمَـةَ الـدخـلاء
وتـبـنـي الـمـدارسَ عُـرض الـبـلاد     فـيُـعـلـي ابـنُ بـاديس صَـرحَ الـبـنـاء
ويـرْتـاعُ مـسـتـعْـمـرٌ مـسـتـبـدٌ     وتـخـشـى الـخـفـافـيـشُ نـبعَ الـضـيـاء
ويـرْهـبُ ظـلَّ الأسـود ابـنُ آوى     ويـؤذي الـمـنـافـقَ صـدقُ الـنـداء
كـذا عـبَّـد الـعـلـمـاءُ الـثـنـايـا     بـوحـي الـسَّـمـاء، ووحـي الـدمَـاء

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

جَـزى الـلـه عـنَّـا الـشـدائـدَ خـيْـرًا     وذكـرى احـتـلالِ الـجَـزائـر[١٣٣] شُـكـرَا
وإنْ نَـنـسَ هَـلَّا نَـسـيـنَـا الـجِـراح     ومَـا تـزال الـجـرَاحـاتُ حـمـراَ؟
وإن آلـمـونَـا بـمـائـة عَـام     حَـفِـلـنـا بـعـيـدِ الـجَـزائـر دَهـرا
وإن رَقـصُـوا فـوقَ أشـلائـنـا     وأحـيَـوا عـلـى مَـذبـحِ الـشـعـبِ ذكـرى
رَقَـصْـنَـا عـلـى نـغـمـاتِ الـرَّصَـاصِ     ورُحـنـا نـبـثُّ الـمـقـاديـرَ سِـرًّا
وإن خَـسَـفـوا نَـجـمَ هَـذا الـشـمـا     لِ،[١٣٤] فـلـلـشـعـبِ حـزبٌ مَـضـى مـسـتـمـرًّا
ضَـمَـائـرُ أخـلـص فـيـهـا الـبـقـاء     عـلـى الـعـهـد ... مَـا إن تُـبـاع وتُـشـرى
إذَا مَـا فـيـولـيـتُ[١٣٥] ضَـلَّـل قـومًـا     وغَـرَّ ضـعَـافَ الـعـقـولِ وأغـرى!
وخَـدَّر قـومًـا بـمـؤتـمـرات[١٣٦]     فـظـنَّـت سَـرابَ الـمـتـاهـات نـهـرا!

---

[١٣٣] العيد المئوي المشئوم.

[١٣٤] حل حزبِ نجمةِ أفريقيا الشمالية.

[١٣٥] مشروع بلوم فيوليت.

[١٣٦] المؤتمر الإسلامي عام ١٩٣٦م الذي حرَّف علماءنا للمطالبة بالاندماج والوحدة الفرنسية عن اجتهاد خاطئ، وعن حسن نية وإخلاص بعيدين عن الدهاء السياسي.

فلـلشـعـبِ حـزبٌ يَصُـون المـبادئ وشـعـبُ الـجـزائـر بـالـنـاسِ أدرى!
شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ مـن حَـنـايا الـجـزائـر
أفـاق مِـن الـوهـم حـزبُ الـبـيَـان فـأسْلَـم لـلمخـلـصـين الـعـنـان[137]
وزايـلـه الـشـكُّ فـي أصـلـه فـمُـدَّت لـحـزب الـبَـيَـانِ الـيـدان
وأوحـى انـدمَـاج فـرنـسـا انـدمَـاجًـا لـحـزبـيـنِ مَـرمَـاهـمـا تـوءمـان[138]
فـبـارك بـاديـسُ جـمـعَ الـصُّـفُـوف ودَشَّـن بـاديـسُ عَـهـدَ الأمَـان
ويـولـيُـوزُ والـمـلـعـبُ الـبَـلـدي وأحـمَـدُ يُـعـلِـن فـيـه الأذان[139]
ويَـصـعَـقُ فـيـه بـصَـوتٍ جَـديـد فـيَـصـعـقُ مـنـه الـعـتـلُّ الـجـبَـان
ولاذت فـرنـسَـا بـأصـنـامِـهَـا تـحـاول بـالـدَّسِ كـسْـبَ الـرهَـان
فـتـغـتـالُ كَـحُّـولَ تُـلـقـي دمَـاه على الطيِّبِ الواسعِ الصولجان[140]
لـئـن خـانَـنَـا الـدَّهـرُ فـي طـيـب وأصـغـى مـصَـالِـي لـغـدرِ الـزمَـان
فـلـن يـجـحَـدَ الـفـضـلَ تـاريـخُـنـا وهـذي الـدُّنـا لـلـرجَـالِ امـتـحَـان!
شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ مـن حَـنـايا الـجـزائـر
وإن وُزِّع الـرأيُ حـزبًـا عـتـيـدًا ففي القَصْد، مَا انفكَّ حزبًا وحيدا[141]
وتـأبَـى الـزعـامـاتُ كـبـحَ الـطـمـوح فـتـصـنـعُ لـلـخُـلـفِ شـكـلًا جـديـدا
وتُـغـري الـكـراسـي ضـعـافَ الـعـقـول كـنـارِ جـهـنَّـم، تـرجـو الـمـزيـدا

[137] إشارة لإقلاع فرحات عباس عن تساؤلاته اعترافًا بالحق، والرجوع إلى الحق فضيلة.

[138] أي أن المطالبة بالاندماج أوحت لحزب البيان بعد الاصطدام بالواقع بفكرة اندماج الحزبين، حزب البيان وحزب الشعب، بعد اعتناق البيان لمبادئ حزب الشعب والتوبة من خرافة الوحدة الفرنسية.

[139] إشارة للمفاجأة المدهشة التي قام بها أحمد مصالي الحاج جهارًا لأول مرة بالجزائر في المطالبة بالاستقلال خلال الخطاب التاريخي يوم ١٤ يوليوز ١٩٣٦م بالملعب البلدي بعاصمة الجزائر.

[140] الشيخ الطيب العقبى والشيخ كحَّول.

[141] انقسام حزب الشعب.

وتـغـزو الـسـيَـاسـةُ فـكـرَ الـزعـيـم فـيـصـبـحُ فـكـرُ الـزعـيـمِ بَـلـيـدا
كـأنَّ الـزعـامـةَ إعـصَـارُ جـانٍ ولـم أرَ لـلـجَـانِ عَـقـلًا رَشـيـدا
ومـا الإنـتـصـارُ[142] دخـولُ انـتـخـابٍ وضـربُ الـموائـدِ، ضـربًـا شـديـدا!
ولا كـلـمـاتٌ عَـلـى جـدرانٍ هَل الحِبرُ في الحَربِ كان مفيدا؟
ولا بـالـهُـتـافـات عـاش ... ويـحـيـى فـمـا حَـرَّر الـقـولُ قـومًـا عَـبـيـدا!
ولا بـالـوفـودِ ... وسـمْـعُ فـرنـسَـا أَهَـالَ عـلـيـه الـغـرُورُ الـصـديـدا ...
ولـن يـغـسـلَ الـعَـارَ إلا الـدَّمَـا وعاش الحديدُ ... يفلُّ الحديدا ...

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

ولـم نَـنـسَ فـي أربَـعـينَ وخَـمـس ضَحَايا المذابح في يوم نحس[143]
طـربـنَـا مَـع الـحُـلـفَـاء اغـتـرارًا وقـمْـنـا نـصـفِّـق فـي غـيـرِ عـرس
فـكـانـوا مَـع الـغـدْر، عَـونًـا عـلـيـنـا ودَرسًـا لـقـادتـنـا أي دَرس
وكـانـت مـجـازرهـم بـسـطـيـف وقـالـمَـة لـلـشـعـب، دَقـات جـرس
وهـز لِـسَـتْـراد شَـعـبًـا تـوانـى وأيـقـظ فـي الـعُـمق مـيـت حـس[144]
وعـلَّـمـنـا آشـيـاري الـثَّـنَـايـا فـبـدَّد لـونُ الـدِّمـآ كـل لـبـس[145]
وكـانـت تـلاحـق أقـلامُـنَـا سَـرابَ الـضـيَـاعِ فـبـاءت بـبـخـس
وكـانـت تُـكَـافـح أحـزابُـنَـا مـع الـوهـم، بـيـن صـراخٍ وهـمـس
فـعـطَّـل صَـوتُ الـرصَـاص الـلـغـى وأنـطـق ألـسـنـةً غـيـر خُـرس
فَـقـامـت تـعـبِّـد أكـبَـادُنـا طَـريـقَ الـتـخـلُّـص مـن كـل رجـس

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة

[142] الانتصار للحريات الديمقراطية.

[143] مجزرة سنة ١٩٤٥م في سطيف، وخراطة، وعين الكبيرة. وعموشة، وبني عزيز ... إلخ.

[144] الجلاد ليستراد كاربونيل طاغية قسنطينة.

[145] آشيارى جلاد قالمة.

تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

فيا أربَعينَ وخمسًا[146] أعيدي     فَضَائِحَ جُندٍ، غَبيٍّ بليد
وآثام أحلاسِ جَيشٍ عَميلٍ     عَديمِ الحياَ، كضمير اليهود
ويا ذكرَيَاتِ الدِّماءِ الغوالي     أفيضي جَلَالكِ ملء نشيدي
ويا لَعَنَاتِ السمَاء، انزلي     صَواعقَ، فوقَ الظلوم الحقود
ويا زهرَةً، زرعتْها دمَانا     وفَتَّحْنَهَا بالصَّباح الجديد
ألَا، ضَمِّخي مُهَجَاتِ الضحايا     بخراطة[146] المجد ربض الأسودِ
تُنَافِحْكِ عَمُّوشَةُ[146] الخالدين     عبيرًا، فَيخْجَلُ عِطرُ الورود
وهُزِّي بعِزتنا في بني[146] عـ     ـزيز المغاوير، صدرَ الوجود
وتيهي بمن شيَّدوا للبقا     ومَن كتَبُوا صَفحاتِ الخلود
ومَن قرَّروا للبلاد المصير     بنور الحجَى، وبنار الوقود

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وطالت خرافاتُ حَربِ الكلام     ومَا بَلغ الشعبُ فيه المرام
فآمنَ بالنارِ مَن عَرفوهَا     ومَن كاشفتهم بسرِّ النظام[147]
إلى أربَعينَ وتسعٍ سَلَامي     وقد بَلغ الشَّعبُ فيها الفِطام
فكانت شرَارةَ حَربِ الخلاصِ     وإن أخفتوها بلغو الكلام
رَعَى الله عيمش[148] في الخالدين     وكَحَّال[149] في السَّابقين الكرام

[146] مجازر ٨ مايو ١٩٤٥م أشهر من أن نعلّق عليها هنا بكلمات وجيزة، ويكفي أن نقول بشأنها إن الجزائريين أرادوا المشاركة في الاحتفال في ذلك اليوم مطالبين بالاستقلال الموعود، فكاد لهم الفرنسيون الذين أطلقوا الرصاص على الكشافة ونظَّموا مجازر في قالمة، وسطيف، وخراطة، وعمُّوشة، وبني عزيز، ذهب ضحيتها أكثر من خمسة وأربعين ألفًا من الجزائريين، وهي المشهورة بحوادث ١٩٤٥م.

[147] إشارة إلى المنظمة السرية OS عام ١٩٤٩م التي افتُضِح أمرُها في تبسة.

[148] عمر عيمش من المشاركين في تأسيس حزب نجمة أفريقيا الشمالية.

[149] أرزقي كحال من الأبطال الذين خاضوا معركة النضال بحماس نادر في صف نجمة أفريقيا الشمالية.

ورَابِـحُ[150] تـعـبـقُ أنـفـاسـه وغـرَّافـةُ[151] الـوطـنـي الـهـمَـام
وعـسـلـة[152] يـنـدبـه طـالـب[153] فـيـلْـحـقـه، بـعـد مـرِّ الـسـقـام
ودوار[154] يـسـتـقـبـلُ الـشـهَـداء ومَـن أخـلـصـوا لـلـوفـاء والـذمـام
هُـم الـثـائـرون الألـى وَلـدُوا نوفمْبرَ من صُلبهم، فاستقام!
مَـتَـى نـزلـت ثـورةٌ مِـن سَـمَـاء نزولَ المسيحِ ... عليه السلام؟

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

تـأذَّن رَبُّـك لـيـلـةَ قـدَر[155] وألْـقـى الـسِّـتـارَ عـلـى ألـفِ شـهـر
وقـال لـه الـشـعـبُ: أمـرُك رَبـي! وقـال لـه الـربُّ: أمـرُك أمـري!
ودَان الـقـصَـاصُ فـرنسَـا الـعَـجـوز بـمـا اجـتـرحـت مـن خـداعٍ ومَـكـر
ولـعْـلـع صَـوتُ الـرصَـاصِ يَـدوي فـعـافَ الـيـراعُ خـرافـاتِ حـبـر!
وتـأبَـى الـمـدافـعُ صَـوغَ الـكـلام إذا لـم يـكـن مـن شُـواظٍ وجـمـر!
وتـأبَـى الـقـنـابـلُ طـبـعَ الـحـرُوف إذا لـم تـكـن مِـن سـبـائـك حُـمـر!
وتـأبَـى الـصَّـفـائـح نـشـر الـصَّـحَـائـ ـفِ مَا لم تكن بالقرارات تسري!
ويـأبـى الـحـديـدُ اسـتـمـاعَ الـحَـديـثِ إذا لـم يـكـن مـن رَوائـعِ شـعـري!

---

[150] رابح موساوي: من مؤسسي نجمة أفريقيا الشمالية ومن أبرز مناضليها.

[151] الشهيد إبراهيم غرافة من طلائع الرعيل الأول في النضال الوطني ومن الأفذاذ القلائل الذين ذابوا في معركة التحرير.

[152] حسين عسلة من أشجع وأنشط أبطال حزب الشعب.

[153] محمد طالب من مفاخر حزب النجمة وحزب الشعب.

[154] محمد دوار من أبطال حزب الشعب والانتصار كان نائبًا، واغتُيل بيد الاستعمار الآثم.

ويضيق المقام عن ذكر سائر الأبطال الميامين، الأموات منهم والأحياء؛ فمنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر وما بدلوا تبديلًا.

[155] ليلة القدر: يقصد بها هنا ليلة فاتح نوفمبر ١٩٥٤م التي اندلع فيها الكفاح التحريري المسلح، هذه الحلقة الجديدة من سلسلة طويلة من الثورات على الاستعمار والاحتلال الأجنبي، منذ ماسينيسا ويوغورطة حتى استرجاع الاستقلال في ٥ يوليو ١٩٦٢م.

نوفَمْبَرُ غيَّرتَ مجرى الحَياة    وكُنتَ — نوفَمْبرَ — مَطلعَ فجر!
وذكَّرْتنا — في الجزائر — بدرًا    فقمْنا نُضاهي صَحَابةَ بَدر
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
نُوفمْبَرُ جَلَّ جَلالُك فينا    ألستَ الذي بَثَّ فينا اليقينا؟
سَبحْنا على لججٍ من دمَانا    وللنَّصْرِ رُحنا نسوقُ السفينا
وثُرنا، نفجِّر نَارًا ونورًا    ونصْنعُ من صُلبنا الثائرينا!
ونُلهمُ ثورتنا مُبتغانا    فتُلْهمُ ثورتُنا العَالمينا[١٥٦]
وتسخرُ جَبهتنا بالبَلَايا    فنسخرُ بالظلم والظالمينا
وتعنو السِّياسةُ، طوعًا وكرهًا    لِشعبٍ أراد ... فأعلى الجَبينا!
جَمعْنا لحربِ الخلاص شتاتًا[١٥٧]    سَلكْنا به المنهجَ المستبينا
ولولا التحامُ الصُّفوفِ وقانا    لكنَّا سَمَاسرةً مجرمينا!
فليتَ فلسطينَ ... تقفو خطانا    وتطْوي — كما قد طوينا — السِّنينا!
وبالقدسِ تهتمُّ ... لا بالكراسي    تميل يسَارًا بها ويمينا ...!
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
تبارَكَ واديكَ صُومَام[١٥٨] إنا    حفظنا عهودك أيانَ ثُرنا

---

[١٥٦] إشارة إلى أن الثورة الجزائرية كانت السبب الرئيسي في مطالبة كثير من شعوبٍ ما يُسمَّى بالإمبراطورية الفرنسية باستقلالها، وفي حصولها عليه فعلًا. وقد صرَّح مسئولون فرنسيون في البرلمان الفرنسي بأنهم يفضِّلون منحَ جميع هذه البلدان استقلالها للتركيز على الجزائر وضمان الحفاظ عليها، وهي التي كانت تعتبر جوهرة مستعمراتهم ومحمياتهم.

[١٥٧] إشارة إلى جبهة التحرير الوطني التي ضمَّت جميع الحركات الوطنية بمختلف آرائها في طرق الكفاح في حركة واحدة مسلحة قادت الجهاد حتى استرجاع الاستقلال، ونصح للإخوان الفلسطينيين بتحقيق مثل هذا الانصهار.

[١٥٨] مؤتمر الصومام المنعقد يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٦م بوادي الصومام، وكان أول مؤتمر وطني عام يُعقد بعد اندلاع الثورة، وقد استمر ثمانية عشر يومًا، وقد شكَّل المؤتمر مرحلة هامة من مراحل الثورة، وكان

أصُومَامُ باسمك، صمَّم شعب | سياسَة ثورَته، فانطلقنا
وجلجل صَوتكَ، بين الجبال | يبَارك وحدتنا، فالتحمنا
وكانت شريعةُ حرب الخَلَاصِ | بوحي نظامِك لمَّا اندفعنا
خلقتَ كِيانًا لِثورةِ شعبٍ | أرادَ الحيَاة، ودعَّمتَ رُكنا
وصغتَ وثيقتنا في الجهادِ | دُروبًا معبَّدةً، فسلكنا
كأن لخمسٍ وخمسين[159] نجوى | لسِتٍّ وخمسينَ يوم اجتمعنا
وأصغى لنا المجمع الدوليُّ[160] | الأصمُّ، وأرهفَ للسمع أذنا
رأينا السِّياسةَ دربًا طويلًا | فلُذْنا بسَاحِ الوغى، فاختصرنا
وقرَّر صومامُ أهدَافنا | فسِرنا على هَديها، فانتصرنا

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

سَكِيكَدةَ الثائرينَ أعيدي | علينا فضَائحَ باغٍ حَقُودِ
أغسطس[161] عشرون لم يَنْسَهَا | ويذكُرُهَا ألفُ ألفٍ شَهيدِ
وخمسٌ وخمسُونَ في الذكرياتِ | جَلالٌ ... يُهَدهِدُ صَدرَ الوجَودِ
وعِطرٌ للمَذابح في سَاحِهَا | نَوافِجُ[162] تُلهِمُ سِفرَ الخلودِ

---

نقطة انطلاق وتحوُّل عظيم في تاريخها أسفر عن وضعِ أسسٍ ثابتةٍ لمستقبل الثورة على نظام عسكري وسياسي مدروس، ونتج عنه تكوينُ مجلس وطني للثورة، وتأليف لجنة التنسيق والتنفيذ، وأعطى المؤتمر لجيش التحرير دمًا جديدًا ونفسًا طويلًا واستراتيجية محكمة.

[159] كان تاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٥٦م امتدادًا لانتفاضة ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م التي حطَّمت كبرياء العدو وسفَّهت أحلامه.

[160] كانت أحداث ٥٥ و٥٦ سببًا لإدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة، ونالت نجاحًا كثيرًا في هيئة الأمم المتحدة، وأُدينت فرنسا على أعمالها الإجرامية في الجزائر.

[161] بلدة سكيكدة في الشرق الجزائري كانت مسرحًا لمجازرَ وحشيةٍ ضاريةٍ من طرف جيش الاستعمار الفرنسي، وذلك يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م أيام تظاهرت بلدان الجزائر تضامنًا مع المغرب الشقيق في ذكرى اختطاف الملك الراحل المنعم جلالة محمد الخامس.

[162] النوافج: مباخر المسك والعَمْبر.

وتَحكِي لهذا الورى قِصَّةً مضَرَّجةً عن جهَاد الأسُودِ
وتروي لهذا الزمانِ مَجازَ مُرْتزقين لئام عَبيدِ!
وقالوا: التمدُّنُ من طَبْعِنَا وتأْنفُ منهم طِباعُ القرود!
لئن حَصَد التَّانكُ أوْصَالَنَا حَصَدْنا تضامننا في الجهُود!
وإن وزَّع القِطْرُ[١٦٣] أشلَاءَنا دَفعنا بأقطارنا للصُّعود!
هو المغرب الأكبر الأطلسيُّ يَرجُّ بكل غبيٍّ بليد!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وفالمة تزهُو بحَمَّامهَا يهَدْهدُ مَعسُولَ أحلَامها
يُشيعُ البخارُ تباريحهَا ويشْكو مَواجعَ آلامِهَا
ويرْجُفُ بركانها سَاخطًا[١٦٤] فيمسخُ صُنَّاع آثامهَا[١٦٥]
ويمضي الزَّمانُ، ويأتي الزمَان فيضحك من ذقن أصنامهَا
فيالكِ أسطورةً لم نزل نسير على هدي إلهَامها
ويا لِخيَالٍ، أجلَّ الخيال وأحْيا نفوسًا بأوهامهَا
ويا تربةً أغرقت في الدِّمَاءِ هوَاتِكَ حُرْمَةِ أرحَامهَا
ويا بلدةً عصفتْ باللئامِ وحمْقِ فرنسَا وحكَّامها
ولفَّت شرارتُها آشِياري وكان عدوًّا لإسلامها

---

[١٦٣] القِطر — بكسر القاف — الرصاص، ومنه قوله تعالى: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

[١٦٤] حمام المسخوطين.

[١٦٥] تفسِّر أسطورةٌ متواترةٌ جيلًا عن جيل قصة نعت الحمَّام وإضافته للمسخوطين أن قِرانًا وقع في إحدى القبائل المجاورة للحمَّام زُفَّت فيه أختٌ لشقيقها، وأُقيم حفلُ الزفاف بالحمَّام المذكور في جمعٍ حاشدٍ يترأسه القاضي الذي حرَّر عقد النكاح وسط عدوله وأعوانه، فسخط الله عليهم ومسخهم أحجارًا على أشكال آدمية، وانطلاقًا من الإيمان بهذه الأسطورة جاء سخط سكان قالمة وضواحيها على كل باغٍ ومنتهك للحرمات، وجاءت انتفاضتهم العارمة ضد التحدي الاستعماري في أحداث ١٩٤٥م، وصمدوا في وجه المجازر الوحشية التي كان يقوم بها الجلَّادان آنتياري وليسراد كاربونيل اللذان شملهما القِصاص بعد ذلك على يد الفدائيين.

وفــار بــتــنُّــورهَــا كــاربُــتَــالُ      فــأصْــبــح كــاربــون حَــمَّــامِــهــا
شَــغَــلْــنــا الــورى، ومَــلَأْنــا الــدُّنــا
بــشِــعــرٍ نُــرتِّــلــه كــالــصَّــلاة
تــســابــيــحــهُ مــن حَــنــايــا الــجــزائــر
وبــونــةُ تــحــفــظ أمــجــادَ زيــري      ويــصــرخ فــيــهــا نــداءُ الــضــمــيــرِ
وتــنــفــض عَــنــهــا غــبَــارَ الــلــيــالــي      فــتبدي العُجابَ، بحربِ المصيرِ
ويــذكــر إصــرَارَهــا فــردنــانــدو[166]      فــيــنــدُبُ جــيــطــانَــه فــي الــقــبــورِ
وتــصْــخــب لــلــثَّــأر أمــواجــهــا      فــتــروي حــكــايــاتــهــا لــلــصــخــورِ
وتــذكــر تــاقَــســت[167] يــومَ انــطــلــقــنــا      أَغــســتــنــسَ[168] يُــزجــي ركــابَ الــدُّهُــورِ
فــتــهــوي شــواهــقُــهــا الــحــانــقــاتُ      صَــواعــقَ، تــحــصِــد هَــامَ الــمُــغــيــرِ
وتــقــفــو تِــبَــسَّــةُ آثــارهَــا      تــبــاركــهَــا هــبــوات الــعــصُــورِ
ويَــدفــعــهــا الــعَــرَبــيُّ الــتِّــبَــسِّــيُّ[169]      الــشــهــيــدُ، فــتــحــتــلُّ عــرشَ الــنُّــســورِ
ويُــجْــري الــعُــلــومَ بــأوصَــالــهــا      حــيَــاة، أصــالــتــهــا فــي الــجــذورِ[170]
عــلــى الــعَــرَبــيِّ الــشــهــيــدِ، صَــلاةٌ      مــضَــرَّجــةٌ بــدمَــاءٍ، ونُــورِ
شَــغَــلْــنــا الــورى، ومَــلَأْنــا الــدُّنــا
بــشِــعــرٍ نُــرتِّــلــه كــالــصَّــلاة
تــســابــيــحــهُ مــن حَــنــايــا الــجــزائــر

---

[166] فردناندو ملك إسبانيا الصليبي الذي جهَّز جيوشًا جرارة في القرن الخامس عشر المسيحي لاحتلال المغرب العربي واكتساح الإسلام في ربوعه، وقد وقع احتلال مدينة بونة (أو عنابة) ووهران، والمرسى الكبير، ومستغانم، وتنس، وبجاية، وجيجل، وعنابة، وتونس، وطرابلس، ابتداء من ١٥٠٩م، ودام في وهران قرنين كاملين، وربط الإسبان الحمير في جامع الزيتونة في تونس.

[167] تاقست: اسمٌ قديمٌ لمدينة سوق أهراس.

[168] أغستنس أو Sr. Angustin المولود بمدينة تاقست سوق أهراس، والذي تضلَّع في مختلف العلوم واللغات، وأصبح فيما بعدُ أسقفَ قرطاج، وهو من مفاخر العبقرية الجزائرية.

[169] الشهيد الشيخ العربي التبسِّي أحد أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مشهور بالثبات والصلابة في الحق، اختطفته الشرطة الفرنسية سنة ١٩٥٦م، ولم يظهر له أثر لحد الساعة — رحمه الله.

[170] الجذور: تورية تشير إلى لقبِ الشيخ العربي الذي هو العربي الجذري.

وسَاجِلْ بِسَكْرَةَ نجوى الأَصيل — وهمسَ الرمالِ بأُذنِ النخيلِ
تُنَافِحْكَ مِنْ طلعها النسمَاتُ الـ — ـعِذابُ، يوقِّعْن سجعَ الهديلِ
ويُبْهرْكَ منها انسكابُ النجُومِ — على وجَنَاتِ النَّخيلِ الجميلِ
وذَوبَ العَرَاجِنِ في صدرهَا — على لحنِ جَدْولها السَّلسَبِيلِ
كأنَّ عَسَالِجَها المثْقَلَات الـ — ـحواملَ، يَنْضَحْنَ بالزَّنْجبيلِ
وبَين النَّخيلِ وبَينَ الرمَالِ — عَزائمُ تهزأُ بالمسْتَحيلِ
يُواكبُ عقبةُ[171] في الخالدين — مسِيرتها لسواء السَّبيلِ
ويحدو الزعاطِشَةُ[172] الثائرون — جَحَافِلَها للمصير الجليلِ
وتُقسِمُ طَولَقَةٌ[173] بالطَّلاق — ثَلَاثًا، فتُلْهِبُ نارَ الخَليلِ
ويُذْكي المغيِّرُ[174] غيرتها — فَتَنْصَبُّ نَحو الصِّراع الطويلِ

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

ويا وادي سُوفَ العَرين الأمين — ومعْقلَ أبطالِنا الثائرين
ومأوى المناجيدِ من أرضِنَا — وأرضِ عَشِيرَتِنا الأقربين[175]
ورَبْض المحاميدِ أحرارِ غُومَا[176] — ومَن حطَّمُوا الظلم، والظالمين

[171] عقبة بن نافع الفهري دفين قرية «سيدي عقبة» قائد الزحف الأكبر في فتوحات أفريقيا.

[172] الزَّعاطشة مرَّ ذِكرهم في غير هذا المكان من الإلياذة بإسهاب.

[173] طولقة (عروس الزاب) مشهورة بوفرة نخيلها، وجودة ثمارها المسكية، وشهامة رجالها.

[174] «المغير» تقع في طريق «بسكرة تقرت» وهي في مستوى «طولقة» من حيث وفرة النخل وجودة الثمار، ومسقط رأس الشهيد قاسم رزيق.

[175] عشيرتنا الأقربون: أشقاؤنا في كلٍّ من تونس وليبيا؛ فقد كانت سوفَ ملجأ للثائرين تحتضنهم وتناصرهم ضد أعدائهم.

[176] الشيخ غومه بطل الصحراء عميد قبيلة المحاميد، القبيلة الليبية المشهورة بأمجادها وبطولاتها. التجأ إلى سوفَ حين وقع في كلابة الجيش التركي من الجهة الليبية، وجيش الباي من الجانب التونسي، فكانت سوفُ ملجأ أمينًا له، والتاريخ يذكر شجاعته ونُبْل سوفَ والأدب الشعبي يزخر بملاحمه المتداولة لحد الآن في الأفراح والأعراس.

وَدَرْبَ السِّلاح لأوراسِينا[١٧٧] وقَدْ ضَاقَتِ السُّبْلُ بالسالكين
أينُسَى ابنُ شهرَةَ[١٧٨] أحرارنَا تَلقَّف[١٧٨] رَايتَه باليمين؟!
أنَنْسَى ثَلَاثة أيام[١٧٩] نحسٍ وسَوْسَتالَ[١٧٩] ينْدِبُ في النائحين
وأخضرُ[١٨٠] يَحصِد حُمْرَ الحَواصِـ ـلِ فيها، ويقطَع منها الوتين
وضرغامُها الهَاشميُّ الشريفُ[١٨١] يُذيقُ بُوازَ العذابَ المهين
وكم كان سوفُ لضم الصُّفو فِ، وجْمع الشتاتِ الحريصَ الضمين
لِتَحْفَظْ زَنَاتَهُ أرحَام نيكْسِي ويرعَ الطَّوارِقُ عهدَ البنين![١٨٢]
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بِشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة

[١٧٧] لعبت سوفُ دورًا عظيمًا في نقل الأسلحة إلى ثوار أوراس، وتيسير طرق إرسالها من القطرين الشقيقين، تونس وليبيا، عبْر الصحراء.

[١٧٨] كانت سوفُ العضدَ المتينَ للقائد ابن شهرة عند انطلاقه من «الأغواط»، وقد سبق ذكره تفصيلًا في غير هذا المكان من الإلياذة.

[١٧٩] إشارة إلى معركة «الثلاثة أيام» الضارية المشهورة التي قام بها المجاهد محمد الأخضر، وأباد جيش العدو عن آخر حتى اضطُرَّ سوستال للقدوم بنفسه إلى سوفَ ليذرف الدموع على الأشلاء، وكان ذلك في شهر أغسطس ١٩٥٥م، وقد سجَّل الشعرُ الشعبيُّ في الجنوب معركة محمد الأخضر، وهي تُردَّد إلى الآن في ملاحمَ شعبيةٍ.

[١٨٠] إشارة إلى معركة «الثلاثة أيام» الضارية المشهورة التي قام بها المجاهد محمد الأخضر، وأباد جيش العدو عن آخر حتى اضطُرَّ سوستال للقدوم بنفسه إلى سوفَ ليذرف الدموع على الأشلاء، وكان ذلك في شهر أغسطس ١٩٥٥م، وقد سجَّل الشعر الشعبي في الجنوب معركة محمد الأخضر، وهي تُردَّد إلى الآن في ملاحم شعبية.

[١٨١] خلال الحرب العالمية الأولى، وبالضبط سنة ١٩١٧م، قام بمحاولة انتفاضيةٍ على الفرنسيين، المجاهدُ الخالدُ الذكرِ الشيخ الشريف الهاشمي؛ وذلك لمساندة الخلافة الإسلامية، وقد اقتدى به ابنه الشيخ عبد العزيز الهاشمي سنة ١٩٣٨م وقُبض عليه، وقضى ثلاث سنوات سجنًا خلال الحرب العظمى الأخيرة، ثم بقي مطاردًا إلى أن توفاه أجله في تونس سنة ١٩٦٤م، ودُفن بها مع الشهداء الأبرار.

[١٨٢] كانت سوفُ عاملًا قويًّا لتوحيد زنانة شمالًا والطوارق جنوبًا، وذلك أن تيكسي الملكة العرجاء أم قبائل (الجيتو) الطوارق الحاليين، مات زوجها فتزوجت رجلًا آخر من زنانة، وأنجبت قبائل زنانة، وكان مقرها في قرية «تيكسبت» في وادي سوف، وإلى هذه المصاهرة الوحدوية يشير البيت.

تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

تباركَ شعبٌ، تحدَّى العِنادا فصَامَ، وأضْربَ،[183] سبعًا شدادَا
وآنف أن يَستسيغَ الحيَاةَ تُجَرِّعُهُ ذلةً واضطِهَادا
وأقسمَ، أن لا يَعيشَ النهَارَ عميلًا يُوفِّرُ للبُومِ زادا
وأن يهجرَ النوم يلقَى المنايا ويبلو الليَالي الطوالَ جِلادا
عَلَى مَ يَكَدُّ لخَيْرِ الدخيل ومِن كدِّ أتْعَابِه مَا استفادا؟
يَصومُ، ويمضغ جَمر الغضا أمَا ألهبَ الجمرُ فيه الجهَادا؟
ويَضْمأُ، والماءُ ملءُ يَديهِ إذا استَفْحَلَ السُّمُ فيه، وسَادا
ومِن دَمِهِ، يَرتَوي، ويُرَوِّي سَنَابِلَهُ، ويُفدِّي البلادا
وجُنَّت فرنسَا لإضرابِ شعبٍ فَعَاثت بعُرضِ البلاد فسَادا
بَكتْ، فَضَحِكْنَا وقال الزَّمانُ تبارك شعبٌ تحدَّى العنادا!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وكم عَاشَ طُلَّابُنا حَربَنا وقاسَمَ تُجَّارنا خطبنا
وعمَّ النِّضالُ وفاضَ النوالُ فَشِدْنَا بهَذا، وذاك، البناَ
ومِن عَرَق الكادحينَ صَنعْنا مَصَائرنا، فبهَرنا الدُّنا
ومِن نَصَبِ الزَّارعين غرسْنا مَشَاتِلَنَا، فقطفْنا الجَنَى
ومَن تَكُ أكبَادُه لَبنَاتٍ تُطعْهُ المقاديرُ، طَوعَ المنى
ويَملأ حَنايَا الوجُود دويًّا ويَسْألْ ضمير البقاء ... مَن أنا؟!
ويَجْثُ الزَّمانُ على قدميهِ خُشوعًا، ويركعْ له مُذْعِنًا
هو الشعبُ ... آمنتُ بالشَّعبِ فردًا فَصِرتُ بخالقه مؤمنَا!
ولولَاك — يا شعب — تزجي الشراعَ لمَا بَلغَ الرَّكبُ شاطي الهنآ
ولولَاك — يا ربُّ — واكبتَ شعبًا إلى النَّصرِ مَا حُزتَ إيمانَنا!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا

[183] أضربت البلاد الجزائر عن بكرة أبيها سبعة أيام سنة ١٩٥٧م.

بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

وكم جَـحَـدُوا فـضْـلـنـا والـجـمـيـلا    فـكـانَ الـحـسابُ عـسـيـرًا طـويـلا
وكـم ألـحـقـوا بـالـمـهـاجـرِ ذُلًّا    فـذاقَ الـعـذابَ الألـيـمَ الـوبـيـلا
فَـيَـا عـامَ سـتـيـنَ قُـصَّ عـلـيـنـا    فَـضـائِـحَ جـيـشٍ يـذوبُ غـلـيـلا
ويـا زارعَ الـمـوتِ فـي أرضِـهـم    هـمُـو زرعـوا، فـأقـمـنـا الـدلـيـلا
سَلِ السِّينَ كم قذفوا من ضحايا؟    وكم صَنَعُوا المذهلَ المستحِيلا[184]
وسَلْ في المناجمِ كم مِن قتيلٍ    أهـالـوا عـلـيـه الـتُّـرابَ الـثَّـقـيـلا
وكـم فـي سُـجـونِ فـرنـسـا بـريء    مِـن الـدَّاء والـغْـدرِ عـاشَ عـلـيـلا
هـو الـحـقـدُ طـيَّـرَ صَـبرَ الـرَّصَـاصِ    فـألـهـبَ مـنـه الـقـصَـاصُ الـفـتـيـلا
وأغْـضَـبَ عـيـسـى، وراع الـصـلـيـبَ    فـنَـاشَـدَنَـا أن نـرُدَّ الـمـثـيـلا
صَـرخْـنـا، فـلـم يَـعـبـئـوا بـالـصُّـراخِ    فـلـم يـكُ غـيـرُ الـقـصَـاصِ سَـبـيـلا

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

وخـامَـرَ دوبِـري[185] صُداعُ السَّـكارى    وزلْـزَلَـه، عَـزمُـنـا، فـتـوارى
وحَـاول تـنـصـيـرَ أطـفـالـنـا    بـأرضِ فـرنـسـا، فَـبَـاءَ خـسَـارا
فـخـمـسٌ وعـشـرون ألـفًـا تَـحـدَّى[186]    بـإيـمـانـهـا الـواهـمـيـنَ الـحـيَـارى
وأَخْـلَـصَ إسـلامُ أكـبَـادنَـا    بـأرضِ فـرنـسَـا فـكـان الـجِـدَارا
وآمـنَ أشـبَـالُـنـا بـالـجـهَـادِ    فـعـافـوا الـخـنـوعَ، وخـاضـوا الـغِـمـارا

---

[184] إشارة إلى الجزائريين الذين تظاهروا في باريس رجالًا، ونساء، وأطفالًا يوم ١١ ديسمبر ١٩٦١م تضامنًا مع كفاح شعبهم، وألقت الشرطة الفرنسية بالكثير منهم في نهر السين وماتوا غرقًا.

[185] إشارة إلى عدة تصريحات وتدابير من السلطات الفرنسية بقصد إدماج أطفال جاليتنا في فرنسا بشرط التجنُّس، وتغيير الأسماء، فضلًا عن مساعي المبشرين لتمسيح الكثير منهم.

[186] تحدَّى أصله تتحدَّى فحُذفت إحدى التاءين.

وفـجَّـر أصـلابُـنـا فـي حِـمَـاهـا[١٨٧] بـراكـيـنَ تـنـصـبُّ حـقـدًا ونـارا
وجـاسـوا خـلالَ الـدِّيـار فـكـانـوا رُجـومًـا تُـحـيـلُ الـظـلامَ نـهـارا
سَـلـوا الـمُـنْـشـآتِ بـهـا والأنـابـيـ ـبَ[١٨٨] والـقـاطـرات بـهـا والـديـارا
وكـان الـفـرنـسـيـسُ صُـمًّـا وبُـكْـمًـا وعـمـيًـا، فـأصـغَـى لـنـا مَـن تَـمـارى
ومـا كـان عـيـسـى ظـلـومًـا جـهُـولًا وكـان مـحـمـد، يـرعـى الـنـصـارى

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

إذ الـشِّـعـرُ خـلَّـدَ أُسْـدَ الـرهَـان أَيَـنْـسـى مُـغَـامَـرَةَ الـحـيَـوان؟
أيـنـسَـى الـبـغـالَ؟ أيـنـسـى الـحـمـيرَ وهـلْ بـبـطـولاتـهـا يُـسـتـهـان؟
سَـلامٌ عـلـى الـبغـل، يـعـلـو الـجـبَـالَ[١٨٩] ثـقـيـلًا، فـيُـكْـبـرهُ الـثَّـقـلان!
وعـاشَ الـحِـمَـارُ يُـقِـلُّ الـسـلاحَ ويـغـشـى الـمـعـامـعَ ثَـبتَ الـجـنَـانْ
وبـارك فـأرًا[١٩٠] ... يـوزِّع نـارًا فـيـخـلَـعُ بـالـرعبِ قـلـبَ الـجـبَـان
ويـلـقـى الـشـهـادةَ شـهـمًـا كـريـمًـا وقَـد عـاف ذلَّ الـشـقـا والـهَـوان
وطـوبـى لـعَـنـزٍ[١٩١] يـضـلِّـل جُـنْـدًا ويـخْـدعُ أحـلاسَـهُ بـالأمَـان

[١٨٧] إشارة إلى الدور الفعَّال الذي قامت به جاليتُنا في فرنسا خاصة منذ ١٩٢٤م في إطار الحركة الوطنية، وبصفة أخص أثناء الكفاح التحريري المسلَّح ١٩٥٤–١٩٦٢م بما قدَّمته من مال ورجال، وما قامت به من دور فدائي بطولي بنقل الحرب إلى فرنسا في شكل تخريب مؤسسات استراتيجية، واغتيال خونة جزائريين ومحاولة إعدام بعض المغالين الفرنسيين مثل سوستيل ... إلخ.

[١٨٨] توضيح للإشارة السابقة.

[١٨٩] لولا البغال والحمير لما كانت الجبال معاقلَ حرة للمجاهدين، ولا كان في الإمكان تزويدُ الثوار بالذخيرة والميرة والسلاح.

[١٩٠] كان المجاهدون يُطلون الفئران بالبنزين ويشعلونه فتنطلق في المزارع ساحقةً ماحقةً فتُتْلف المحاصيلَ، وتشيع الرعبَ في أفئدة المستعمرين الرعاديد.

[١٩١] كان المجاهدون يعلِّقون مصابحَ كهربائيةً صغيرةً على جبهات العنز، فتتراكض فوق الطريق وتحت الطريق يحسبها جنودُ العدو تحرُّكًا للجيش، فيصوِّبون نحوها طلقاتهم فيطوقهم الجيش الجزائري من الاتجاه المعاكس.

وللكلبِ[١٩٢] يهجر طبْع النبَاحِ ويهوى النَّميمَة بالطَّيَران
فلولاكَ يا حيوانَ الفدا لما أحرَزَ الشعبُ كسبَ الرهَان
بذكراكَ تعتزُّ إليادتي فأزكى التحيات: يا حَيوان!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

أتَى أمرُنا صَارخًا فانطلقنا ولُذنا بوحَدتِنا فانعتقنا
وفاوضنا القَومُ في أمرِنا وأمْرِ سيادتنا ... فرفضنا
وقالوا: سَنجري عليها اقتراعًا بلا، ونعم — خدعةً — فاعترضنا[١٩٣]
فرنسَا ... تناسيتِ مَا ليسَ يُنسَى أمَا في نوفمبَرَ ... كنَّا اقترعْنا
وأجرى عَلينا الرصَاصُ انتخابًا وخضَّب أوراقنا ... فانتخبنا؟
وقلنا ... وقالت لنا الكائناتُ خذوا جِذْرَكم واثبُتوا ... فثبتنا
فلم نكُ نرضى بنصف الحُلولِ ولا بالدومنيون نحن انخدعنا[١٩٤]
وديغول ألقى بيَادقه فطاولها رُخُّنا فانتصَرنا[١٩٥]
وخاف الحَواجزَ تحمي الغلَاةَ وتبكي فرنسا لها ... فضحكنا[١٩٦]
وفكَّر ديغول في حمقهم وفي صدقنا ثم قال: «فهمنا»![١٩٧]

---

[١٩٢] لقد توصَّل المجاهدون بعد ترويضٍ طويلٍ لتعويدِ الكلابِ عدمَ النباح، ثم إن الحاسة المرهفة في الكلاب تجعلها تشعر بخطر الطائرات المطارِدة والنمامة قبل وصولها ببرهة مديدة، فيكثر هيجانها وارتباكها، فيحتاط لها المجاهدون فإذا وصلت انبطحت الكلاب — وليس أوفى من الكلب. (اقرأ كتاب فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب.)

[١٩٣] غي موله وحكاية الاستفتاء السخيف.

[١٩٤] خدعة الاستغلال الداخلي والتبعية لفرنسا.

[١٩٥] البيادق، والرُّخ من قِطَع الشطرنج.

[١٩٦] الحواجز التي أقامها غلاة المعمرين بشوارع العاصمة سنة ١٩٥٨م مع عصابة لاقابارد، وفي هذا أقول من قصيدٍ منشور في اللهب المقدَّس:

وترى الغلاة على السدودِ جواثمًا تحمي النساء على السدود رجالها!

[١٩٧] مفاوضات إيفان التي انبثق عنها الاستقلال، و«فهمنا» إشارة لقول ديغول Je vous ai compris.

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

فرضْنا إرادتنا الفارعه — ولم تَخبُ، نيرَانُنا الدالعَه
وصُغنا مصَائرنا بالرصَاصِ — وبَالرَّأي، والحجَّة القاطعَه
وتمَّت بهَا كلماتُ الإله — التي وقعت باسمهَا الواقِعَه
ولاحَ الخلاص، بحُلم الليَالي — تُرَفرف أعلامُه اللامعَه
ودَوَّى نشيدُ الجَزائر يغزو — الدُّنا، قسَمًا بالدِّمَآ الناصعَه[198]
وجَلجلَ صَوتُ نشيد اللواء — فتعنو الرءوسُ له خاشعه[199]
وجيشٌ يُردِّد: هَذي دمَانا الـ — غَوالي دَوافِقُهَا دَافعَه[200]
ويَصدَح طُلَّابُنا بالنشيد — وعُمَّالُنا، واليدُ الزارعَه[201]
وبنتُ الجزائرِ تتلو نشيدَ الـ — عَذارى، فتصغى الدُّنا راكعه[202]
وقمنا نُشيد صَرح البلادِ — ونبني سيادتنا الطالعه

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

أنَاجيكَ يا مصطفى[203] في سَمَاك — ويومَ عَرجْتَ تَشُق السِّمَاكْ
بُعِثتَ سفيرًا لبيكين لكن — ذهبْتَ سَفيرًا لأُفق عُلاك

---

[198] نشيدة الثورة: قسَمًا بالنازلات، لمفدي زكريا منشور في اللهب المقدس.

[199] نشيد العلم: عَلم الجزائر، عشتَ يا علم، لمفدي زكريا منشور في اللهب المقدس.

[200] نشيد جيش التحرير: هذي دمانا الغالية دفَّاقة، بلغة الشعب لمفدي زكريا، منشور باللهب المقدس.

[201] نشيد طلاب الجزائر: نحن طلاب الجزائر، نحن للمجد بناة، لمفدي زكريا منشور باللهب المقدس، ونشيد العمال الجزائريين لمفدي زكريا منشور باللهب المقدس: نحن جند الاتحاد والعمل.

[202] نشيدٌ لبنت الجزائر: أنا بنت الجزائر، لمفدي زكريا منشور باللهب المقدس. وكل هذه الأناشيد مع نشيد بربروس ونشيد الشهداء وغيرها نُظِمَت في بربروس أيام الثورة الكبرى.

[203] الشهيد فخر المناضلين مصطفى الفروخي الذي لقي حتفه في طائرةٍ تحطَّمت وهي تقلع من القاهرة إلى بيكين؛ حيث عُيِّن بها سفيرًا للجزائر، وقد نُقل جثمانه الشريف إلى تونس، ودُفن بمقبرة الجلاز في

وفضَّلتَ — لما سَئِمْتَ الدُّنَا وآدَمَهَا — أن تكون الملاكْ
وأضْنَاكَ في الأرضِ مَكرٌ وغدرٌ وقبرُ النُّبوغ، ونصبُ الشِّباك
فطلَّقْتَ أصنَامَها دون رجْعَى وسِرتَ إلى حيثُ تلقى رِضاك
وهالك عُقْمُ الشباب المسجَّى فخلَّفْتَ تحنيطه لسواك
وعِفْتَ منَ البعض، حِمى الكَرَاسي وما بلغوا في الوفآ مستواك
فحطَّمْتَ أخشَابَها، طائرًا مَع الريح، تُغْرِقُهَا في دِماك
وكنتَ لروحِ النضالِ لهيبًا شعاليلُه، من شظايا هواك
وكنْتَ لصدقِ الضَّميرِ مِثالًا فيَا ليتهم يتَّبعون خُطاك

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وقالت: جَزائرنا الغاليه هُو الصدق، حَقَّق أماليه
ومِن دَم شعبي، وأكباده إلى النَّصر، قدَّمت قربانيه
وجنَّدت مِن خالد بن الوليد وسَعد بن وقَّاص أبطاليه
وجدَّدت حطين في مَوطني وخلَّدت أمجادَ أنطاكيه
وجلَّ الفدا بالملايين شرَّ فت، الخلد، في رفرفِ العاليه[٢٠٤]
وفي كل شبرٍ لنا لوحَة مشاهدُها المُهَج القانيه
تُلقِّن وجدة أدوارهَا فتحفظ بنزرت والساقيه
فيا مغربًا مازجته الدمَآ وأجمع، في الصرصر العاتيه
وزكَّاه أطلسُنا في القرون فَرُحْنا ندين بوحدانيه
دَعوا المغرب الوحدوي يقرِّر ويفرض مَصَائرنا الباقيه!

---

حفلٍ خاشع حضره أعضاء الحكومتين، الجزائرية والتونسية، والسلك الديبلوماسي، وأمواج الشعب، وقد أبَّنته بقصيدٍ نُشر بديوان اللهب المقدَّس طالعه:

أسفيرًا نحو أملاك السماء أم لبيكين بُعثتم مصطفى؟

[٢٠٤] العالية: مقبرة الشهداء في ضواحي عاصمة الجزائر.

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

سَلَامٌ على المغربِ الأكبَرِ  على طبْعهِ النَّاصع الأطهَرِ
أحيِّي الألى آزروا حَربَنَا  إلى النصر، في ريحها الصرصَرِ
وما بخلوا بالدَّم المغربي  على دَمنا الفائر الأحمَرِ
وكانوا مَلَاذًا لأحرَارنا  وعونًا، على الهدفِ الأكبَرِ
أليس امتزاجُ دمَانا الغوالي  شهيدًا على وحدة العنصر؟
أليست جراحَاتنا الداميات  وآمالنُا، فَلكَ المحورِ؟
وقالوا: حُدود ... فدُسْنا الحدُودَ  ورحْنا بأصنامها نزدري ...
مَتى كان بين الأشقاء سَدٌّ  يُقام على الزور والمنكر؟[٢٠٥]
وشائجنا، رَحِمٌ، وذِمامُ  تخلِّدها حرمَة الأعصُرِ
لِتَقْفُ السياسة خطو الشُّعُوبِ  لوحدة مغربنا الأكبَرِ!

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وأفلتَ بَعض زمامَ التأني!  وحمى الكراسي ... كإعصَار جن
ودنيا المطامعِ، تُبدي الخفايا  وتدفعُ عشَّاقها للتجني
فهبَّ رجالٌ لضمد الجرَاحِ  وإن قلب البعض ظهر المِجَن
وتطوي الحمَاقات، طي الكتابِ  وعن كُنْه أسرارها ... لا تسلني!
وخل غوامِضهَا للزَّمَانِ  فإنَّ الزَّمَان لأفصَحُ مني!
وطالعنا بالبشائر يونيو  فأنعش، كالعارض المرجحن
فقُمنا نُشيد اقتصاد البلادِ  ونُعْلي المصَانعَ فيها ونبني

[٢٠٥] إشارة إلى المعاهدتين الموقَّعتين بين الجزائر وتونس، وبين الجزائر والمغرب بخصوص تصفية مشاكل الحدود، وفتح عهد جديد من التعاون الخصب بين الأشقاء كمرحلة نحو توحيد بلدان المغرب الكبير، وكخطوة واسعة نحو الوحدة الإسلامية الشاملة.

ورُحْنا نوفِّر للكادحين الرَّ غِيفَ الشريفَ، بعلم وفن
ويزرعُ فلاحُنا أرضَه ... بذوب الشرايين لا بالتَّمني!
ونصنعُ مِن صُلب واقعنا مَذاهبنا ... رافضين التبني!
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
وفي الأرضِ للزَّارعينَ خَبَايَا مُضَمَّخةٌ بدمَاء الضحَايا
وفي عُمقها تكمنُ البَركاتُ إذا باركَ السعيَ صدقُ النوايا
وثورتُنا في سَبيل البقاءِ لها في صَميم التُّراب بَقَايَا
وأبطالنا في صراع الأراضي كأبطالنا في صراع المنايَا
وتأبى عقيدتُنا الإحتكارَ وتأبى خُطانَا ارتكابَ الخطايا
ويعْضُد ثورتَنا الإقتنَاعُ وإيمانُنَا بوضوح الثَّنَايَا
اتخذنا العدالة نهجًا صريحًا وإنصافَنَا في علاجِ القضايا
ورأيَ الجماعة فيما نَرَاهُ فجنَّبنا الرشد كل البَلايا
وقمنا نوزِّع مَا أورثَ الله للصَّالحين، زوايَا، زوايَا
ورُحْنا نُجَمِّع مَا طيَّرتْهُ يَدُ الغاصبين شظايا شظايا[٢٠٦]
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
شَربت العقيدَة، حتى الثَّماله فأسْلمت وجهي لربِّ الجلاله
ولولا الوفَاءُ لإسلَامنا لما قرَّر الشعبُ يومًا مناله
ولولا استقامةُ أخلاقنا لما أخلص الشعبُ يومًا نضاله
ولولا تحالفُ شعبٍ، وربٍّ لما حقَّق الرب يومًا سؤاله[٢٠٧]

---

[٢٠٦] إشارة إلى استعادة الأراضي المغصوبة، والتي اكتسبها الكثير بفضل خياناتهم في العهد الماضي لتوزيعها من جديد في إطار الثورة الزراعية.

[٢٠٧] حرب الأصالة، ومعركة المستوى، وحرب الضمير، تفسيراتٌ للثورة الثقافية، وربما كانت هذه التعابير أوضح وأعمق وأدل على مفهوم الثقافة لما فيها من شمول هادف.

هُو الدِّين يغمرُ أرواحنا بنورِ اليقينِ، ويُرسي عداله
إذا الشعبُ أخلفَ عَهد الإلهِ[208] وخان العقيدةَ، فارقُب زواله
إذا مَا انتصرنا بحربِ الخلاصِ فثورتنا اليومَ حرب أصاله[208]
نَهَدْنا لمعركةِ المستوى نربِّي النفوسَ ونغزو الجهَاله
ويصنع إيمَانُنا أمَّةً قوامًا ... فترجف مِنها الضلاله
وإن ينصر الشعبُ حَربَ الضميرِ أقمْنا بوحي الضمير احتفاله

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

طَبائعنا، صَالحاتٌ جليله تَعافُ انحلالَ النفوس الذليله
وتأبَى رُجولتنا الابتذالَ وأحلاسهُ، والشعورَ الطويله
تخنَّثَ هَذا الزمَانُ ودبَّت خنافيسُ هيبي، يشيع الرذيله!
ونافسَ آدمُ حوَّاءَه دلالًا، وغنجًا، وذبحَ فضيله!
وجرَّت ذيولُ الطواويس هذي السَّـ ـراويل، وهْي القصار الطويله
ولولا النهودُ، لما كنت تفرقُ، بين جميلٍ وجميله![209] ...
وشاع الشذوذ، وذاع الحشيشُ وأصبحَ للموبقاتِ وسيله
وتَقرَفُ آنافنا القاذورات فلم تجد في صَرفها أي حيله
وأرض الجزائر أرض الفحُولِ فأين الشهامة؟ أين الرجوله؟
ومن لم يَصُن حُرمَات البلادِ ويذر النفايات ... قد خان جيله!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

تسامت مَصادرُ إشعاعنا تدعِّم خالصَ إيمَاننا

[208] الضمير في سؤاله يعود على الشعب؛ أي سؤال الشعب يحققه الرب.

[209] هل الشرح هنا ضروري؟ هذا وصف لكارثة هي في تفاقم مطرد، وعامة لأغلب البلدان الإسلامية، وقد يظن البعض أن في هذا الوصف مبالغة، ولكننا نقول إنه دون الواقع الصارخ بكثير!

مسَاجدُ للهدْي في كل فجٍّ تنير السَّبيلَ لأجيَالنا
بسرتَا ابن باديس لاحَ سَناهَا ووهرانُ تسمو بإلهَامنا
وجامعُ كتشاوة المستعاد أما انفك رمزًا لأجلالنا؟
يناجيه في النيل أزهرنا فيَستنجدون بأسلافنا!
دبورمون هَل دام حقد الصَّليب؟[٢١٠] أنال قريقوارُ مِن بأسنا؟[٢١١]
وهَل فتَّ فيليبُ[٢١٢] في عزمنا؟ وحَطَّ القساوسُ مِن شأننا؟
وهَل نابليونُ ومَن وسمته يَداه، استهانَ بإصرارنا؟
وهلْ لافيجْري[٢١٣] وطولُ السِّنينَ اسـ ـتطاعا الْمروقَ بأطفالنا؟
ومَهْما يقيمون فيه احتفالًا فقد عاد يهفو لأكبادنا[٢١٤]

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

تماوجَ في فاس رَجعُ الصَّدى مِن القرويين يغزو المدى
يُساجل زيتونة للسَّلام مبَاركة فتلبِّي النِّدا
هُو المغربُ الأكبرُ المستمد رسَالاته من رَسول الهدى

---

[٢١٠] تقرَّر تحويلُ جامع كتشاوه إلى كنيسة في الخامس من يوليو سنة ١٨٣٠م؛ أي يوم الاحتلال نفسه؛ ففي اللحظة التي كان فيها الكونت دوبورمون يضع العَلَم الفرنسي على مباني العاصمة، وضع بنفسه صليبًا كبيرًا على رأس جامع كتشاوة كأعلى مبنًى في العاصمة.

[٢١١] البابا قريقوار الذي بارك هذا التحويل بصفة رسمية.

[٢١٢] الملك لويس فيليب الذي عيَّن القساوسة وأهدى الكنيسة كلَّ ما تحتاج إليه، وأصدر مرسومًا بذلك.

[٢١٣] نابليون الثالث رئيس فرنسا الذي زارها مرتين وأصدر بمناسبة توسيعها ميدالية استثنائية تشجيعًا منه على توسيعها، وعيَّن بنفسه الكردينال لافيجري كأسقفها الأول، وهو من أشهر أساقفتها. وهو المشهور بتنظيم حملات التبشير، وبقي فيها ١٥ سنة، وقد كان استغلَّ مجاعة سنة ١٨٦٦م واستعان بها على تنصير أطفال المسلمين اليتامى في الجزائر، ولكن مساعيه ذهبت سدًى؛ حيث إن أغلبهم رجعوا إلى الإسلام بعد أن بلغوا الرشد كما ذكر ذلك غوستاف لوبون في كتابه: حضارة العرب.

[٢١٤] وقع فيه احتفال سنة ١٩٣٠م بمرور قرن على استعمار الجزائر، وفي سنة ١٩٦٢م أُعيد إلى أصله، مسجدًا جامعًا.

ووحدةُ مغربنا اليوم خطو ... إلى وحدَة المسلمين غدا[٢١٥]
بتوحيد بعضٍ، نوحِّد كُلًّا ... وهَل يُنكر الخبَرُ المبتدا؟
فربَّما كان مَغربُنا ... مثالًا قويمًا، به يُقتدى!
وإن سَلك العرب في أمرهم ... سَواءَ السَّبيل، مَدَدنا اليَدا
وقمنا بأرواحنا نفتديهم ... ونحن الألى أخلصوا للفدا
ونحن الألى غسلوا العارَ بالنَّا ... ر، يسترهبون الردى بالردى!
ويستبدلون بالشعارات الفعـ ... ـلَ، فاستوجبوا العزَّ والسؤدَدَا[٢١٦]

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بِشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

ذكرنا بسرتا نفوسًا أبيَّه ... ذكرنا بها الأعْصرَ الذَّهبيه
مَعاهدَ، تزخرُ عِلمًا وفضلًا ... وتلهم روادَها العبقريه
يَصوغُ ابنُ فكُّونِ[٢١٧] فيها الشَّوادي ... بوحي خميلاتها السُّندسيَّه
وتزهو قسنطينة بابنهَا ... محمَّدٍ[٢١٨] مَن شرَّفَ العربيَّه
قوافيه تسري بأنفاسِ سرتا ... فتخْجلُ منها الورودُ النَّديَّه
وخلَّد سرتا البجاوي[٢١٩] الضليعُ ... وواصلَ حمدانُ[٢٢٠] صُنعَ البقيَّه
كأنَّ الحطيئةَ عاشَ مَدينًا ... لعاشور[٢٢١] في هجوه للبريَّه

[٢١٥] إشارة إلى ما نادت به موريتانيا، والمغرب، والجزائر، وتونس، من أن توثيق علاقاتها اليوم هي لبنات في بناء المغرب الكبير الذي سيكون هو نفسه خطوة هامة نحو تحقيق الوحدة الشاملة.

[٢١٦] خلافًا للخطأ الشائع تدخل الباء على الشيء المتروك، فالشرُّ مثلًا في الجملة الآتية: «محمد استبدل بالشر خيرًا» هو المتروك.

[٢١٧] ابن الفكون الشاعر الجزائري المبدع الذي أنجبته مدينة قسنطينة.

[٢١٨] محمد القسنطيني الشاعر المشهور.

[٢١٩] الشيخ عبد القادر البجاوي العلامة القسنطيني الذي تخرَّجت عنه أجيال.

[٢٢٠] الشيخ حمدان بن الونيسي العالم القسنطيني الضليع، وهو أستاذ الإمام ابن باديس.

[٢٢١] الشيخ عاشور حطيئةُ زمانهِ في الهجاء، وقد هجا جُلَّ علماء زمانه وشهَّر بانحرافاتهم.

وقفَ بالربوعِ يفاجئكَ نادٍ[٢٢٢] لصَالحَ باي الشهيدِ الضَّحيَّه
تظافرَ فيه دعاةُ الصَّلاح الـ ـهُداةُ إلى القيم السَّلفيَّه
وجَاءَ ابنُ باديسَ، يغزو الظَّلام ويُعلي الرءوسَ، ويُذْكي الحميَّه

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

أصَالةُ هذي البلادِ الكريمه تُجِلُّ كِفَاح النفوسِ العظيمهْ
تحيِّي أبا حمزة[٢٢٣] في بنيها وأفكاره النَّيِّرات العليمهْ
وتُكبرُ عَالِمَها الأخضري[٢٢٤] وآراءَه الناصعَاتِ السليمهْ
وعَالم بونَةَ مروان[٢٢٥] مهْما تصدَّى لفكِّ الرموز القديمهْ
عباقر أرضِ الجَزائرِ كوْنٌ تموجُ بِهِ المعجزاتُ الجَسيمهْ
وفي الشَّرق، يبهرُنا عَبدُهُ[٢٢٦] فيقفو رشيدُ[٢٢٧] خُطاه الحَكيمهْ

---

[٢٢٢] نادي صالح باي بقسنطينة أسَّسه في العشر الأوائل من القرن جماعةٌ من العلماء دعاة الإصلاح، وفيه يقول أحد الشعراء آنذاك: من قصيد طويل:

قف بالربوع على أطلالها ناد واذكر محاسن مشروع لنا هادي
واقرأ السلام على رَبْعٍ حوى شرفًا فازت وتاهت بناديها وبالوادي
عهد التقدم والعرفان حسْبُك أن تُفدى بمهجتنا يا نهلة الصادي
يا نادي العلم، إن القوم ما برحوا في غمرة الجهل والتضليل يا نادي
إن الجزائر ما زالت مكبَّلة بالغي، ترسفُ في أغلال أنكاد

إلى آخره.

[٢٢٣] أبو حمزة الجزائري عالِمُ الرياضيات والمثلثات من علماء القرن الثالث عشر هجري، راجع ترجمته في كتاب «الأعلام» للشيخ خير الدين الزركلي، وكُتب فدوى طوقان، وكتبه استُعملت في أوروبا الحديثة.

[٢٢٤] الأخضري عالمٌ جزائريٌّ في الفلك والرياضيات، وكانت كتبه تدرَّس في جامعة بوردو في فرنسا.

[٢٢٥] أبو مروان عالم بونة (عنابة) اختصاصي في الرياضيات والنجوم.

[٢٢٦] الشيخ محمد عبده من رواد النهضة الإسلامية الجديدة.

[٢٢٧] رشيد رضا تلميذه وناشر تعاليمه، وهو صاحب تفسير المنار.

وأفغانُ تروي جهادَ جمالٍ[٢٢٨] فتُلهبُ في الثائرينَ العزيمهْ
وتُوري السموريُّ[٢٢٩] في غِينِيَا وشاملُ[٢٣٠] والروسُ تلقَى الهزيمهْ
ومختارُ[٢٣١] تلقى به الطائراتُ وفتْكُ سليمانَ[٢٣٢] يمحو الجريمهْ
وصوتُ شكيب[٢٣٣] يهزُّ الدُّنا فترجفُ منه النفوسُ السقيمه

شَغَلْنا الورى، ومَلأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

طُفَيِّشُ سُقْيَاك ... قُطبَ[٢٣٤] الأيمَّه ومَن عَاشَ بالفكرِ يَصْنَعُ أمَّهْ
ومَن شقَّ بالعلمِ دَرْبَ الحيَاةِ وصَانَ لِنَيْلِ الرِّسالاتِ حُرمَهْ
ومَن قطعَ العمرَ يغزو الكتابَ ويفري الظَّلامَ، ويُلهبُ هِمَّهْ
ودانَ له الحرفُ بالخالدَاتِ فأخلصَ للحرفِ عهدًا وذِمَّهْ
وأنصفَ مَن خَالفُوه اجتهادًا وصَانَ عَن الجَدَلياتِ عِلمَهْ
ومهْما توزع في الرأي فكرٌ فهيهات يَصدَعُ شملًا ولُحمَهْ
وكم قامَ يعصفُ بالظالمين وينْصَبُّ فوقَ المغيرينَ نِقْمَهْ

---

[٢٢٨] جمال الدين الأفغاني من رواد الانطلاقة التحررية في الإسلام.

[٢٢٩] توري السموري من المجاهدين الأبطال، ومن أقطاب الفكر الإسلامي في غينيا.

[٢٣٠] الشيخ شامل الدغستاني حارب الروس أربعين سنة، راجع تعليقات الأمير شكيب أرسلان، في حاضر العالم الإسلامي، وراجع كتاب «تحفة الزائر» عن الأمير عبد القادر الذي كان يراسله.

[٢٣١] المجاهد الشهيد عمر المختار أُعدم قذفًا من طائرة في سماء ليبيا.

[٢٣٢] المجاهد الأول سليمان الباروني الذي شنَّ أوَّل حربٍ على جيش الاحتلال الإيطالي في ليبيا.

[٢٣٣] الأمير شكيب أرسلان أعرفُ مِن أن يُعرَّف.

[٢٣٤] قطب الأئمة لقبٌ شائعٌ للشيخ طفيش محمد بن يوسف العالم الجزائري الإمام من مواليد قرية بني يزقن بواحات وادي ميزاب، وقد بلغت مؤلفاته زهاء ثلاثمائة كتاب، منها ما طُبع وأغلبها لا يزال مخطوطًا، وقد ألَّف في شتى العلوم من شريعةوفقه وتاريخ وجغرافيا وطبيعة وفلك، ومواقفه المشرِّفة في الثورة على احتلال فرنسا لوادي مزاب معروفةٌ، كما أن صلاته برواد النهضة في الشرق متواترة، أمثال الشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم، وهو عالِم متفتِّح على القضايا العربية والإسلامية، وأحد روادها الخالدين.

فلم تَثْنِهِ ظلماتُ السجونِ ولا الدسُّ والكيدُ أوهَنَ عَزمَهْ
ويَدعو لكل احتلالٍ ثُبُورًا ويضرعُ في النكْبَةِ المُدْلَهِمَّهْ
سَلوا قادةَ الشرقِ عن صدْقه ونُبْلِ مشاعِره في المُلِمَّهْ
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
أمانًا، مِن الخطرِ الداهم ومِن معْولٍ قاصفٍ هَادِمِ
غزا المذهبيون عقلَ الشبابِ بمستوردٍ آفنٍ آثم
وزاغوا بهم، دونَ إسلامهم إلى مذهبٍ ليسَ بالسَّالم!
ودَسُّوا شيوعيةً كالوبَاء كما يُصرفُ السُّمُّ للطاعم
وقالوا: التقدمُ شرعُ الحَياة! وكم ركضَ الحُلم بالنائم؟!
وقالوا: الرجوعُ إلى الدِّين رجعي وإن الحيَاة مَع القائم
فضلَّ الشبابُ البريء انخداعًا برقطاء في جلْدهَا الناعم
ولجَّ مَع الأرذلين انحرَافًا عنِ المبدأ الخالد الدائم
وبثَّ أساتذةٌ في الشبَابِ رَواسبَ مستعمرٍ غاشم
وقيل دكاترة عالمون فويلٌ لمستهترٍ عَالم![235]
شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر
تفسَّخَ هَذا الشبابُ ومَاعا[236] وخرَّب أخلاقَه وتَداعى

---

[235] إشارة إلى ما يقوم به بعض الأساتذة المتعاونين من محاولات إغراء الشباب والتأثير فيه وتضليله بأيديولوجيات مستوردة «أقلُّ ما يُقال فيها أنها لم تفد حتى أهلها»؛ حيث لم تأتِ لهم بالجنة الأرضية المنتظرة؛ بل بالعكس!

وهم يقومون بذلك بالحفلات في بيوتهم، حفلات الخمر والرقص ... إلخ، والتعقيد للشباب، وهذا سمعنا عن وقوعه في بلدانٍ إسلاميةٍ أخرى، خاصة منها بلدان المغرب الكبير.

[236] هنا أيضًا قد يظن البعض أن في هذا مبالغة، والحق أنه دون الحقيقة؛ أي أن الواقع أفظعُ مما يصوِّره الأستاذ مفدي، وحتى إذا كان الأمر لم يصل هذه الدرجة، أو بالأصح الدركة، فالحكمة في معالجة المرض

فويل الجَزائر والمسلمين  إذا دنَّس النشءُ هَذي الطباعا
وكيف يسُوس البلادَ غبيٌّ  بليدٌ أضاع الضميرَ فضاعا!
ومَن يَطمئن لأقدارِ شعبٍ  إذا استخلف الشعبُ فيها الضباعا؟
وكيف يقُومُ بُنيَانه  وتقويم أخلاقه، مَا استطاعا؟
وكيف يَصونُ الأصالةَ نشءٌ  وقد سَاومُوه عَليها فبَاعا؟
وكيف يُنير الطريقَ شبابٌ  وقد طَمسَ الرجس فيه الشعاعا؟
وكيف يداوي المريضُ صَحيحًا  وفي قلبهِ مَرضُ السُّل شاعا؟
وكيفَ يُصَارعُ مَوجَ الحيَاة  وما اسطاعَ في أصغريه الصِّراعا؟
هُو الخطرُ الجارفُ المستطير  فإن تُهملوه ... الوداع ... الوداعا!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

ومستَهترُون، أضاعوا الثنايا  وشاعَ تنكُّرهم للسَّجَايا
وقالوا: التقدُّمُ خلْعُ العِذارِ  وهتْكُ العفافِ، ونشْرُ الخطايا
وجَدْلُ الشُّعورِ، ولبسُ الحُلي  وحَمْلُ القلائدِ، مثل الصَّبايا
ويفتخرون بشُربِ الخمورِ  وفي الكأسِ ترسُب كلُّ البلايا
فهُم يَرقصُون كطيرٍ ذبيح  ولا يحفِلون بركْبِ المنايا
وقالوا: التقدُّمُ، شِعرٌ لقيط  تطير الأصالةُ فيه شظايا
تفاعيله كضميرِ اليهُودِ[٢٣٧]  يَصوغ مبَانيه خبثُ النوايا
وقد أصبح الشِّعر، كالجيل، خنثى  تُذيبُ الميوعةُ فيه الخلايا

---

قبل استفحاله. وبعض الألمان هم الذين كانوا يقولون عند بداية النازية Wehret den Anfaengen أي «حذار من البداية»، وكان آخرون يستخِفُّون بخطر النازية، ويرون في هذا الشعار مبالغةً حتى صدقت تنبؤات المحذِّرين، ووقع ما وقع.

[٢٣٧] تعبيرٌ للشاعر صالح جودت في قصيد طويل يقول في جملة ما يقول عن هذا النوع من الشعر:

تفاعليه كضمير اليهودِ  يُباع ويُشرى ويُستأجر

وصَـهْـيَـنَ صـهـيُـونُ أخـلاقَـنـا[٢٣٨] فَـكَـيَّـفَـنَـا أن نـكـون رَعـايـا ...
وهَـل يُـحـزنُ الـعِـتـقُ مـسـتـعـمِـرًا وأخـلاقُـنـا فـي يـديـه سَـبـايـا؟

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

بُـنـاةَ الـجَـزائـرِ صُـونـوا الـشـبـابـا ولا تـأمـنـوا فـي الـشـبـابِ الـذئـابـا
ولَا تـهـمـلـوا أمـرَ طـلابـنـا فـقـد أصـبـح الـعـقـلُ فـيـهـم يَـبـابـا
فـكـم شـوَّه الـمـسـخُ فـيـهـم عـقـولًا وكـم أمـعـنَ الـمـسـخُ فـيـهـم خـرابـا
وحـرَّف مَـن زاغ إسـلامُـهـم وأفْـقـدَهـم وعـيَـهـم والـصَّـوابـا
وأصـبـحَ تـفـكـيـرُهـم قُـرمـزيًّـا[٢٣٩] دخـيـلًا، وإيـمـانـهـم مـسـتـرابـا
وتـفـشـو حـمـاقـات كـوهـيـن بـانـدت فـتُـحـدِث فـي الأغـبـيـاء اضـطـرابـا[٢٤٠]
وتَـنـعِـق أبـواقُ ... مـاركـسَ فـيـهـم فـيـتـخـذون الـدلـيـلَ ... الـغـرابـا[٢٤١]
فـويـلٌ لـطـلابٍ مـن شـيـوخٍ تـوافـه، لا يـعـلـمـون الـكـتـابـا[٢٤٢]
ومـرْتـزقِـيـن بـأفـكـارِهـم صَـنـائـعُ ... لا يـقـرءون الـحـسَـابـا!
ولا زال فـيـنـا ... لـمـسـتـعـمـريـنـا عـيـونٌ ... وإن أسـلـمـونـا الـتُّـرابـا!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

---

[٢٣٨] صَهْيَنَ انشقاق جديد من كلمة صهيونية على غرار عَقْلَنَ من العقلانية.

[٢٣٩] القرمزي، اللون الأحمر الداكن؛ أي الشيوعي.

[٢٤٠] كوهين باندت الذي جاء فرنسا وأحدث اضطرابًا، وتسبَّب في سقوط ديغول، وتُعرفُ هذه الحماقة بثورة ٢٢ مايو ١٩٦٨م.

[٢٤١]

إذا كان الغرابُ دليلَ قومٍ يمرُّ بهم على جِيفِ الكلابِ

[٢٤٢] ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ الآية.

كَم اندسَّ بَيْنَ المثقَّفِ حَرْكي![٢٤٣] فـأبـدَل فـيـهِ الـيَـقـيـنَ بـشَـكِّ!
يُـسَـبِّـحُ يـومًـا ويـكـفُـر عَـشـرًا ويـعْـبَـثُ بَـيـنَ عَـفـافٍ، وهـتْـكِ!
يُـجَـادل فـي الـحـقِّ بـالـشُّـبُـهَـاتِ وإن حَـصْـحَـصَ الـحقُّ جَـاءَ بـإفـكِ!
ويـطـعـنُ فـي وثـبـةِ الـثـائـريـن وإن خَـافَ عُـقْـبَـاهُ، قـامَ يُـزكّـي!
ويرتابُ في المذهبِ المرتضي[٢٤٤] وإنْ حَسَّ بالكسبِ ... الشموعَ يذكي!
يُـشـيـعُ الـمـروقَ بـدنـيـا الـشـبَـابِ ويُـذكـي غـرورَ الـشَّـبـابِ، ويَـحـكِـي!
كـجَـزَّارِ قـريَـتِـنَـا، لـم يَـزَل يَجُزُّ الرءوسَ — احترافًا — ويَبكي!
ويُـمـعِـنُ فـي الـدسِّ، سِـرًّا وجَـهْـرًا ويُـغْـمِـضُ مشـيَ الـنـمـيـم بـضَـحْـك!
سَـواءٌ لـديـه، إذا بـانَ مـالٌ أَلَاذَ بـإيـمـانـه، أم بـشِـركِ!
هُـمُـو فـي الـبـلادِ، شـهـادة زورٍ فـويـل الـجـزائـر، مِـن كـيْـدِ حـرْكـي!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وبَـعـضـهـمُ: أغـربـوا فـي الـسَّـخـافَـهْ وبـالـجـهـلِ يـحـتـكـرون الـثَّـقـافَـهْ
فـيـنـتـقِـدون، ويـحـتـقـرونَ ويـنـتـقِـصـونَ الـحجـى والـحصَـافَـهْ
ويـنـتـحِـلـونَ أَعَـزَّ الـكُـنَـى ويـمـتـهـنـون جَـلَالَ الـصَّـحـافـهْ
ويـخـتـلـسـون جـهُـودَ سـواهـم بـدون حـيَـاء، ودون نـظـافـهْ
غـرابـيـبُ سُـودٌ، تُـجـيـدُ الـنَّـعـيـق وتـخـتـالُ فـي مـشـيـهَـا كـالـزَّرَافـهْ
وتَـسْـتَـبْـلِـهُ الـنـاسَ فـي كـل شـيء فـمـا أثـبـتَ الـعـقـلُ قـالـت خِـلافـهْ

[٢٤٣] كلمة الحركي: اصطلاح على الطابور العميل الذي اصطنعته السُّلَط الاستعمارية لضرب الثورة من خلفٍ بيدِ المرتزقة من أبناء البلاد، وقد كثُر هذا النوع بعد الاستقلال، والأنكى من ذلك أنه اندسَّ بين المثقَّفين المستعمَرة ضمائرُهم وأفكارهم، واستغلَّ بعضُهم حسنَ نوايا الأحرار، ولكن إلى حين؛ فالباطل له ساعة، والحق إلى الساعة.

[٢٤٤] المذهب الاشتراكي المستمِدُّ مناهجه من صميم الاشتراكية الإسلامية وواقع الجزائر خلافًا لمن يدعو إلى أيديولوجيات مستورَدة لا تنسجم وأصالتنا وذاتيتنا، وتتنافر وخصائصنا، وتشكل خطرًا على سيادتنا واستقلالنا، ونُعيد فنكرِّر أنها لم تُفِد حتى أهلها الذين يمارسونها منذ عشرات وعشرات السنين.

وما قـرَّرَ الـعـلـمُ والـضـالـعـون رَمـتْـه، وقـالـت: حـديـثُ خـرافـهْ
ويـفـشـو الـفـراغُ، بـهـم والـضَّـيَـاع فـيـعـتـبـرون الأصـالـةَ: آفـه
وتـقـرع فـيـهـم ريـاح الـطـبـول فـتُـغْـريـهـمـوا بـادِّعـاءِ الـخـلافـه
قـرامِـطـةٌ كـالـحـجـارةِ غُـلْـفٌ فـيَـالَـمصـيبـتـنـا فـي الـثَّـقـافـهْ![٢٤٥]

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

ومـسـتـشـرقـون، أحـبـوا الـجَـلَالا ومُـسـتَـشـرقـون، أشـاعـوا الـضَّـلالا
فـمـن أنـصـفـونـا وقـالـوا صَـوابًـا وشَـدُّوا إلـى مـلـتـقـانـا الـرِّحَـالا
ولـم يـنـقـصـوا قَـدْر أمـجَـادنـا تـخـذنـاهـمـو قـدوةً ومـثـالا
وأكـبـرَ إنـصَـافَـهـم شـعـبُـنـا ولـم يُـنـكِـر الـعـلـم فـيـهـم خـصـالا
ومَـن ألـبـسـوا الـحـقَّ حـقـدًا دفـيـنًـا وألـقـى الـصـلـيـبُ عـلـيـهـم ظـلالا
وكـانـوا طـوابـيـرَ مـسـتـعـمـريـنـا وكـانـوا مـخـاضَ الـلـيـالـي الـحُـبـالـى
دَعـونـاهـمـو لـلـجـدال الـنـزيـهِ وقـلـنـا لـهـم لا نَـهـاب الـجـدالا[٢٤٦]
فـإن أنـصـفـوا الـعـلـمَ والـحـقَّ قـلـنـا: نـفـوسُ الـرِّجـالِ تُـجـلُّ الـرِّجـالا
وإن طَـمـسَ الـحـقـدُ أبـصَـارَهـم نـبـذنـاهـمـو، وسَـحـبـنـا الـسـؤالا
وبـالـدم نـكـتـبُ تـاريـخـنـا ونـبـلـغ — بـالـعـدل فـيـه — الـكـمَـالا

[٢٤٥] سواء منهم «يتامى الثقافة» الذين حرموا أنفسهم أو حُرموا من ثقافتهم الأصيلة ويدَّعون — كشأن صاحب الجهل المركَّب — أنها لا شيء، أو أولئك المعقَّدون ممن أصلُ تعليمهم عربي إسلامي، ولكنهم تعقَّدوا، ونسمعهم يتكلمون عن تقدمية عوجاء هي عندهم عقدة أكثر منها عقيدة، ويلوكون بعض الشعارات الجوفاء التي لا يدَّكرون مغزاها العميق، ولو درسوا في بعض الجامعات الشعبية في بلدان أوروبية شرقية — وهي جامعات مخصَّصة لأبناء العالم الثالث — قلبوا لهم هناك أدمغتهم، وأرجعوهم إلينا ممسوخين ليمسخوا آخرين معهم هنا ... خاصة ممن درسوا في بعض بلدان المشرق العربي المسكين! كفى عبثًا! أفقنا؟

[٢٤٦] دار نقاشٌ حادٌّ أحيانًا أثناء الملتقى السادس للتعرُّف على الفكر الإسلامي عن دور المستشرقين، وكان ذلك بحضور كثير منهم، فليُرجع إليه في كتاب الملتقى، خاصة إلى تعليق السيد مولود قاسم على الموضوع إثر محاضرة الدكتور عبد الله العروي.

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وأعيا المبشِّرَ عمقُ العقيده فلم تُجدِ فينا المسَاعي الحميدَه[٢٤٧]
ولا عَسل في طواياه سُمٌّ ولا البَذل يخفي الشرور المبيدَه
ولَا أن يطوف بأبوابنا ومِن خلفها، عزماتٌ وطيده
ولا أن يُعالج فينا المريضُ وتُهتك في أصغريه العقيده
ولا بالأناجيل، تُنشر فينا فتصبح بالوضع غير مفيده
فحسب المبشِّر قرنٌ ونصف تجارب للزيغ، كانت بليده!
فإيماننا شامخ كعُلانَا ونظرتُنا فيه ظلَّت بعيده
ليغز المبشِّر أبناءه فقد أصبحوا كالقرود الطريده
بهم تتدحرج هيبية في خطواتٍ إلى الموت مَريده
وأحرى أن نبشِّر فيكم بإسلامنا، والمبادئ الرشيده

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وبعضٌ تزوَّج بالأجنبيَّه وقال: مثقفةٌ حَضريَّه
تُراقصني وتُراقص هَذا وذاك ... وتبعثُ عن حسنِ نيَّه
وتختالُ بالميني جوب دَلالًا وتستعرضُ المغريات الخفيَّه
وتتركيني ... لا جناح عليها وتذهبُ للسهرةِ النرجسيَّه
وتقضي الليَالي خارج بيتي وذلك من نِعمِ المدنيَّه
وإن وَلَدتْ ... لستُ أدري لمن؟ كفى أنه من بني البشريَّه

[٢٤٧] هنا أيضًا يطول الشرح؛ فالأحسن الرجوع إلى كتاب الملتقى السادس؛ حيث إن الجزء الأخير من هذه الإلياذة صدًى صادقٌ لجو الملتقى، وكان الجزء الأول موضوعًا قبل انعقاده مباشرة ومن أجله، كما سيُعرض هذا الموضوع أكثر في الملتقى السابع الذي سيُنشر في كتاب كما هو شأن الملتقى الرابع، والخامس، والسادس.

أنـاديـه صـالـح عـنـد الـصَّـبَـاحِ وأدعـوه مـوريـسَ عـنـد الـعـشـيَّـه
وإن زلَّ يـومًـا، تـنـاديـه بـيـكـو[٢٤٨] فـأحـسـب بـيـكـو مـن الـبـكـويَّـه![٢٤٨]
وتـدعـو مـسـاعـدنـا مـون أراب فـأهـوى الـعُـروبـة والـعـربـيَّـه!
وأنْـحَـرُ فـي نـحـرهَـا غَـيـرتـي فـتـغـدو أنـا ... ثـم أصـبـح هـيـه!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وتـفـاحـة، أخـرجـتْ آدمًـا مـن الـخُـلد، مـذ لـعـنـتـه الـسَّـمَـا
ولـكـن حـواءنـا بـلـعـتـهـا وبـالـعـلـج أبـدلـت الـمـسـلـمَـا[٢٤٩]
ولـم تـرضَ بـالـفـحـلِ مـن قـومـهـا فـهـامتْ بمَـن ... «ما رَمَـى إذ رَمَـى»!
فـسـحـقًـا لـبـنـتٍ تـزيِّـف جـيـلًا وتـلـعـن فـيـهَـا الـدمَـاء الـدمـآ ...
وتُـغـضِـبُ عـيسَـى المسيح، وتُـبكي عـلـى جـذعِ نـخـلـتـهـا مَـريَـمـا
وتـبًّـا لـمـجـتـمـعٍ خَـائـر تـعـيـشُ الـرجـالُ بـه كـالـدُّمـى!
يـمـوت ويُـقـبـر فـيـه الـضَّـمـيـر ويـحْـمـي الـبـريء بـه الـمـجـرمَـا!
تـعـالـي فـرنسَـا ... ادخـلـي بـسـلامٍ فـأبـنـاءُ صُـلـبـك مـلء الـحِـمـى ...!
غـدًا بـالـزغـاريـدِ يـسـتـقـبـلـون نـزولَـك فـي أرضـنـا بـعـدمَـا
ويـا قـادةَ الـشـعـب ... إن دَام هَـذا ... أقـيـمـوا عـلـى شـعـبِـكـم مَـأتـمـا ...!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

[٢٤٨] البيكو لفظةٌ فرنسية تُستعمل في شتم المسلمين واحتقارهم، وخاصة أهل شمال أفريقيا، أما البكوية فهي لفظةُ تشريفٍ في مصر، وصاحِبُها يُسمَّى «بك» وتُنطق اللفظة «بيه».

[٢٤٩] الباء تدخل على المتروك، ولكن الشاعر سار هنا على الخطأ الشائع بقصد، لضرورة الوزن، وقصده طبعًا أن المسلم هنا هو المتروك ليحل محله العلج، والعلج هو غير المسلم في العهد المسمَّى بالتركي في الجزائر، والمسلم حديثًا لأغراض معينة، وذلك في نفس العهد المذكور، ويقصد الشاعر هنا العصر الحاضر الذي بدأت تفشو فيه عادةُ تزوُّجِ المسلمات بغير مسلمين، أو مَن يُسلِمون «لامرأة ينكحها، أو تجارة ...» كما يقول الحديث الشريف عن الهجرة!

ومِنْهُنَّ كالعَنْز[٢٥٠] بادي الرذيلَه يُدَلِّلن بالعَارِ بين القَبِيلَه
يُشمِّرن ذيلًا عن العوراتِ يُثِرن فضولَ النفوسِ الدَّخيلَه
ويَسْلُكنَ غيرَ الطَّريقِ السويِّ كَخابط ليلٍ أضاعَ دليلَه
وفوقَ الطَّريقِ، وتحتَ الطريقِ[٢٥١] يَهِمْنَ كسكرانَ ضلَّ سبيلَه
خنافسُ، يكشفن سَاقًا كأنَّ الـ ـقيامةَ قامتْ لوأدِ الفضيله
جَلابيبُهُنَّ القِصَارُ الطوالُ كأحلامهن[٢٥٢] القِصَارِ الطويله
بَصَائرهُنَّ كأبصَارهنَّ مُرنَّحةٌ، خاسئاتٌ، كليله
وأخلاقهنَّ، كوجُوهِهنَّ بواسرُ، ممتقعاتٌ، عليله[٢٥٣]
وأجسادهنَّ قِطاعُ غيارٍ فكلُّ القِطاعات يكفي بديله
إذا جفَّ مَاءُ الحياء بأُنثى فَلِمَ لَا تجفُّ الطِّباعُ الأصيله!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وحاشاكِ، حَاشاكِ بنتَ الأَصَالَهْ ومَن شرَّفتْ جنسَهَا ورجَالَهْ
وصَانَ شَبَابَكِ بنتَ الحَلَالِ كما صُنْتِ عرضَك بين الحثالَهْ
سَلكتِ الطَّريقَ القويمَ المُبينَ فجنَّبكِ العقلُ سُبْلَ الضلالَهْ
وأضفى عليكِ جَلالُ الحيَاء جمالَ الحيَاة، فصُنتِ جَلَالَهْ
وهالَكِ من جنسكِ الابتذالُ فَعِفْتِ حَقَارَتَهُ وابتذَالَهْ
ونادَاكِ شعبُك يومَ التنادي فشرَّفتِ ثورتَه ونِضَالَهْ[٢٥٤]
وكنتِ لِحواءَ في الخالداتِ مثالًا فريدًا، عَدِمْنا مثالَهْ

---

[٢٥٠] تشبيه المستهترات بالمعز يمشي كاشفًا سوأته (يدلل بالسلعة).

[٢٥١] من عادةِ المَعْز أن لا يسير في طريق مستقيم، فإما فوق الطريق، وإما تحت الطريق، فالتحتية والفوقية تلازمان المَعْز، كما تلازمان قليلات الحياء.

[٢٥٢] الأحلام: ما يراه النائم، وتُطلق على المدارك والعقول (أضغاث أحلام).

[٢٥٣] من السهر في علب الليل، والمراقص ... إلخ، في شرب الخمر وغيره، أما أخلاقهن فمن الذوبان، والأمساخ والتخلُّق بغير أخلاق قومهن.

[٢٥٤] مثل لالا فاطمة نسومر، وحسيبة بن بوعلي، ومالكة قائد ... إلخ.

فَمثلُكِ مَن يصنع الجيلَ شهمًا ويَرعى استقَامَتَه، واعتِدَالَهْ
ويزرع مِلءَ دِمَاهُ اعتدادًا يُذيب ميوعَتَه وانحلالَهْ
إذا الجيلُ قطَّعَ أسبَابَه بأمْجَادِهِ، فاقطعنَ حِبَالَهْ

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وأَجْلَى الشبَابَ غَلَاءُ المهُورْ فلَاذَ – على حبِّه – بالنفورْ[255]
وفضَّل مَاري على مَريَمٍ ورِيتَا على زينبٍ والزهُورْ
وطَارَ مع الرِّيحِ مِنْ وكرِهِ وأفلت من ظلماتِ القبُورْ
كأن البنات، بضاعةُ سوقٍ تُبَاع وتُشرى ... فَتُقضى الأمورْ!
وتُحْلَبُ في الحيِّ كالبقَرَاتِ فإن غاضَ منها الحليبُ تَبُورْ
وبالمالِ تُقذَفُ طَوْعًا وكرهًا بأحضانِ مَن نفضته الدُّهُورْ
وتقضي مع الثورِ عمْرَ الثَّكالى وإن أفلتتْ بَلَعَتها الشرُورْ
وعَلَّال عَادَ إلى وكره بمَاري ولَعنَتِه تِيُودورْ
فَويلُ الجَزائر، جيلًا فجيلًا إذَا لم تُحَطِّمْ غلاءَ المهُورْ
وتعسَ شَباب، عديم النُّهَى على رِجْسِ عاداته لا يثُورْ!

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وأفلت مِن قَفَصِ الاتِّهَامْ شَبَابٌ أصيلٌ، وفيٌّ الذِّمامْ
شَبَابٌ تطهَّر فيهِ الضميرُ فأعرض عن شُبُهَاتِ الطَّغَامْ
وأُشْرِبَ من نبعِ إسلامه وفلسَفةِ الدين، روحَ النِّظَام
ولم يَتَنَكَّرْ لأمجَادِهِ وأجدَادِه الخالدينَ العِظَام

[255] هذا مرض اجتماعي خطير من أمراضنا الأشد فتكًا بالأمة، ولا يُقضى عليه إلا بتعاون الجميع!

ولـم يـكُ بـالـتـبـعـيَّـاتِ يُـغْـزَى    ويَجْري وراءَ السَّحاب الجُهامْ[٢٥٦]
ولا بـالـمـذاهـبِ[٢٥٧] يُـغـرَى فـتُـشـرَى    بِـبَـخْـسٍ عَـقـيـدَتُـه كـالـسُّـوَام
ولـم تَـخْـتَـطِـفْـه مـراهـقَـةٌ[٢٥٨]    ثـقـافـيـةٌ ضَـلَّ عـنـهـا الـفِـطَـام
ولـم تُـجْـدِ فـيـه مَـعـاولُ هَـدْمٍ    يُـصَـوِّبُـهـا دَارسُ[٢٥٩] الانـهـزام
ولـم يـتـأقـلـم بـيُـسـرَى،[٢٦٠] ويُـمـنَـى    وإسـلامُـهُ بَـيـنَ ذاكَ قَـوام
شـبَـابٌ عـلـيـه مَـنـاط الـرجـا    فَـمِـنـكم، ومِـنِّـي ... عـلـيـه الـسَّـلام

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وسـاجـلْ بـولـوقـيـن[٢٦١] عذبَ الـنَّـغَـمْ    يـنَـاغـمْـك شـاطـئـهُ الـمـبـتـسِـمْ
وتـفـتـحْ حـنـايـاكَ جُـرحًـا قـديـمًـا    ومـا نـام جُـرحُ الـهـوى بـالـقِـدَمْ
فـلا تُـفـشِ، يـا قـلـبُ أسـرَارَهَـا    فـإن شـهـيـدَ الـهـوى مَـن كـتَـمْ
ولا تـشـكُ لـلـكـائـنـاتِ أسـاك    فـأنـت الـخَـصِـيـمُ، وأنـت الـحَـكَـمْ
وخـلِّ الـمـواجـدَ لـلـذكـريَـات    تُـخـلِّـدْ بـهَـا حُـرُمـاتِ الـذِّمـمْ
قـداسـةُ أوجـيـن[٢٦٢] لـم تُـجـدِ فـيـهـا    فـأرسـى بـولـوقـيـنُ فـيـهـا الـحـرمْ!

---

[٢٥٦] السَّحاب الجُهام: السحاب الذي لا يُمطِر، ومنه قول الشاعر:

وفي الناس أخياف، جهام وماطر    وناب، ومضاء، وباز، وأبغث

[٢٥٧] المذاهب المستوردة والتي تخلَّى عنها أو عن جلِّها أصحابُها لظهور تناقضها مع الواقع.

[٢٥٨] المراهقة الثقافية، كناية عن الطيش الذهني والترف الفكري والسطحية وعدم الغوص والتَّعمُّق في استجلاء الحقيقة.

[٢٥٩] حارس الانهزام كناية عن بعض المدرسين الدكاترة رغمًا عنهم أولئك الذين ينشرون الضلالات والأفكار الانهزامية المنحرفة في عقول الأغرار.

[٢٦٠] لم يتأثَّر بالشيوعية ولا بالرأسمالية، وكان الإسلام بين ذلك قوامًا.

[٢٦١] بولوقين: الاسم الجديد الذي أُطلق بعد الاستقلال على ضاحية «سانتوجين».

[٢٦٢] أي أن القدِّيس أوجين (سانتوجين) لم تُجدِ قداسته في كبح غوايات هذه الضاحية العربيدة، فجاء بولوقين وحوَّلها حرمًا آمنًا فيما أتوقع!

مَـرَرنـا عـلـى الـوكـر مَـرَّ الـكـرام نـحُـث الـخـطـى نـحـو قـصـر الأمَـم!
فَـيُـشـبِـعُـنَـا سَـيِّـدي فَـرَجٌ عِـنـاقًـا، فـنُـلـقـى إلـيـه الـسُّـلَـمْ
وتـجـثـو الـريـاض[263] على قدميْنا فـيـخـفُـقُ فـوق ذُراهـا الـعَـلـمْ
وقـالـت لـنـا الـكـائـنـاتُ: لـمـاذا أتـيـتـم؟ فـقـلـنـا: لـنـبـنـي الـهـرمْ!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

ويـا مـلـتـقـى[264] فـكـرِ إسـلامـنـا ومـجـلـى قـداسَـةِ إيـمَـانـنـا
ويـا لـوحـة لـسـمـو الـجـلال ومـغـنـى الـجـمَـال بـأوطـانـنـا
ويـا مـنـبَـع الـنـور مـن وحـيـنـا وبـرج أصـالـة إشـعَـاعـنـا
ويـا حـجـة لـرسَـالات أرضِ الــ جـزائـر تـسـمـو بـأمـجـادنـا
وبـرهَـان إخـلاص أرض الـجـزائــ ـر عـبْـر الـقـرونِ لـقـرَّائـنـا
ويـا وافـدون عـلـى الـرحـبِ، حلُّوا كـرامًـا بـتـربَـة أجـدادنـا
تُـحـيِّـيـكـموُ مُـهْـجـات الـملايـيــ ـنِ، فـي الـخُـلـد مِـن عزِّ أبطالنا
تـنـاشـدُ فـيـكـم صـفـاءَ الـضـمـيـر وإنـصـافَ حُـرْمـة إسـلامـنـا
وخـدمـة تـاريـخـهِ مـن جـديـد إذا مـا صـدقـتـم لأجـيـالـنـا
وأن تـغـمـروا مـنـتـداكـم وضـوحًـا يـنـيـر الـطـريـقَ لـطـلابـنـا
فـأرضُ الـجـزائـر، أرض الـوضـوح وتـلـك طـهـارة نـيَّـاتـنـا

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

وأزعـجَ قـومًـا أذانُ الـصَّـلاة يُـجـلـجـل فـي الـقِـمَـم الـضـارعـات

---

[263] الرياض، فندق رائع اختير لاستضافة وفود الملتقى السادس للتعرُّف على الفكر الإسلامي من ٢٤–٧ إلى ١٠/٨/١٩٧٢م.

[264] هذا المقطع يضم ١١ بيتًا عوض عشرة أبيات، والبيت الزائد بمثابة سجدة السهو للحفاظ على قداسة الملتقى.

فيلقي له السَّمعَ قلب شهيد   تموج به القيمُ الصَّالِحَات
ويصدم آذان قومٍ بوقرٍ   فَتفجَعُهُم صَرَخاتُ الحيَاةْ
وَحَيُّ الدُّرَابِك[٢٦٥] في كل فج   تُصَبُّ على أهله اللعناتْ
وقرع الطبول، ونفخ المزامير   لم يُزعِج المهج الفاجِرَاتْ
ولائِمُ يخجلُ إبليس منها   ويرشح زقومها بالهنات
وأعراس[٢٦٦] خمرٍ، تُراق على   كَسَاكِسَ تقرف منها اللَّهَاةْ
وصَوت دعاة الهزيمةِ يُغري الضُّلوعَ،   ويزْرعُ فيها الممَات
أيُطْربكم، في الحقِ ناعق   وتستنكرونَ أذان الصَّلاة؟
وفوق المآذنِ صوت الإله   يقودُ الشِّراع لشاطي النجاة

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

رعى الله في العاملين الوزارة[٢٦٧]   أعادتْ لعلمِ الكتاب[٢٦٨] وقارَهْ
فكم ظلَّ يشكو الكتابُ عقوقًا   ويلعنُ مَن يطمسون مَنَارَهْ
وكم صدق الوعدُ، لو كان يجدي   رَعَاعًا، قلوبهُم كالحجارَهْ!
وكم وصموه بعقم، وقالوا:   تجاوزه اليَومَ ركبُ الحضارَهْ
ولو كشفوا عُمقَ أسرَاره   لفجَّر فيهم معاني الطهارَهْ

---

[٢٦٥] في صحراء الجزائر يُعبَّر عن الأمور السخيفة أو الرجل الوضيع بقولهم: «فلان، حي درابك.» والدرابك جمع دربوكة يُقْرع عليها لضبط موازين الإيقاع، وأصبح استعمالها منتشرًا فوضويًّا، وبصورة مزعجة في كل حي وكل درب صباح مساء، الأمر الذي يقلق راحة الناس أينما كانوا.

[٢٦٦] في بعض الأوساط الفاقدة الحياء تُعْقد ولائم تُسمَّى «أعراس البيرة» يُخلع منها العِذار، ويُذبح فيها السَّمت والوقار، حتى إن بعضهم يسقي الكسكسي (يُجمع على كساكس) لا بالمرق المعتاد؛ بل بالخمر الصرف، ويقدِّمه للوافدين معتزًّا فخورًا (بتقدميته) الداعرة الهوجاء. وإن هذه الضوضاء العربيدة لا تقلق راحتهم على ما هي عليه، فيزعمون أن مكبرات الصوت في المآذن تُقلِق راحة السكان وتقضُّ مضاجعهم. قاتلهم الله أنى يُؤفكون.

[٢٦٧] «الوزارة» الألف واللام للعهد الحضوري؛ أي وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية.

[٢٦٨] «علم الكتاب» أي فقه الشريعة وفلسفة الفكر الإسلامي، قال تعالى: ﴿وعِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

جـهَــاد الــوزارة نــورٌ وحــقٌّ سَـمَـا بـالـبـنـاء، وأرسـى جِـدارَهْ
مـسَـاجـد لـلـه فـي كـلِّ حـيٍّ يـبَـلِّـغُ ربـك فـيـهَـا قَـرارَهْ
مَـنـارات[٢٦٩] عـلـمٍ بـعُـرض الـبـلاد فـفـي كـل فـجٍّ عَـمـيـقٍ مـنـارَهْ
وكم خلَّـد الـمـلـتـقـى[٢٧٠] مـهـرجـانًـا يَـوجِّـه صِـدقُ الـضـمـيـر حِـوارَهْ
وروح الأصَـالـة تـسـمـو بـشـعـب مَـنـابـع إشـراقـه فـي الـوزارَهْ

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

فـيـا رب قـد أغـرَقَـتْـنـي ذنـوبـي وأنت الـعَـلـيـمُ بـمـا فـي الـغـيُـوب
أتــوبُ إلــيــكَ بــإلــيــاذتــي عـسَـاهـا تـكـفِّـرُ كـل ذنـوبـي
عـصـيـتُـك عـلـمًـا بـأنـك تـعـفـو على المسرفين[٢٧١] فهانت خطوبي
ولــولا صــفــاتُــك: رَبٌّ غــفــورٌ رحـيـمٌ، لـضـاقـت عـلـيَّ دروبـي
وأكَّدَ فِـعـلَ الـصِّـفـاتِ الـعـصـاة[٢٧٢] فـأكَّـد فـضـلـك سِـتـرَ الـعـيُـوب
عَـصـيـتـك لـمـا خـلـقـتَ الـجـمـال وهِـجـتَ بـه نَـصـبـي ولُـغُـوبـي
وصَــوَّرتَــنــي شَــاعــرًا مـرهَـفًـا يـهـبُّ الـصِّـبَـا والـهـوى لـهـبُـوبـي
ولـولَا الـجـمـالُ لـعـشـتُ عَـقـيـمًـا ومـا هِـمـتُ يـومًـا بـغـزو الـقـلـوب
وإن أنـا لـم أعـصِ، أهـلـكـتـنـي[٢٧٣] وأبــدلــتَــنــي بِـطَـرُوبٍ لــعــوب
فـيـا ربِّ، مـا حـيـلـتـي فـي الـهـوى وفـيـكَ؟ إذا لـم تُـكـفِّـرْ ذنـوبـي

---

[٢٦٩] مراكز التعليم الأصلي بمثابة منارات موزَّعة طول البلاد وعرضها.

[٢٧٠] ملتقيات الفكر الإسلامي التي تعقدها وزارة التعليم الأصلي كل سنة.

[٢٧١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

[٢٧٢] لولا وجود العصاةِ لبطل مفعولُ الكثير من صفات الله الحسنى؛ فوجود العصاة التائبين تأكيدٌ لسريان مفعول تلك الصفات.

[٢٧٣] إشارة إلى الحديث القدسي (إن صح سنده): «يا عبادي، لو لم تعصوني وتستغفروني فأغفر لكم، لأهلكتكم وأبدلتكم بقوم آخرين يعصون فيستغفرون فأغفر لهم.»

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

بلادي، وقفْتُ لذكرَاكِ شِعري    فخلَّد مجدكِ في الكون ذكري
وألهمتِني فصدَعتُ الدُّنا    بإليَاذتي في اعتزاز، وفخر
وكنت أوقِّعُ في الشاهقاتِ    خطى الثائرين بألحان صدري
فخلَّدَ قدسُ اللهيب[٢٧٤] بَياني    وأذكى لهيبُ الجَزائر فكري
وإن يجحَدوني ... فحسبيَ أنِّي    وهبْتُ الجزائر، فكري وعمري!
فآمَنَ بي كلُّ حرٍّ أصيلٍ    وأنكر شمسَ الضحى كلُّ غِمْرِ!
وتقصُر دونَ خُطايَ خطاهم    ويؤذيهم الوردُ[٢٧٥] من طيب عطري
تركتُ الخوالِفَ، تحسو الغُبَارَ    وطِرتُ أسابقُ مطلع فجر
ودست الصراصيرَ بين الصخور    فَصَعَّرَ خَدَّ الحجَارةِ صخري
وألقيت في الساحرين عَصَاي    تَلَقَّفُ[٢٧٦] ما يأفكونَ بسحري

شَغَلْنا الورى، ومَلَأْنا الدُّنا
بشِعرٍ نُرتِّله كالصَّلاة
تسابيحهُ من حَنايا الجزائر

وران على البعض حمقٌ وجَهل    وأغرقهم في السخافات وحْلُ
وقالوا: قصيدُك شعرٌ قديمٌ    يكبِّلُه بالتفَاعيل غِلٌّ
وما حيلتي ... إن يكنْ شعرهم    دَخيلًا ... وشعري يزكيه أصلُ؟
وإن يَكُ شعر الخنافيسِ خُنثَى!    فشعري صَريحُ الرجولة، فحلُ!
وقالوا: مَدحتَ بِهِ الحاكمين    ومدح ذوي الحكم يجفوه عَقلُ
ولو أنصَفَ الغُشْمُ، قالوا: وصفتَ    ووصْف البطولاتِ فضلٌ وعَدل
ولن ينكر المجدَ إلا الجبان    ولن يجحَد الفضل إلا العُتُلُّ

---

[٢٧٤] اللهب المقدَّس ديوان الشاعر أثناء الكفاح التحريري المسلَّح وسجلٌ له.

[٢٧٥] «إن ريح الورد يؤذي بالجُعَل».

[٢٧٦] تلقف بحذف إحدى التاءين أصله تتلقَّف، وفي القرآن: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

وقـالـوا: انـحـرفـتَ بـإلـيَـاذة تـلـوم الـشـبَـابَ، ومـثـلُـكَ يـعـلـو
هـومـيـروسُ أَرَّخَ لـم يـنـتَـقِـدْ وشـهْـنامـةُ الفرس بـالـوصفِ تغلو
فـقـلـتُ: وشِـعـر الـخـرافـاتِ يَـفْـنَـى! وشِـعـر الـبـطـولات لا يـضـمـحـل![٢٧٧]

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

وقـالـوا: هَـجـرتَ ربـوعَ الـبـلادِ وهِمتَ مَع الـشِّـعر، في كل وادي
أجـلْ، قـد بـعُـدتُ لأزدادَ قُـربًـا ويُـلـهِـبُ حـبُّ بـلادي فـؤادي!
أرى فـي كِـيـان الـجَـزائـر ذاتـي بـكـلِّ اعـتـزازٍ، وكـل اعـتـداد!
ومـا زِلْـتُ عـنـهَـا بـدُنـيا الـقـلـوبِ سَـفـيرَ الـقـلـوبِ، بـدون اعـتـماد![٢٧٨]
وإن بـلادًا تُـصَـدِّرُ[٢٧٩] فـكـرًا وكـانـت تُـصَـدِّرُ فـنَّ الـجـهَـاد!
حَـريٌّ بـهـا أن تـرُوع الـزمَـانَ وتـفـخـر بـالـمـجـد، فـي كل نـادي!
ولـولا الـتـنـقُّـلُ يُـذكـي شـعـوري ويُرهـفُ حِـسـي، ويبلُـو[٢٨٠] رَشـادي
لَـغَـاضَ مَـعـيـنـي، وأجبل[٢٨١] فكري وعِـشـتُ بـلـيـدًا كـبـعـض الـعـبـاد!
وصِـرتُ أردِّدُ كـالـبَـبَّـغـاءِ مـذاهِـبَ لـم تـكُ صُـنْـعَ بـلادي!
وإنـي بـتـخـلـيـد مَـجـدِ بـلادي مـقـيـمٌ عـلـى الـعـهـد، رَغـم الـبعَـاد!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ من حَـنـايـا الـجـزائـر

---

[٢٧٧] إشارة واضحة إلى أن إلياذة الجزائر تمتاز عن غيرها بكونها وصفًا لحقائق، وتسجيلًا لوقائع، مع التحذير من مغباتٍ وقعت فيها أممٌ في قمة التقدم ونحن في أولى درجات السُّلم من جديد!

[٢٧٨] أي سفير القلوب للقلوب بدون أوراق اعتماد، يشيع المحبة والأخوة والعاطفة الصادقة بين «الأشقاء والأصدقاء».

[٢٧٩] الأمة التي بلغت درجة التصدير أرقى من الأمة التي في حاجة للتوريد.

[٢٨٠] يبلو: أي يمتحن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ﴾.

[٢٨١] أجبل: أي ضعُف وعجز عن نظم الشعر الرفيع، يُقال: أجبل الشاعر: أي انقطع عنه الإلهام.

بــلادي، بـــلادي، الأمـــان الأمـــان      أُغــنِّـــي عُــلاك، بــأي لــسَـــان؟
جَـلالُـك، تـقـصـر عَـنـه الـلـغـى      ويُـعـجـزنـي فـيـك سـحـرُ الـبـيَـان
وهَـام بـك الـنـاسُ، حـتـى الـطـغـاه      ومـا احـتـرمـوا فـيـك حـتـى الـزَّمَـان
وأغـريـت مـسـتـعـمـريـك، فـراحـوا      يهيمُون في الشرقِ بالصولجان[282]
ولـم يـبـرحـوا الأرضَ، لـمـا اسـتـقـلَّـت      شـعـوبٌ، ولـم تَـسْـتَـكِـنْ لـلـهـوان
وزلـــزلـــتِ الأرضُ زلـــزالـــهـــا      وضــجَّ لــغــاصــبــك الــنــيِّــران
وراهـنـه الـشـعـبُ يـوم الـتـنـادي      ورجَّ بـه الـشـعـبُ يـومَ الـرهَـان
فـتـبـيـض صَـفـحـة إفـريـقـيَـا      ويـسـودُّ وجـهُ الـمـغـيـرِ الـجـبَـان
وإشـراقـةُ الـروحِ مـنـكِ تـنـاهـت      تُـشـيـعُ الـجـمـالَ، وتُـفـشـي الـحـنـان
إلـيـكِ صَـلاتـي، وأزكـى سَـلامـي      بــلادي، بــلادي، الأمـــان الأمـــان!

شَـغَـلْـنـا الـورى، ومَـلَأْنـا الـدُّنـا
بِـشِـعـرٍ نُـرتِّـلـه كـالـصَّـلاة
تـسـابـيـحـهُ مـن حَـنـايـا الـجـزائـر

[282] يقصد الشاعر الكبير، الذي لن تنسى له بلاده ولا أمته، الصغرى منها والكبرى، هذا الأثر الباقي، أن الاستعمار بعد احتلال الجزائر، بعد مقاومة طويلة منها راودته نفسه عن الامتداد وكان له ذلك، فاحتلت تونس، ثم مصر، ثم ليبيا، ثم المغرب، ثم سوريا ولبنان، والعراق، وفلسطين، فهل من مدكر؟
هذا التعليق مع أخريات عديدات، لمولود قاسم نايت بلقاسم.


هنداوي